قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد

«تراجم مصرية وأجنبية»

محمد لطفي جمعة

مراجعة

رابح لطفي جمعة

Bibliotheca Alexandrina
0118020

١٩٩٨

عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة ت: ٣٩٢٦٤٠١

قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد

«تراجم مصرية وأجنبية»

محمد لطفي جمعة

مراجعة

رابح لطفي جمعة

١٩٩٨

عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة ت ٣٩٢٦٤٠١

تقديم

رابح لطفى جمعه

تحتل التراجم والسير فى مجال الكتابات التاريخية والأدبية مكاناً مرموقاً ، فالسيرة أو الترجمة هى البحث عن الحقيقة فى حياة إنسان فذّ والكشف عن مواهبه من ظروف حياته التى عاشها والأحداث التى واجهها والأثر الذى خلفه بعمله فى محيطه ومجتمعه ، فبقدر مايعظم هذا العمل ويعظم أثره فى جيله ، بقدر مايحفل به التاريخ ·

وتعتبر السيرة أو الترجمة أكثر نبضاً بالحياة من التاريخ ، ففيها نلتمس الإنسان المترجم له عن طريق الأحداث ، ولذلك كانت الترجمة أكثر إثارة وإمتاعاً وتشويقاً للقارىء من كل كتابة تاريخية سواها ·

وكتابة التراجم أو السير فنّ يعتمد على الوثائق والمدونات والرسائل والمذكرات والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء والزيف والادعاء ، وتحتاج الى حصيلة ضخمة من المواد والمراجع والمصادر التى تمكن من فهم نفسية الشخصية التى يترجم لها وتدرس آثارها وأعمالها · كذلك قد تعتمد كتابة التراجم – عدا ماذكرنا – على المعاصرة أى العلاقة الشخصية التى قد تربط بين المترجم والمترجم له ·

وعلى مدى العصور المختلفة للأدب العربى ، بلغت كتابة التراجم على يد العرب مالم تبلغه عند المؤرخين الإغريق والرومان وفى مقدمتهم « بلوتارك » فى كتابه « حياة العظماء » الذى يستوى على القمة من أعمال المؤرخين فى عهده وإلى ما بعد عهده بحقب طويلة ·

وقد ذخرت المكتبة العربية بالعديد من كتب التراجم والسير ، نذكر منها فى القديم كتاب الشعر والشعراء لأبى عبيدة والأغانى لأبى فرج الأصفهانى وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الذى جمع فيه أخبار المشرق وأدبائه ليتحف به أهل وطنه فى الأندلس ، وكتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان وهو من كتب التراجم القيمة وقد تمم عليه محمد بن شاكر الكتبى بكتابه الذى سماه فوات الأعيان ، وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادى وتاريخ دمشق وأعلامها لابن العساكر ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ، وكتاب الذخيرة فى محاسن أهل هذه الجزيرة لابن بسام الأندلسى وبغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس للضبى، دع عنك كتب طبقات الرجال مثل طبقات الصحابة وطبقات الصوفية وطبقات الشعراء وطبقات النحاة وطبقات الأطباء وغيرهم .

أما فى العصر الحديث فقد نشطت كتابة السير والتراجم وأوفت على جهود المؤرخين فى كتابة التاريخ العام ، فإذا نظرنا الى الكتابات فى مجال التراجم نجد أعمالاً قيمة وموسوعات ضخمة يربى بعضها على أكثر من عشر مجلدات ، نذكر منها موسوعة عمر رضا كحالة المعروفه باسم « أعلام المؤلفين » وتقع فى خمسة عشر مجلداً، وموسوعة خير الدين الزركلى التى تنتظم ترجمة عشرة آلاف علم من أعلام العرب والمسلمين فى القديم والحديث وقد بدأها المؤلف سنة ١٩١٢ وانتهى منها سنة ١٩٧٩ وتقع فى عشرة مجلدات ، كذلك موسوعة زكى مجاهد المعنونة « الأعلام الشرقية فى المائة الرابعه عشرة للهجرة » ، وقد بدأ ظهورها سنة ١٩٤٨ ونشر منها خمسة أجزاء تنتظم تراجم رجال الشرق من الدول العربية والإسلامية ، وكتاب جرجى زيدان « أشهر مشاهير الشرق » ، وكتاب يوسف أسعد داغر « مصادر الدراسة الأدبية » الذى خصّ الجزء الثانى منه للأدب العربى الحديث وأعلام الراحلين .

ومن موسوعات التراجم أيضاً فى العصر الحديث موسوعات تتضمن ترجمة لطبقات معينه من الأعلام مثل كتاب معجم الأطباء للدكتور أحمد عيسى وهو تكملة لكتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة ، وكتاب « تاريخ الصحافة العربية » للكونت فيليب دى طرازى وهو موسوعة لأعلام الصحافة العربية وتقع فى أربعة مجلدات وتحتوى على ترجمة للعديد من رجال الصحافة ، ومعجم الشعراء العرب المعاصرين الذى أصدرته مؤسسة البابطين للإبداع الشعرى سنة ١٩٩٥ فى ستّ مجلدات .

كذلك من ألوان التأليف فى التراجم والسير أن يتناول المؤلف أعلام قرن من الزمان بعينه ، وهى سنّة جرى عليها كتاب التراجم بعد ابن خلكان فى الترجمة لأعلام كل عصر على حدة ، فتتصل بذلك تراجم أعلام العصور قرناً فقرناً ، فكتاب « الدرر الكافية » لشهاب الدين بن حجر العسقلانى أرّخ لأعلام القرن الثامن الهجرى ، فى حين أن كتاب « الضوء اللامع » للسخاوى ترجم لأعلام القرن التاسع الهجرى ، وكتاب « الكواكب السائرة » للغزى ترجم فيه المؤلف لرجال القرن العاشر الهجرى ، وكتاب « خلاصة الأثر » للمحبى ترجم فيه المؤلف لرجال القرن الحادى عشر الهجرى ، أما كتاب « سلك الدرر » للمرادى فقد انتظم ترجمة رجال القرن الثانى عشر الهجرى، وأخيراً تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر للهجرة لأحمد تيمور ، وقد سبق أن ذكرنا موسوعة زكى مجاهد المعنونة « الأعلام الشرقية فى المائة الرابعه عشرة للهجرة » .

وبعد ....

فهذا كتاب محمد لطفى جمعه الذى أسماه « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد » وينتظم ترجمة اثنين وستين شخصية عربية وأجنبية من رجال الفكر والدين

والسياسة والصحافة والمحاماة وغيرهم ، ويتميز هذا الكتاب بالعديد من المميزات التى تجعله فريداً فى بابه من بين كتب التراجم العربية الحديثة .

ولعل أولى هذه المميزات أن المؤلف اعتمد فى الترجمة لبعض الشخصيات على المشاهدة والمعاشرة والصلة الشخصية والمعاصرة ، ومما لاشك فيه أن المعرفة الشخصية والصداقات والزمالة فى العمل تعتبر أكبر عون لكتاب التراجم ومصدراً هاماً من مصادر التراجم ، ولذلك فقد أولى الباحثون أهمية كبرى للكتابات التى كتبها بعض كتاب السير والتراجم عن شخصيات ارتبطوا بها بصلات شخصية وعدّوها فى درجة الشهادة وهى أكبر من درجة الرواية والنقل .

وتتمثل الصلة الشخصية فى أحوال ثلاث ، الأولى صلّة الصداقة أو الزمالة ، والثانية صلة التلمذة ، والثالثة صلة العمل ، وتجمع المعاصرة هذه الصلات جميعها ، وتختلف الكتابة فيها باختلاف نوع الصلة ، فيغلب على صلة التلمذة طابع الحب والولاء والإعجاب بالمترجم له والدفاع عنه وقلما ترتفع هذه الكتابات إلى التعرف على أوجه النقص أو الضعف فى الشخصية .

أما فى مجال الصداقة بين المؤلف والمترجَم له ، فإن الكاتب يستطيع أحياناً أن يواجه صاحبه بشىء من الجراه والقدرة على كشف أعماق النفس دون خشية من عتاب أو لوم ، اعتباراً بأن الإنسان إنسان بخيره وشره ، وجدّه وهزله ، وتساميه ومباذله ، ومعايبه وفضائله ، ذلك أن مهمة المترجم كما يقول إميل لودفيج أشهر كتاب التراجم « هى أن يكشف لنا الإنسان العادى المختبىء فى هيكل العظم وأن يتبين الملامح الإنسانية البسيطة المختفية وأن يمكننا من أن نرى الانسان نفسه » .

أما التراجم التى تعتمد على صلة العمل فلا تكاد تخرج عن نوعين من الكتابه..، الأول التعاطف والولاء ، والثانى الخصومة والعداء .

وجملة القول فى كتابة التراجم التى تعتمد على المعاصرة والصلة الشخصية هى أن هذه الصلة قد استطاعت أن تقدم لنا فى فن التراجم والسير إضافات هامة ونافعة للنقاد وعلماء النفس .

وفى هذا الكتاب الذى نحن بصدده اعتمد لطفى جمعه فى تأليفه على صلاته الشخصية بالمترجم لهم ، سواء أكانت هذه الصلات صلة تلميذ بأستاذه أم صلة الصداقة أم صلة الزمالة فى العمل ، فمعظم ما كتبه عن الشخصيات التى ترجم لها هو تسجيل لذكرياته عنهم وعن أعمالهم وعلاقته بهم وعلاقتهم به ، وبذلك يذكرنا المؤلف بكتاب « جامع التواريخ أو نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » للتنوخى الذى ألف كتابه معتمداً فيه على صلاته الشخصية بمن تحدث أو نقل عنهم وسجله من أحداث وشخصيات .

وهذا ما أكده لطفى جمعه نفسه فى ترجمة عبد الله بكرى أحد ظرفاء مدينة بورسعيد حيث يقول : « أشعر أحياناً بالغضب والألم كلما وقع تحت قلمى حادث مكدر أو نقص فى الأخلاق منسوب إلى أحد ممن أكتب عنه ، لأننى أحببت أن تكون هذه الأخبار الصادقة دالة على معالى الأمور مرشدة لكريم الأخلاق زاجرة عن الدناءة ناهية عن القبح باحثة عن صواب التدبير وحسن التقدير ، ولذا أدونها بصراحة وحسن نية ، حتى إذا تناولها القارىء أخذ نفسه بأحسنها ، وخلصها من مساوىء الأخلاق كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها ، وروّضها على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم ، وإنما مثل هذه المذكرات مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين ، فإذا مّر بالقارىء حديث فيه إفصاح بذكر عيب أو نقيصة أو وصف سيئة فلا يحملنّه على السخط والنقد فيعرض بوجهه ، فإن ذكر المساوىء لايؤثم وإنما المآثم فى شتم الأعراض وقول الزور والكذب

وأكل لحوم الناس بالغيب . وقد حاولت أن أجرى فى بعضها على عادة السلف الصالح فى إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ، ولى فى ذلك أسوة ببعض الكتاب الأماثل كالتنوخى فى نشوار المحاضرة وأحمد بن يوسف فى كتاب المكافأة وغيرهما ، فإن بمثل هذين يحصل التهذيب وتتم الغاية المقصودة من التأليف » .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كتب التراجم والسير غالباً مايتحدد إطارها بالزمان والمكان اللذين عاش فيهما المترجم لهم ، فالزمان هو مدى الوقت الذى امتدت فيه حياة هؤلاء الأشخاص ، والمكان هو البيئة أو المجتمع الذى امتدت فيه تلك الحياة ، وبالنظر الى إطار الزمان والمكان فى كتاب لطفى جمعه ، نجد أنه يتميز أيضاً فى هذه الناحية، فبالرغم من قصر الزمان « حوالى نصف قرن » وعدم شمولية المكان (مصر وبعض البلدان الأوربية) ، فقد تمكن المؤلف من إعطائنا صورة للعديد من أعلام عصره وجمع بين أشتات مختلفة ومتنوعة من هؤلاء الأعلام ، وقدم لنا نماذج من قطاعات متعددة من المجتمع المصرى خلال نصف قرن من الزمان .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد اقتصر المؤلف فى كتابه على الترجمة - فى الأغلب الأعم - على أعلام عصره الراحلين دون الأحياء منهم ، ولاشك فى أن هذه ميزة تحسب للكتاب ، لأن المعاصرة حجاب ، بمعنى أن من يترجم لشخصية من شخصيات العصر الأحياء قد يجنح إلى المبالغة فى الإعجاب والإطراء بقدر ماقد يجنح إلى التطرف فى الخصومة والعداء ، بعكس من يترجم لشخصية من المتوفين بعد أن انقطعت الأسباب بينه وبين الناس .

كذلك يتميز الكتاب بأن المؤلف حرص على وصف بعض الشخصيات المترجم لها ووصف أخلاقهم وطباعهم ، ونحن عندما نطالع الكتب التى ألفت قديماً أو حديثاً فى

تراجم الأعلام من الأدباء والشعراء والعلماء والمفكرين والقادة ورجال الدولة وغيرهم ، فإننا قلما نعثر فيها على وصف للمترجم له أو وصف ثيابه أو أخلاقه وطباعه مع أهمية ذلك عند علماء النفس ورجال الاجتماع والنقاد ٠

وقد تميز كتاب لطفى جمعه عن كثير غيره من كتب التراجم والسير بأن أعطانا المؤلف صورة أو ملامح عامة ولو أنها سريعة ومقتضبة عن الأعلام الذين ترجم لهم سواء من حيث وصف الوجه وطول القامة أو قصرها واعتدال الجسم أو بدانته أو نحافته ووصف الثياب التى كان المترجم له يرتديها ، وأحياناً وصف أخلاقه وطباعه بحيث إذا قرأنا لعديد ممن ترجم لهم المؤلف استطعنا بقدر أو بآخر أن نتمثلهم فى أذهاننا ، وهذه ناحية لاتخلو من أهمية ، ذلك أن إعطاء مؤلف التراجم لنا بعض الملامح الجسدية والخلقية لمن ترجم لهم والاشارة إلى ما اتصفوا به من طباع وأخلاق ووصف ملابسهم وأنواع ثيابهم ، كل هذا وغيره يساعد الناقد والمؤرخ وعالم النفس وعالم الاجتماع على الوقوف على المزيد من المعلومات عن الشخصية التى يتناولها كل منهم بالدراسة والبحث والتحليل ٠

كذلك من أبرز مايتميز به هذا الكتاب أن المؤلف أورد لنا فيه طرفاً من ملامح الحياة الاجتماعية فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين وذلك من خلال حديثه عن بعض الشخصيات التى ترجم لها ٠

وأود أن أشير هنا إلى أننى قد أضفت إلى الشخصيات التى تحدث عنها المؤلف فى هذا الكتاب - بعض الشخصيات الأخرى التى سبق وأن كتبت عنها مقالات فى بعض الصحف والمجلات ، كما أضفت إلى بعض الشخصيات التى ترجم لها المؤلف فعلاً فى هذا الكتاب ماسبق وأن كتبته عنها أيضاً فى مقالات نشرت ببعض الصحف والمجلات ، وأشرت فى الهامش إلى هذا وذاك فى موضعه ٠

هذا وقد عثرت على ورقة أورد فيها المؤلف بخط يده أسماء لبعض الشخصيات وكتب قرين هذه الأسماء عبارة « تضاف إلى التراجم بمقدمة صغيرة » . ومن هذه الأسماء شخصيات ممن أضفتها إلى الكتاب على نحو ماذكرت آنفاً وهم حفنى ناصف وعلى فوزى وعبد العزيز الثعالبى وويلفريد اسكوين بلنت .

أما الشخصيات الأخرى التى لم يقدر للمؤلف أن يترجم لها وإن كان قد كتب عن بعضها فى مذكراته المخطوطة ، فهى محمود واصف وعبد الفتاح بيهم ومحمد كرد على وعبد القادر المغربى وأحمد نجيب المحامى وعبد العزيز خليل ومحمود عمر ومحمد خطاب وعبد الله لطفى وعبد المجيد رضا وأحمد سالم وهاوتون وأمين عمر وفيضى باشا وطنطاوى جوهرى وعبد الجواد عبد العال وادوار ڤانديك وحسن حسيب وعبدالله سلامة ومحمد فهمى ومحمد فريد وحامد العلايلى وإبراهيم رمزى وعبد العزيز جاويش وأمين سعيد ومحمد خالد وأحمد موسى وأحمد شفيق باشا وأحمد زكى شيخ العروبة والدكتور محمد سليمان وعثمان باشا غالب والغرابلى وأحمد ماهر ومصطفى المراغى وجرجى زيدان وإسماعيل كامل وتوفيق دياب ومحمد على الأسمر وحسين رمزى وأبو ذرّ رؤوف .

والقارىء لهذه الأسماء يلاحظ أن من بينها أعلاماً فى الدين والأدب والسياسة والصحافة والاستشراق ، وكم كنا نود لو أن المؤلف كان قد كتب عن هذه الشخصيات خدمة للتاريخ والأدب ، سيما وأنه كان على صلة شخصية بها وممن ربطت بينهم وبينه المعاصرة والعلاقة الشخصية واتصلت أسبابهم بأسبابه ، فعرفهم عن قرب وخبر من أمورهم ماقد يخفى على كثير من أبناء هذا الجيل .

على أننى أذكر أننى فى كتابى « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الأعلام » المطبوع سنة ١٩٩١ قد تحدثت عن بعض هذه الشخصيات التى لم يقدر للطفى جمعه أن يكتبَ

عنها وأوردت ماكتبه عنها فى مذكراته المخطوطة ، كما أوردت بعض الرسائل التى بعثوا بها إليه من أمثال محمد فريد وجرجى زيدان والشيخ طنطاوى جوهرى ومحمد كرد على والكاتب المسرحى إبراهيم رمزى وأمين سعيد وأحمد زكى شيخ العروبة .

هذا ما عنّ لنا من تقديم هذا الكتاب للقارىء ، ونرجو أن نكون قد وفقنا إلى تجلية أهم مايتميز به هذا الكتاب القيم الفريد فى بابه الممتع فى مضمونه ومحتواه .

والله ولى التوفيق،

رابح لطفي جمعه

القاهرة فى ٣ مارس ١٩٩٧

٢١ شارع أمين الخولى – مصر الجديدة
القاهرة

إبراهيم دسوقى اباظة

عرفت من الأسرة الأباظية عشرات الأفراد وكلهم أصدقاء أوفياء ولكل منهم معى سكرمة وهى أسرة من خير الأسر فى مصر وفيها رجولة ووفاء ووطنية وعلم وأدب . أول من عرفت منهم المرحوم شاكر أباظه وكان شاباً أديباً صحفياً ينشر جريدة أسبوعيه باسم الحماية ، ولا علاقة لها بالسياسة ولكن كان اسمها مصادفة يكتب فيها وأصدقاؤه المرحوم إبراهيم رمزى بك ومحمد الباسل بك ودكتور مصرى غاب عى اسمه كانت له عيادة وصيدلية بشارع محمد على وهو أول من رأيت عنده كتب ابر سينا فتناولت أحدها لأقرأه فقال لى حتى تشيب ياولدى ثم تقرأ ابن سينا، ولكن أرا الله أن أقرأها قبل أن يدب الشيب فى رأسى .

وكان شاكر يقيم فى حلوان وزرته فيها مرات عدة وكان مجلسه مجلس ادب ووقار وله صلة بالأدباء أمثال المرحومين البابلى وحافظ إبراهيم خلة ورثها عن آبائه وأعمامه . ومنهم المرحوم إسماعيل باشا وكان وزيراً غير معين بمرسوم للخديو عباس وكان فحلا فى السياسة والأدب والاقتصاد وقد وقف مواقف مشرفة ، منها موقفه فى الرد على سعد باشا سنة ١٩١٠ فى مشروع قناة السويس وكان دأبه أن يكتب فى الصحف بعنوان واحد وهو « بيان لابد منه » وكان داهية فى الذكاء وآية فى التنظيم والترتيب وصواب الرأى ، ومنهم الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظه بك وكان زميلى فى المدارس وهو أول من تولى الوزارة منهم « الشئون الاجتماعية » وهو من أساطين حزب الأحرار الدستوريين . ومن زملائى فى الدرس المرحوم محمود عثمان وأخوه إسماعيل عثمان ولى صحبة بفؤاد باشا والأستاذ فكرى وهو صحفى ومحام وله مواقف مشرفة فى مجلس النواب ومقالات قيمة فى الصحف .

ولى صلة بعبد الحميد بك نجل إسماعيل باشا وهو شهم حاذق حسن الإدارة جيد السهر على الأموال يأتمنه لفيف من أمراء العرب على أملاكهم وإدارة شؤونهم ، ونجله محام قدير ، ومنهم زكى أباظه بك وكان قاضياً فى المحاكم ، وعثمان بك أباظه وعبد الله بك وعشرات فى مصلحة الأملاك وفى الأمن العام وفى الطب وفى الإدارة . ولا يمكننى أن أحصيهم ، ويكفى للدلالة على كثرتهم المباركة أن لأسرتهم مجلة خاصة بها تلمهم وتجمعهم فى صفحاتها وتنشر مايهم أفرادها، ولم تكن لهم فى المحاكم فيما بينهم إلا قضية واحدة اهتموا بها اهتماماً كبيراً وجاءت نتيجتها على مايرغبون .

ولم أقصد بهذه الكلمة أن أحيط بتاريخ أسرتهم فرداً فرداً ولا بجميع أصدقائى منهم ، ولكن أردت أن أذكر بعضهم بالخير الذى يستحقونه . وبيوتاتهم بيوتات مجد وشرف وكرم فى مديرية الشرقية من قديم الزمان ، ولم أدر إن كانوا من أصل تركى أو قوقازى أو عربى ولكن وجوههم تدل على أنهم ليسوا عرباً ولعلهم الى غرب آسيا أقرب لما يبدو فى أعينهم وحواجبهم من الشبه الأسيوى كالچراكسه والتتار ، ويعجبنى فيهم تضامنهم وتآلفهم ونظافة أيديهم وطهارة ذممهم ووفاؤهم لأصدقائهم ولمبادئهم فى غير تعصب ولا حرج ولا ضيق عطن ، وإن كانوا جميعاً فضلاء إلا أن كل فرد منهم قد استقل بفضيلة أو خلة جميلة تميزه عن سواه .

أما ميادين نشاطهم فمتعددة :

أولا : وظائف الحكومة الإدارية .

ثانيا : القضاء وكان منهم جمال الدين بك مستشارا .

ثالثا : المحاماة .

رابعا : الصحافة وهى فى دم معظمهم ، فأولهم إسماعيل باشا الذى أنشأ جريدة الأهالى ثم شاكر بك ثم فكرى ثم إبراهيم بك الذى حرر فى السياسة اليومية .

خامسا : الزراعة والسياحات ، اختص بها فؤاد باشا .

سادسا : الاقتصاد والشركات ، أكثر من ثلاثة منهم .

سابعا : السياسة القومية ، أكثر من خمسة منهم .

ثامنا : الطب ، أكثر من واحد .

تاسعا : التأليف ، انفرد به إبراهيم بك وفكرى وله كتاب واحد ، الضاحك

عاشرا : الخطابة ، إسماعيل باشا وإبراهيم بك .

حادى عشر : إدارة الأموال ، عبد الحميد بك .

ثانى عشر : تنسيق المعارض ، إسماعيل عثمان بك وغيره .

وبالجملة لايمكنك أن تخطو فى مجال الحياة العامه خطوة حتى تلقى أباظياً أديباً كريماً مستعداً لمعونتك على الحق وحمايتك من شرور الباطل .

ولم يحدث لى حادث مكدر مع أحدهم إلا مرة فى سنة ١٩٢٢ وكان أحدهم وكيلا لمصلحة الأملاك وكان رجلاً ضخما أفلح أعلم يحمل مذبة ملونة ويهيمن على المصلحة لقرب مكانته من رئيسها الانجليزى إذ ذاك مستر أنتونى ، وكان الأباظى المحترم من جيل سابق أو الأسبق لجيلى فلم أعرفه فشكا له الدكتور أحمد حلمى بك (توفى) – وكان زوج إحدى الأميرات – بالباطل أنه رسا علىّ مزاد «قطعة أرض فى منشأة البكرى» بانحياز رئيس اللجنة المرحوم أحمد الأزهرى بك . وكان هذا الدكتور غير صادق فى كل ما رواه ، لأنه بعد أن زاد فى سعر الأرض الى أضعاف ثمنها علىّ وزدتُ بعد ذلك معاندة انسحب وأخذ فى أعقابه اثنين من أصهاره البكوات المطمرين المطقمين كأنهما جوادان فى حلبة السباق . وكان ثلاثتهم موضع انتقاد الحاضرين من موظفين ومشترين الذين أدركوا أن الطبيب الذى كانت تربطنى به صداقة علمية أراد أن يكيدنى ويتقن « مقلباً » ولم أجن عليه ذنباً غير أننى رجوته أن يتخلى عن هذه القطعة لأن له ولحرمه أملاكاً كثيرة وأردت أن أبنى بيتاً لأولادى .

فلما انسحب الثلاثة وانتظرت اللجنة حتى دقت الساعة الثانية عشرة فأعلن رئيسها المرحوم أحمد الأزهرى بك رسو المزاد علىّ ، وكان من أطهر الرجال ذمة وأشرفهم يداً حتى اختاره ويلكوكس كاتباً لأسراره أثناء تقسيم أراضى الدائرة السنية . وكان موضع احترام رؤسائه وثقتهم أينما حلّ وكان مايزال يلبس العمامة والجبة ويجيد الكلام بالانجليزية . ولما انقضى الموعد المحدد قال لى « إنى أعرف أن ثمن الأرض مرتفع ولكن هكذا نظام بيع أراضى الحكومة وأنا لم أعرفك من قبل إلا بالاسم ولايسعنى بعد تمام الصفقة إلا أن أبارك لك » ، وفى تلك اللحظة دخل البك الوكيل ووراءه الفرسان الثلاثة الدكتور وصهراه . وأخذ البيك الوكيل يسأل عنى وهو غاضب لأن الثلاثة ملأوه ببلاغهم الكاذب ، ثم هوى على أوراق اللجنة فاختطفها وطلب الى الأعضاء والرئيس أن يلحقوا به فى غرفته ، ولم أحرك ساكناً وتم التحقيق فأظهر براءة الأزهرى بك ، وكتبت الى مدير المصلحة « أنطونى » بالتفصيل وكان له سكرتير سورى رقيع مُخطط ومكحل كان واسطة سوء ، ولكن أنطونى بعد أن استوفى البحث وأصغى الى مندوبى الأميرة اكتفى بإلغاء الصفقة لأن ثمنها ارتفع بسبب العناد وإصرار الطرفين على المبالغة فى تقدير الثمن . ولما عرفنى البيك الوكيل أظهر أسفه وندم على تعجله .

ولم يفز الدكتور حلمى بك الذى كان طبيب سجن طره بطائل .. وقد أسفت لأن أباظه بك وكيل المصلحة لم تطل حياته بعد ذلك ، مع أنه كان فى عنفوان القوة وقيل إنه كان من رجال البوليس الممتازين وله عند انطونى يد فقدّمه وتعهدّه بالترقية التى كان يستحقها .

وقد زرت ليمان طره مع تلاميذى فى الحقوق سنة ١٩١٧ قبل هذه الحادثة بخمس سنين واستبشعت قسوة هذا الطبيب لأنه أخبرنى أن بعض المحكوم عليهم بمدة طويلة يتمارضون وقد جعل لفحصهم والتثبت من صدقهم أداة للتعذيب وهى مقراض من

الحديد يحكم تمكينه فى أبدانهم فإن أحسوا به اتهمهم بالكذب وطلب معاقبتهم بالجلد . وقال لى إنه أطلق سراح بعض من لم يستشعروا الكلاليب ثم علم أنهم شفوا بعد خروجهم ، فظن أنهم تصنعوا وطلب استردادهم ، وبالجملة كان من القسوة بمكان عظيم ، ومن العجب أنه كان فى مجلسه مع العلماء والأدباء بمقهى « اسبلندد بار » حيث كان يجتمع بالدكتور شبلى شميل ورفيق العظم ومحمد كرد على والشيخ رشيد رضا وبنا - لطيف المعشر موفور الأدب ، وكذلك كان فى حواره ونقاشه وجدله مع شميل على صفحات الجرائد .

ولكنه فى يوم المزايدة افتخر بأنه ابن شقيق فيضى باشا « مدير الأوقاف فى عهد عباس ومدير الغربية الذى سجن فى عهده المنشاوى باشا بتهمة اشتراكه والمدير فى تعذيب المتهمين بسرقة ثيران الخديو عباس ١٩٠٣ » ، فقلت له يادكتور أنا لم أعرف المرحوم الباشا فما دخله فى هذا النزاع وإن انتسابك إليه لايزيدك شرفاً لأنك شريف بعلمك وأدبك ومهنتك ومنصبك .

ولم يكلمنى الرجل بعد ذلك عشر سنين ، ثم دخل يوما فى حديقة « يلْديز » قبيل الإفطار فى أحد أيام رمضان فجلس بجوارى وتكلم إلىّ كأنه لم يحدث شىء بيننا . ثم نهض أو نهضت لا أدرى بعد ذلك ببرهة قصيرة ولم أره بعد ذلك .

وهذا الأباظى كان أيضاً فاضلا لولا أن أوغر صدره هذا الطبيب وصهراه المطمرين المطقمين فلم يدخل فى روعه أنهم يكذبون ، ولم يغظنى شىء بقدر التهمة الكاذبة التى وجهوها الى المرحوم أحمد الأزهرى بك ورفقائه أعضاء لجنة المزايدة .

ابراهيم طه أبو زيد

توفى فى مقتبل العمر رحمه الله فى آخر سنة ١٩٤٣ بعد مرض استمر شهرين ، وهو شاب نوبى أقرب إلى السودان منه إلى النوبة يعمل كاتباً فى محكمة مصر الأهلية لايدل مظهره على حقيقة حاله لصغر سنه وهدوء طبعه وطول صمته وتجنبه مالا يعنيه ، وكان أول عمل رأيته فيه دائباً تدوين محاضر الجلسات فى دعوى حامد العلايلى وأخيه أمين على أرملة شقيقهما المتوفى عبد الحليم العلايلى ، وكان إبراهيم شديد الحرص على أوراق الدعوى وقوى الشكيمة على كل من حاول التقرب منه لإحداث الفساد أو الفتنة على نقيض من يشبهونه فى الوظيفة ويزاملونه فى العمل ، فقد اختلت ذمم كثير منهم وصار استهواءهم واستدراجهم الى الباطل أسهل من اتباعهم طريق الحق ، فكثيراً مايحدث تزوير فى المحاضر تضيع وراءه الحقوق ، وكثيراً ماتفقد المستندات والحجج لقاء رشوة ضئيلة أو هدية رخيصة واذا رفع المظلوم أو المغبون صوته بالشكوى ذهب صوته صرخة فى واد ونفخة فى رماد ، ومعظم هؤلاء الموظفين سواء أكانوا مستجدين أو قدامى متعلمين أو جهالاً يستهترون بعملهم ويعتذرون بتراكم الواجبات وضيق الوقت والإرهاق فى العمل . وأمثال ابراهيم طه أبو زيد قليل فهو حاد الذكاء قوى الذاكرة يتحرى الإتقان فى عمله ويجعل نفسه بمثابة الميزان بين الخصوم ويشايع الحق ولو كان على أقرب الناس اليه .

وقد حفزتنى استقامته وفطنته لاستقصاء خبره فعلمت أنه ابن رجل من النوبة اسمه طه أبو زيد كان مقرباً من رجال الحكم حتى نال الرتب ونجح فى الانتخاب النيابى وجلس فى مجلس النواب عن أهل بلده وأنه بذل جهوده فى تعليم أولاده ومنهم إبراهيم هذا وولد آخر اسمه حسن طه أبو زيد ، وعلمت عن هذا الابن ووالده أخباراً

عجيبة" ، منها أن حسن طه أبوزيد كان مهندسا فى إحدى جهات الحكومة المصرية وكان ذا مذهب سياسى يأبى المظالم وذا فطرة حرة تثور على الاستبداد وتستهين بكل شيء فى سبيل الحق . فلما اغتصب إسماعيل صدقى منصب الوزارة فى صيف ١٩٣٠ وقلب نظام الدولة وألغى دستور ١٩٢٣ وأتى بالمظالم والمغارم فى ظل المرحوم الملك فؤاد وأخمد أنفاس الحرية وتحكم بالقوة الغشوم فى مسالك الحق فى هذه الأمة الضعيفة الذليلة ولم يجد من يقاومه ، نهض هذا الشاب حسن طه لمقاومته بالطرق المشروعة وهى المجادلة بالتى هى أحسن . وكان أبوه إذ ذاك عضوا فى مجلس النواب ومستمتعا برضى هذا الباشا الظالم المدعو إسماعيل صدقى الذى سبب قتلاً كثيراً واعتداء بغير حق على أفراد وجماعات من المدافعين عن الحق فى ذلك الوقت، وقد تهتك إسماعيل صدقى فى الظلم وخلع قناع الحياء فى الاستبداد ولم يخش فى الباطل لومة لائم وأضاف الى فساد الحكم فساد الخلق وكانت حياته الخاصة لاتقل تعسفا وتعديا عن حياته العامة حتى أضجر الناس وأحرج الضمائر وأدخل الغيظ على الناس حتى صارت صدورهم تغلى كالمراجل ولكن أحداً منهم لم يرفع صوته ولم يمد يده .

وفى أحد الأيام بينما كان هذا الوزير البَغيض يتحفز للسفر من القاهرة الى الأسكندرية فى ديوان خاص قبض على حسن طه أبو زيد وقيل إنه مستخف وراء الستار وأنه كان يحمل « بلطه » (وهو سلاح عريض من أسلحة القتل والحرب) تحت ثيابه وأنه كان يوشك أن يحطم بها رأس الوزير الظالم المتهتك فى المظالم لولا حذره وفطنته ويقظته التى أورثه إياها شعوره بظلمه وخوفه الاغتيال لكثرة ماحمل كاهله من الآثام ضد الوطن وضد الأفراد والجماعات ، فلما قبض على حسن طه أبو زيد ألصقت به تهمة عجيبة وهى نية القتل وهى ليست جريمة لأن النية لا عقاب عليها مالم تقترن بفعل مادى ظاهر ولا يعد حمل البلطه ولا الاختفاء فى « عربة » الظالم دليلاً عليها ولا تنفيذاً لها ، لأننا لو افترضنا صحة التهمة وأن هذا الشاب كان ينوى حقا قتل الرجل ولكنه عدل فى اللحظة الأخيرة فلا عقاب عليه ولا عقاب إلا على الفعل نفسه

أو على الشروع فيه ولا يكون شروع إلا إذا خاب قصد الجانى بفعل خارج عن إرادته • وكل هذا لم يقع وبعضه لم يقع ، وكان أقصى مايجوز من العقوبة سؤال المتهم عن سبب وجوده فى عربة الوزير وسبب حمله البلطه فلو قال كنت أنوى قتل الوزير ولكنى عدلت عن ذلك فى آخر لحظة فلا عقاب عليه •

غير أن الحكومة كانت خاضعه فى هذا الزمن لسلطان هذا الرجل وحتى القضاء الذى يظن أنه أنزه عناصر الحكم ، ولكن ظهر أنه دائماً وأبداً يتحزب للقوى الحاكم ويخضع للأوامر الصادرة اليه من صاحب السلطة سواء أكانت فى جانب الحق أو الباطل ، فلما قبض على حسن طه أبو زيد ، كان أول صدمة أصابته تبرأ أبيه منه علانية لأن هذا الرجل نجح فى انتخابات النواب فى ظل حكومة إسماعيل صدقى وإسماعيل صدقى حاميه ومولاه ولعله هو الذى جلب له الرتبة ولقب «البيه» أو «البيك» ، فهو ولى نعمته أو من أولياء نعمته ولكن خضوع طه أبوزيد الوالد للوزير ودخوله مجلس النواب عن طريقه لم يمنع ولده حسن من الثورة على الظلم ، فكان الأجدر بطه أبو زيد وهو شيخ متقدم فى السن جداً أن يستقيل من النيابة وأن يلزم الصمت لا أن يعلن سخطه على ولده ويعلن براءته منه ثم يذهب فيلقى بوجهه تحت أقدام إسماعيل صدقى راجياً عفوه وصفحه عن انتساب ولده اليه فلم يحفظ كرامته ولا كرامة ولده ولا كرامة جنسه ووطنه مع أنه لم يكن مسئولا عن أعمال ولده ولم يكن صدقى يملك إقالته من المجلس أو طرده أو حرمانه لأنه نائب عن الأمة ، ولكن ما قولك فى الجبن والطمع وضعف الخلق وروح الاستعباد المتمكنة من الوالد ولم تسر الى روح الولد •

ولم يفطن طه أبوزيد إلى أن هذا المسلك منه يعد اعترافاً ضمنياً بجريمة ابنه ، لأنه صدر منه قبل أن ينظر القضاء فى أمره ، فمهد بسلوكه السبيل للظلم ، وقد حكمت المحكمة على حسن طه أبو زيد بالسجن سبع سنوات فرفع نقضاً وهو يعتقد أن محكمة النقض لاتقر هذا الحكم ، وطلب إلى إدارة السجن وهى تابعة لوزارة الداخلية

التى يرأسها خصمه وغريمه إسماعيل صدقى المذكور آنفاً ان يحضر جلسة النقض ، فلم تجبه إدارة السجن الى طلبه مع أن القانون ينص على إجابة طلب المتهم حضور جلسة النقض وأبرمت محكمة النقض الحكم الصادر عليه بالعقوبة ، فلما علم بذلك أضرب عن الطعام بتاتاً وقضى معظم أيام إضرابه فى المستشفى وتوفى إلى رحمة الله بعد اثنين وسبعين يوماً ، فكأنَّ حكم إسماعيل صدقى وقضائه على حسن طه كان حكماً بالإعدام لا حكماً بالسجن ، وذهب هذا الشاب النبيل البرىء ضحية ظلم الأوغاد والأشرار والبغاة وأهل الفسوق ، ولم يحتج أحد ولم يغضب أحد ، ولكن أباه لم يعش بعده إلا بضعة أيام ثم قضى نحبه ولعل السبب الأكبر فى موته ندمه على أنه خذل ابنه وأعان عليه الظالم وبادر الى إعلان ذنبه قبل أن يقول القضاء كلمته ، وكان يمكنه أن يدافع عنه أولاً وأن يبذل جهوده فى الدفاع قبل أن يسلم بجريمة لم يعترف بها المتهم نفسه . وقد ذهب عمر حسن طه وشبابه وتضحيته عبثا فى بلد يعبد الظالمين ويتملق القساة وأهل الفسق ويتواطأ مع عدوه على نفسه ولا يبالى فانظر الفرق بين هذين الرجلين حسن طه أبو زيد النوبى ابن النوبى ذى الحظ القليل من العلم والجاه والمال وذلك الرجل إسماعيل صدقى المصرى الذى ينتمى الى الأعيان وذوى الرتب والألقاب نسباً وحسباً ومصاهرة وجاهاً ومالاً وتعليماً ، فقد ضحى حسن طه بنفسه فى سبيل مايعده حقا وعدلا وهو فى مقتبل العمر ولم يلتمس فائدة من الدنيا بل بذلها وطلقها وتبرأ منها وهانت عليه وهو فى عنفوان الشباب ومقتبل العمر ، وكان غيره بمنزلة البهيمة التى مرت بواد خصب فلم يكن لها همة إلا السمن وانما حتفها فى السمن .

وكذلك فشا لإسماعيل صدقى ولأولاده وأهله وأصهاره هيأة فى لباسهم وأعراسهم ومركباتهم ومنازلهم وطعامهم ليس للمصريين مثلها واتخذ القصور فى المصايف والمشاتى والذهبيات فى النيل والمساكن الأنيقة فى الضياع والأباعد وكانت له أثناء

ذلك قصص ونوادر وتواريخ وأحاجى ، فكان عهده عهد من أدركته عمياء مجهولة وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة ، وما ساق الله به خيراً قط ولا منع به سوءاً قط ، اللهم إلا لنفسه ولذويه وعن نفسه وعنهم ، ولايروى أحد عنه أنه أنصف فى مسألة ولا أقام العدل ولو ساعة من نهار إلا لذى هيبة ومكانة يرجوه أو يخشاه كالملك أو البطريق أو الحاخام أو سفير دولة أجنبية أو وكيل شركة عقارية أو حليل امرأة جميلة أو وسيط فى معاملة مريبة أو دخيل يلتمس نفعاً مؤاتياً مباشراً لقاء نفع مؤاتٍ مباشر ، ومايزال هذا الرجل يتدرج فى مراقى الثراء المادى وينحدر فى مهاوى الفاقة الروحية ويكب على وجهه فى حضيض الانحطاط الخلقى وكذلك يفعل هو وأمثاله .

ولم يمض على وفاة حسن طه أبو زيد إلا بضعة أشهر حتى ظهرت فضائح إسماعيل صدقى ظهوراً مخزياً ، فكانت فضيحة الكورنيش أضخمها ، وفشل الرجل فى مُفاوضة وزير الخارجية الإنجليزية فى جنيف وغضب عليه الملك فؤاد الذى كان يعتقد أنه أقوى سياسى فى مصر ونبذه نبذ النواة وأقصاه فسقط دم حسن طه على رأسه وزلقت فيه قدماه وعزل من السلطة وخلع من منصب الوزارة ولم ينفعه إلا الأموال التى اغتالها وسرقها واغتصبها بالحيل الذميمة ، وقد أقيمت التماثيل والنصب فى مصر لكل من قال كلمة وكان له عون من المشاهير لإحياء ذكراه إلا حسن طه أبو زيد الذى مات مُوتة الشهداء وصدر عليه حكم جائر وصام أكثر من سبعين يوماً وهى أقصى مايتحمل الجسم البشرى فى مقاومة الجوع ، ومات أبوه حزناً عليه وندماً على تفريطه فى حقوق الأبوة والبُنوة ولم يفكر فى إحياء ذكره أحد .

ألا حيا الله الاستطراد وبيّاه فلولا إبراهيم طه أبو زيد ماتذكرت أخاه حسناً أحسن الله اليه ولا ذكرته بهذا الإسهاب ، غير أننى لم أزعم أننى أرّخت أو دونت وإنما ألفتُ نظر المؤرخين ليتحفزوا لكتابة مايجب أن يكتب عن عهد إسماعيل صدقى من صيف ١٩٣٠ الى شتاء ١٩٣٤ ، ثم النظر فى ملف هذه الدعوى ودعاوى الشروع فى اغتياله كدعوى العامل الذي حاول ذلك فى محطة مصر ولم يسعفه الحظ بالقضاء عليه ولعل حياة أمثال هذا الرجل أشد عذاباً وتنكيلاً له من موته .

ابراهيم المويلحى وولده(*)

منذ بضعة أسابيع توفى إلى رحمة الله المغفور له محمد المويلحى الذى كان فى وقت من الأوقات علماً من أعلام البيان فى مصر .

وقد بادر لفيف من البقية الباقية من أصدقائه إلى الاحتفال بتأبينه بعد موته بقليل ، كما كان شأن المرحوم أحمد تيمور باشا وذلك خشية أن يُنسى أحد الرجلين ويهمل رثاؤه كما حدث فى حالة المرحومين حفنى ناصف بك والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى .

وإن وفاة المرحوم محمد المويلحى أعادت إلى ذهننا ذكرى المرحوم والده إبراهيم بك المويلحى الذى توفى منذ عشرين عاما ولم يحتفل بتأبينه أحد وقد رأيناه فى أواخر أيامه وكان رجلا ظريف العشرة بسيط المظهر ، على جانب وافر من الذكاء وسعة الحيلة .

أسرة المويلحى قديمة وعريقة فى المجد ونذكر من أفرادها المرحوم عبد السلام المويلحى باشا الذى كان وكيلا لمجلس النواب المصرى الأول وله كلمة مشهورة تشبه كلمة ميرابو نشرتها جريدة التيمس وأشار إليها المستر روتستين فى كتابه خراب مصر .

أما إبراهيم بك فكان كاتباً قديراً وسياسياً محنكاً وقد لعب فى عهد المرحوم إسماعيل باشا خديو مصر دوراً مهما وكان فى وقت من الأوقات كاتماً لأسرار

(*) مقال نشر بجريدة البلاغ فى ٢١ يونيه سنة ١٩٣٠ . كما كتب لطفى جمعه مقالا آخر نشر بجريدة البلاغ فى ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن » تحدث فيه عن هذا الكتاب .

إسماعيل (ص ٢٤٩ من تاريخ الاحتلال تأليف المأسوف عليه ويلفريت سكوين بلنت وقد نشرته جريدة البلاغ بالعربية) .

وسافر الى القسطنطينية واتصل بالسلطان عبد الحميد الثانى وكانت له حوادث وأخبار فى المابين واختبر الحياة السياسية التركية فى أغرب أوقاتها وألف فى ذلك كتاباً ممتعاً صادقاً مفصلا اسمه « ما هنالك » نشرته جريدة المقطم فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأظنه نفذ منذ بضع سنين(١) وهو فى بعض أوصافه قد يصل الى سمو أسلوب ماكيافيلى فى كتاب الأمير .

وقد جاء فى الكتاب على وصف كثيرين من الأشخاص المعروفين لعهده مثل الشيخ أبى الهدى الصيادى والشيخ ظافر اللذين لعبا دوراً مهما فى حياة عبد الحميد وحياة الدولة ، وأمثال عزت العابد وغيره من وزراء العرب والترك الذين دالت دولة آل عثمان على أيديهم .

ويظهر أن المرحوم إبراهيم المويلحى كان مجهزاً بكل الأدوات التى يحتاج اليها العظماء فى حياتهم ، ولكن ميوله الأدبية وعبقريته الفنية حجبته عن الوصول الى ماوصل إليه من هم أقل منه بمراحل ، فإن إبراهيم المويلحى يعد فى نظرنا أعظم كاتب عربى فى عصره ، ولم يبلغ أحد من الكتاب والصحفيين شأوه من حيث براعة الأسلوب ودقة التعبير والخروج بالمعانى من ثياب الألفاظ القديمة بحيث يصحّ أن يعتبر أول المجددين ، لأن كتاب ماهنالك لم ينسج أحد من الكتاب قبله فى مصر ولابعده على منواله ، كذلك كان الرجل صحفيا بالفطرة ، فقد أنشأ فى أواخر أيامه جريدة مصباح الشرق وهى أعظم الصحف الأسبوعية وأولاها ، ويعد صاحبها مؤسساً للصحف الأسبوعية فى مصر ، وقد نسج على منواله كثيرون بعده ولم يبلغوا شأوه فقد جمع فى

---

(١) أعيد نشر هذا الكتاب سنة ١٩٨٥ مع تحقيق ودراسة مطولة للأستاذ احمد حسين الطماوى ، عن المركز العربى للإعلام والنشر .

تلك الصحيفة جد الكلام وهزله ، وبلاغة الوصف وحلاوة الأسلوب الفكاهى المبتكر إلى مرارة النقد المؤلم ، ولايوجد فى مصر الآن شيء يشبه ماكان يكتبه المويلحى الكبير فى المصباح ، الذى كان يصدر صباح الخميس وينتظره الكتاب والأدباء بفارغ الصبر، ولاتزال بعض مقالاته ونبذه محفوظة فى الصدور ، وياحبذا لو تفضل أحد أنجاله أو أحفاده بنشر مختارات من المصباح ، ليتعلم كثيرون من المحدثين كيف يكون «التحرير والتحبير» من ذلك الكاتب القديم ، وكان المصباح ينقل أحياناً من الصحف الفرنسية بعض مقالاتها الطريفة ، ويظهر لنا أن المرحوم محمد بك هو الذى كان ينقلها ويعرضها على والده فى بداية أمره لينقحها ويكسوها ثوبها العربى .

وفى هذا الوقت كان كتاب عيسى بن هشام ينشر تباعاً فى المصباح ، وهو كما علم القارىء وصف للحياة المصرية الخليعة فى العشرتين الأخيرتين من القرن التاسع عشر .

وقد أحسن على الشمسى باشا بتقرير هذا الكتاب للمدارس الثانوية ، فقد كان فى ذلك إحياء للمرحوم محمد بك فى أواخر أيامه وكان تجديداً فى تنويع مطالعات الطالب الثانوى الذى تهرأت جفونه فى مطالعة الكلام الغث من وضع « خوجات المدارس » الذين نجحوا فى تقرير مؤلفاتهم السخيفة بالدس والحيلة .

طبعاً ستحكم الأجيال الآتية على قيمة هذا الكتاب عندما يأتى الوقت المناسب والرجال القادرون لتدوين تاريخ الأدب المصرى ، فنحن لانتعجل الزمن ولا نسارع إلى الحكم على الأشياء ، غير أننا نتنبأ بأنه سيكون لهذا الكتاب مكانته الصحيحة .

توفى المرحوم إبراهيم بك بعد أن عمر ثمانين عاماً على الأقل ، وقد اتصل بحكام مصر وساستها . كما اتصل بحكام إسلامبول وساستها . وكان متقناً لفنون الحياة الشرقية ، ولكن مصر بلد العجائب فهى تنسى الرجال بمضى المدة ، وإذا انقضى على الرجل خمس سنين غائباً أو مريضاً أو ساكناً أو قانعاً أو معرضاً عن

الظهور فقد « راحت عليه » فى مصر ونسيه الكبار والصغار ، بل نسيه أصدقاؤه الحميمون ، وإننى أخشى أن أقول إن أهله الذين يعيشون معه ليل نهار قد ينسونه أيضاً . وليس قصور الذاكرة فى مصر مقصوراً على الرجال ، بل هو يمتد إلى الحوادث ... والمصرى ينساها أيضاً وبسرعة مدهشة جداً ، فكانت نتيجة ذلك ضياع الرجال وفقد الموعظة .

لقد انزوى المرحوم إبراهيم بك قليلا فى أواخر أيامه وكف عن العمل فأعرض الناس عنه ونسوه وكان واجباً عليهم أن يمجدوه ويجعلوه رئيساً للكتاب ومرجعا للأدباء كما يفعل الأوربيون .

وقد كان إبراهيم المويلحى شيخ الكتاب ومقدمهم وباقعتهم وداهيتهم ومنشىء حرفتهم فى العصر الحديث ، ومع ذلك فلم يأبه له أحد ، وهو فى كسر داره ... يريد المصريون أن تكون حياة الرجال العظماء كشرائط الصور المتحركة ، معروضة أبداً عليهم صارخة صاخبة ، لأن النطق وحده لايكفى ، أما الكرامة ، أما الشيخوخة ، أما القناعة ، أما الابتعاد عن مواطن الذلة والمهانة ، فهذه ذنوب لايغفرها الجمهور المصرى الذى لايعرف رجلا إلا إذا كان دائما معروضاً وراء « فترينه الشهرة » اليومية .

وهذه الحالة مشاهده للأسف فى الحياة الأدبية والحياة السياسية والاجتماعية والعلمية بل فى كل ناحيات الحياة القومية .. ولدينا فى أمثال العوام التى هى أمثالنا: « الغايب مالوش نايب » و« البعيد عن العين بعيد عن القلب » .. دع عنك أمثال عدم الاكتراث بالغير ، كقولهم « أردب ماهولك ... إلخ » .

وقد وقع المرحومان إبراهيم المويلحى وولده محمد بك تحت أحكام هذا القانون الجائر ، فمات إبراهيم بك فى هدوء وسكون ، وحتى حفلات التأبين التى كانت تقام لبعض الناس الذين لم يذكروا فى حياتهم ، لم تقم له مثلها حفلة .

ويظهر أن المرحوم محمد بك قد ورث عن أبيه التبرم بالحياة والإعراض عنها ، فقد كان حيناً موظفاً بديوان الأوقاف ثم ذهب إلى المعاش وهو من قبل ذلك بعشرات السنين لم يحرك ساكناً ولم يكتب سطراً فى مجلة أو صحيفة ، ويظهر أنه كسر يراعته بعد وفاة أبيه أو بعد انطفاء مصباح الشرق .

عرفت المرحوم فرأيت فيه رجلاً هادئاً متألما صبوراً ، لطيف العشرة لايدل حديثه على أنه من كبار الكتاب ، ولعل انقطاعه عن المطالعة والدرس فى العشرين سنة الأخيرة ذهبت بكثير من مواهب الشباب ، وكان كثير التأنق فى ثيابه وطعامه وشرابه وحديثه ، كأنه يريد أن يقضى الحياة على طريقة خاصة به .

كان قصير القامة أسمر اللون مستطيل الوجه ، لاتدل سحنته على شىء من الذكاء بعكس المرحوم والده الذى كان يشبه شارلس ديكنز الكاتب الإنجليزى ، وكان محمد بك يشبه بعض أعراب البادية ولعله احتفظ بالسحنة العربية الصحيحة المتسلسلة من أعراب البيداء ، فهو وأسرته ينتمون إلى مويلح وهى إحدى واحات سينا، فلم يكونوا مصريين إلا بطول الاقامة فى مدينة القاهرة ، ولكنهم بلا ريب من عنصر شريف ولعل آباءهم كانوا زعماء قبيلتهم ، وهذه الوراثة العربية هى التى حمت محمد بك من كثير من الصغائر والدنايا التى تلصق ببعض الأدباء فى بعض البيئات الشرقية عامة والمصرية خاصة . وقد قرأت له خطاباً كتبه بخطه يتألم فيه أشد الألم من إحتفاء جماعة منا بأحد الأدباء الشرقيين(١) ، وينعى على المصريين احتفاءهم بالغرباء ونسيانهم أبناءوطنهم ، وكان لهذا الخطاب صدى فى إحدى المجلات الأسبوعية ، فقابلته عقيب ذلك وكان لى معه حديث طويل لا محل لذكره الآن ، غير

---

(١) هو الكاتب اللبنانى أمين الريحانى الذى احتفى به الأدباء المصريون ومنهم لطفى جمعه عند قدومه الى مصر سنة ١٩٢٢ .

أننى أقول إن الرجل كان واقفاً على حقائق الأمور ودقائقها ولم يكن يرى شيئاً أفضل ولا أشد حفظاً للكرامة من الانقطاع والعزلة ·· لأن أبسط احتكاك بالناس لمن كان شديد الإحساس مثله كان يسبب له أكداراً لاتنتهى ، وكأن لسان حاله كان يقول «مات الذين يعاش فى أكنافهم» ··

ولعل الشعر الذى قيل فيه يعد مصدراً صحيحاً لمعرفة أخلاقه ووصف حاله ، لأن الناظمين وهما شوقى وحافظ كانا من عشرائه وأصدقائه ، ولأنه لم يكن من أرباب الجاه الذين تنظم القصائد المكذوبة فى رثائهم احتفاظاً بمودة خلفائهم من الأحياء ·

فقد أقر شوقى أن فوز المويلحى فى عالم الأدب لم يكن إلا لحين « استخف العقول حيناً يراعه » ·

ثم انتقل لوصف أخلاقه فشبهه بالأسد فى الكِبْر حتى الجوع ، وقال إنه صارع العيش وقهر الحياة بمهجة حرة وخلق أبىّ ووصف وحدته وعزلته وزهده بقوله :

ياو وحيدا كأمس فى كسر بيت
ضيق بالنزيل رحب ذراعه
كل بيت تحله يستوى عنـ
ـدك فى الزهد ضيقه واتساعه

وقد كان حافظ إبراهيم بك أقرب الى الحقيقة من شوقى بك فى نقط كثيرة ، فقد وصف مشهد الجنازة وقلة السائرين فيه :

لم يجاوز منازل البدر عداً
من بقايا الصديق والأحباب
لم يسر فيه من يحاول أجراً
عند حى مؤمل أو يحابى

وقال فى وصف أخلاقه :

كنت نعم الصبور إن حزب الأمـ
ـر وسدّت مسارح الأسبــاب
كم تجمّلـت والأمانـىّ صرعـى
وتماسكت والحظـوظ كوابـى
عشت ماعشت كالجبال الرواسـى
فوق نار تذيب صمّ الصـلاب
مؤثر البؤس والشقاء على الشكـ
ـوى وإن عضّك الزمان بناب

لقد رأى الشاعران من أصدقاء المتوفى ناحية واحدة من أخلاقه وهى ناحية الصبر على الفقر والظهور بمظهر الغنى فى حالة الشقاء والبؤس ، وهذا فى نظر شعراء العرب عظمى الفضائل ، لأن الشاعر بفطرته لايستطيع الصبر ولايدركه ، وهو بطبيعة فطرته سريع إلى تحقيق آماله ورغباته ، فهو يدهش إذ يرى رجلا يستهين بهذا الجانب من الحياة .

ولكن رجلاً كأحمد حافظ عوض عرك الدهر وعرف الرجال وذاق مر الشدائد وحلاوة الرخاء يرى جوانب أخرى من حياة المويلحى ، فهو يرى كل شىء فيها غريباً مدهشاً ، ويعتقد أن حياة غريبة كحياة الكاتب البليغ الفيلسوف (!؟) محمد المويلحى جديرة بكتاب تاريخى وتحليل نفسى بسيكولوجى ، ويرى أن حياة المويلحى فصل من فصول كتاب عنوانه وموضوعه فسلفة الحياة لأن محمد المويلحى خبر الدنيا وعالجها من طرفها الأعلى إلى طرفها الأدنى فما اغتر وهو فى أعلى السلم ولا تكدّر وهو فى أسفله .

وقد اضطر حافظ إلى الاعتراف بأن حياة المويلحى وخلقه خرجا عن القياس العادى فما رأى فى حياته وما قرأ فى كتب الثقات فى تحليل الأخلاق أن رجلا جمع بين فلسفتى الاستخفاف بالدنيا وحب الاستمتاع بالحياة كما جمعها محمد المويلحى فى فلسفته ، وقد مشى فى طريق الحياة هادئا على مهل بمحض ارادته مؤثراً ذلك السير الهادىء على العدو السريع إتباعاً لفسلفة اختارها لنفسه .

وقد يستخلص من كل ماتقدم أن محمد المويلحى كان رجلاً متبرماً بالحياة والناس (ميزانتروب) كذلك النبيل الأديب الفرنسى الذى وصفه موليير فى روايته الشعرية التى تحمل هذا الاسم ، وأنه كان أبيقورياً فى حب الحياة والتلذذ بألفاظها ومعانيها وإن يكن ديموقراطى الأصل والنشأة إلا أنه ارستوقراطى النزعة من تلك النفوس التى تعتزّ بمواهبها والتى تستخف بالحياة من حيث المظاهر لأنها ترى أنفسها غنية بعلمها ويقينها عن حب الظهور ومايتبع ذلك من قشور وغرور .

هذا ما أردت الإشارة إليه فى تلك العجالة الوجيزة ولعلنا نعود الى آثار المرحوم الأدبية فنفيها حقها من البحث والتحليل .

أحمد ابراهيم

أحد أساتذة الشريعة الاسلامية ، بكلية الحقوق ، عالم فاضل على خلق كريم وعلم واسع وأدب نفسى جم . له مؤلفات حسنة وكانت دروسه تضارع دروس المرحوم الشيخ زيد الإبيانى وكتبه لاتقل عن كتبه ، فهو أستاذ من الطبقة الأولى . وكان يجلس فى مقاهى باب الخلق ويتسلى بلعبة النرد والشطرنج فى أوقات فراغه وكان لى عوناً فى ردى على منصور فهمى فى سنة ١٩١٣ عندما نشر كتابه الذى عاب فيه فى حق الرسول واستكتب بعض المستشرقين واستعداهم على الاسلام فى كتاب « المرأة المسلمة » واتخذه وسيلة للنيل من الرسول عليه الصلاة والسلام وأمهات المسلمين ، وكان أساتذة منصور قد استدرجوه الى هولاندا بعد أن لقنه ليفى برول ما لقنه وعاد بكتابه مطبوعاً وهو لايعرف مافيه لأنه لم يكتبه وإن يكن أقر فى مقدمته أنه يعلم أنه سيغضب بنشره أهله وأقاربه وأصدقاءه ولكن الحق عنده أولى بالاتباع من مجاملة الأهل الى آخر مادسه من القول والهراء وندم عليه وتاب وأناب واستغفر وتبرأ مما وصفه بهفوة الشباب .

كان الشيخ أحمد إبراهيم يدلنى على بعض المراجع النافعة كطبقات ابن سعد الكبرى وبعض كتب الحديث فأجد فيها مقاصدى . وهو لم يقرأ الكتاب لأنه بالفرنسية ولكننى كنت أناقشه فى المسائل المحتاجة الى الرد وأصور له طريقة الرد ، فيدلنى على المراجع فأهديت إليه كتبى المطبوعة وأهدى الىّ مؤلفاته وهو رجل هادىء الطبع أشبه الناس بابن رشد إن كانت الصورة التى رأيتها لفيلسوف قرطبة صادقة الشبه بصاحبها جالساً فى المسجد الكبير .

أحمد أبو الفتح

مدرس الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق يبلغ عمره خمسة وسبعين عاما وهو الآن عضو فى مجلس النواب وإن يكن ابنه محمود أبو الفتح عضواً فى مجلس الشيوخ ٠

لم أعرفه فى مدرسة الحقوق الخديوية عندما كنت طالباً بها لبضعة أشهر فى سنة ١٩٠٧ ، وكان من أساتذتها غيره الشيخ محمد زيد الإبيانى والشيخ سلامه والشيخ عبد الحكم ، وله مؤلف حسن فى المعاملات الشرعية من جزئين مرتب على الطريقة الحديثة طبعة سنة ١٩١٣ ٠ وأول ما رأيته كان فى مكتبى سنة ١٩١٣ عندما اتهم ابنه محمود أبو الفتح (الآن صاحب جريدة المصرى الناطقة بلسان الوفد المصرى وعضو مجلس الشيوخ فى عهد الوزارة النحاسية الخامسة أو السادسة) ٠ فجاء الشيخ ومعه صهره مرسى بك (؟) أحد رجال الجيش المحالين على المعاش وهو والد قرينة الشيخ الثانية ، وطلب الىّ أن أتولى الدفاع عن ولده وكان متهماً معه محمد زكى الجيزاوى (الآن الدكتور البيطرى زكى الجيزاوى وابن أخت المرحوم محمود بك المرجوشى المستشار فى محكمة النقض والإبرام) فى اختلاس دفتر شيكات وتزوير بعضها بمبالغ لاغتيال أموال المدعو أحمد مختار ممتاز ، وكان الوالد منكوباً وقد نسب إليه إهمال تربية ولديه محمود وحسين اليتيمين من أمهما ٠ واتخذوا زواجه الثانى علة لهذا الإهمال ، ولم أدخل فى تفصيل هذه المسألة وقد أحضر لى الشيخ بعض الفضلاء ليوصينى منهم المرحوم شراره باشا مدير إحدى المديريات ووالد وكيل الخارجية الآن وآخر اسمه أحمد شافعى بك من أعيان ميت غمر ٠ وكان محمود أثناء

القضية ملهوفاً مشدوهاً ولايوجد فى بيت أبيه من يعطف عليه غير أخيه حسين الأصغر منه .

ولما انتهت القضية انتقل ابنه محمود للاسكندرية وعاد إلىّ الرجل الفاضل للدفاع عنه فى تهمة جديدة وهى إحراز سلاح بدون رخصة (مسدس عاطل) فتوليت الدفاع ، ولم يقطع الرجل مودته عنى وقد عمّر ورزق من زوجته الجديدة أبناء وبنات وعاش حتى رأى ابنه بعد ثلاثين عاما من تاريخ القضية ناجحاً مشهوراً يملك جريدة كبيرة ومطبعة كبيرة وثروة كبيرة ونقيباً للصحافة المصرية وعضواً فى مجلس النواب والشيوخ ومرشحاً للوزارة ترشيحاً جدياً (ربيع سنة ١٩٤٢) ، فلم نر تكفيراً عن هفوة كتكفير محمود أبو الفتح الذى كان فى سنة ١٩١٣ متهماً باختلاس وتزوير (وقد استرد اعتباره من الحكم الذى أصابه) سرياً وغنياً ونقيباً ومرشحاً للوزارة فى سنة ١٩٤٢. وكان والده يمد له يد المعونة على قدر طاقته فأعانه أثناء إقامته بالأسكندرية التى هاجر اليها ليبعد عن أقران السوء وليصلح سمعته وأثناء رحلته فى سنة ١٩١٩ الى مؤتمر الصلح بباريس فى صحبة الوفد المصرى ، ومازال يتعهده حتى التحق بجريدة الأهرام بعد فشله فى مشروع جريدة يومية (الجمهّور) .

من الأعيان الذين ساقهم الشيخ أحمد أبو الفتح الىّ للتوصية بابنه الشيخ أحمد إبراهيم بك أستاذ الشريعة بكلية الحقوق وكان هذا سبب الصداقة بين هذا العالم الفاضل وبينى ، وقد رد الابن جميل والده فجعله بفضل النحاس باشا عضوا فى مجلس النواب وعضوا فى الهيأة الوفدية مع أن الرجل لم يسبق له اشتغال بالسياسة فكان هذا الوفاء من الولد لأبيه جميلاً حقاً وقد حظيت بهما الأمة وعمرت بصوتيهما المجالس النيابيه وهكذا الرجال وإلا فلا !.

احمد زكى ابو شادى

أحمد زكى أبو شادى شاعر وناثر ومؤسس جماعة « أبوللو » وصاحب مدرسة جديدة فى الشعر والأدب ، عرفته سنة ١٩٠٥ عندما تعرفت بوالده محمد أبو شادى أحد كبار أصدقائى فى الصحافة والمحاماة والوطنية وصاحب جريدة « الظاهر » .

ولد أحمد زكى أبو شادى لسيدة جركسية هى شقيقة أحمد نجيب والد سليمان نجيب الأديب والممثل المسرحى المعروف ، أرسله والده بعد وفاة والدته الى اصطامبول ثم الى لندن ليتم دراسة الطب فأتمها وعاد الى مصر سنة ١٩٢٤ متأهلا بزوجة انجليزية . وقد طالت إقامته فى عاصمة الانجليز وأتقن فنونا كثيرة منها أعمال المعامل الكيماوية كما أتقن الأدب الإنجليزى حتى إنه يكتب فيه النثر والشعر ، كما أتقن النحالة وأسس فنها فى مصر وأنشأ مجلة لخدمة هذا الفن وكان رئيس نادى النحالة فى لندن . كما أتقن تربية الدواجن ونشر بضع مجلات فى وقت واحد . فكان دائب الحركة يتمشى مع سرعة آلات الطباعه بنشاطه وفكره ومشاعره فى سبيل فكرته وإعداد مجلاته ومراجعة أصولها والإشراف على إخراجها وإبراز آثاره الشعرية .

كان أحمد زكى أبوشادى طويل القامة أبيض اللون معتدل الوزن أقرب الى الطفولة والبساطة فى الحديث ، ولايفهم النكتة ولايقولها ولا يدخن ولا يشرب الخمر ولا يسهر خارج منزله وله أسرة حسنة ، يبر أهله وأقاربه وأصدقاءه الجدد حتى اذا ما طال عليهم القدم تخلى عنهم وقال إنه كان مخدوعا فيهم ، وفيما عدا ذلك فهو رجل ظريف مؤدب حسن العشرة كريم الخلق يلتف حوله الناس ويعجبون به ولكنه ليس عميق الصداقة .

وكان فوق هذا كله شاعراً مكثارا ومؤلفا تمثيليا وكاتبا سيال القلم ، فانشأ

جماعة أبوللو وجعل لها مجلة باسمها وأنفق عليها من ماله ولمّ فيها شعث الشعراء البادئين وأظهر فريقا منهم أمثال صالح جودت وعلى محمود طه وأبى القاسم الشابى شاعر الشباب التونسى والمنجورى ومختار الوكيل والآنسة جميلة العلايلى وحسن كامل الصيرفى ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ورمزى مفتاح وغيرهم .

وقد أعان بيرم التونسى فى غربته ونشر أشعاره فى مجلة « الإمام » على الرغم من غضب القصر على بيرم ، كما أعان إسماعيل أدهم الأديب الذى توفى منتحراً سنة ١٩٢٩ بعد أن ضاق ذرعه بالناس والحياة .

كان أدبه سبب اضطهاده فى وزارة الصحة ولكن حكومة الوفد كانت تحميه بسبب علاقة والده بالمرحوم سعد زغلول الذى عينه فى مجلس النواب ورأس الاحتفال بتأبينه فى دار الأوبرا سنة ١٩٢٤ .

وترجع حالة أحمد زكى أبو شادى الى جملة عوامل أولها تيتمه المبكر من والدته وقسوة امرأة أبيه وخيبة أمله فى امرأة خطبها وأخذت منه اغتصاباً فأرغم على مفارقة البلاد فكانت له فى الغربة وحدة ووحشة كالتى كان يعانيها فى وطنه . فنبت فى نفسه سوء الظن بالناس واستشعر انطباعهم على الغدر . وشدة حساسيته وعدم تحمله الضيم الصحيح أو المتوهّم من صديق .

كان يتخذ بعض الناس لقضاء مآربه الشريفة ولكنه يسأمهم بعد حين وينتظر منهم عرفان الجميل العميق .

وقد حدث مع المدعو « البطاح » أحد صغار الكتاب بالأسكندرية أن أذاع عن الدكتور أحمد أنه ملحد وأنه أباحى واستشهد ببعض كتاباته فى ابوللو وإنكاره النبوة وقوله بنبوة تولستوى وفرويد ..... إلخ . فلما أذاع عنه البطاح هذه الدعاوى أخذته وزارة الصحة واتهمته بالاشتغال بالسفاسف ونهته عن التهتك فى الشعر وفيما لايعنيه غير وظيفته . فكف أبو شادى وطلق اللغة العربية وبدأ ينشر كتباً باللغة الانجليزية

منها كتابه المسمى « عفو الخاطر » ٠

وكان للدكتور أبو شادى خلافات مع كامل كيلانى ومنازعات وخصومات حامية فاستعمل له كيلانى أشخاصا مثل محمد مصطفى حمام فكتبوا عنه أمورا تشيب لها الأطفال فى مجلات هزلية كالمطرقة والبعكوكة فشكاهم أبو شادى الى النيابة ووسط بعض الفضلاء فرجوهم فى الكف عن مخاصمته فى الصاعقة ومجلة الاسلام التى كان يصدرها أمين عبد الرحمن وأقاموا الدنيا عليه ولم يقعدوها ، وقارنوا بينه وبين المرحوم والده الذى كان مغرقا فى التدين وشيخ الطريقة القاوقجية النقشبندية ٠

ويرجع الخلاف بينه وبين كامل كيلانى الى منافستهما على رآسة « رابطة الأدب العربى » ٠

وللدكتور أبو شادى أكثر من ثلاثين ديوانا من الشعر وقد أنفق مالا طائلا على غير طائل فى طبع ونشر شعره وآثاره ، وهو مكثر جدا ، وقد سئل فى ذلك مرة فقال : افرضوا أننى نظمت ألف ألف بيت من الشعر ، ألا يبقى لى على وجه الدهر خالدا بيت شعر واحد ؟ ٠٠ قيل له : ربما قال : هذا يكفينى !!

ولعل كثيرين لايعلمون شيئاً عن محنة زكى أبو شادى وأسبابها ، وقد حاول البعض أن يستشف أسباب تلك المحنة وارتاب فى حقيقتها حتى انتهى الى أنها قصة مشكوك فيها ، ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها أن أبا شادى عاش محنة حقيقية قاسية تكشف عنها وعن تفاصيلها بكل وضوح رسائله العديدة إلىَّ ومذكراته التى رفعها الى المسئولين فى الحكومة حينذاك(١) ٠ فهذه الرسائل وتلك المذكرات تلقى أضواء كثيرة على ما أصابه من اضطهاد بسبب أفكاره وآرائه ٠

---

(١) للوقوف على نصوص هذه الرسائل والمذكرات راجع كتاب « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الأعلام » تأليف رابح لطفى جمعه ، سنة ١٩٩١ ، ص ٤٠٤ - ص ٤٢٢ ٠

كتب إلىّ فى إحدى رسائله يقول « ومن حيث إننى لا أستطيع كبت تفكيرى والحجر على عواطفى فحسبى أن الجأ فى المستقبل نثراً وشعراً الى اللغة الانجليزية ، ومادمت أستطيع أن أعالجها كما أعالج لغتى الوطنية ومادمت أجد من أهلها أضعاف التقدير الذى أجده من أبناء وطنى دون أن تنالنى منهم إساءة .

وفى أكتوبر سنة ١٩٣٦ قابلت شخصا تكلم معى مّن تلقاء نفسه عن زكى أبوشادى وقضيته فقال لى : إن العمل الذى عمله فى شعره ونثره والالحاد ... إلخ ، هو مقصود ولم يجىء اعتباطا فهو وجد أن كل جهوده السابقة لم تثمر ولم تلفت الأنظار اليه فصنع هذا الكتاب « أدبى » ليلفت الأنظار اليه ، لأنه رأى أن هذه هى الطريقة

[redacted]

الأنس والسماع وبيعت الدهبية وضغط الطبيب بالطلب وتنكر للصديق بعد الألفة ، وأخيراً تفاوض مع رسول على أن يتنزل عن دِيْنه « ودينه » بكسر الدال ، إذا حصل الطلاق . وبذا أظهر أوراقه الرابحة « كما يقول المقامرون » فرفض الزوج بإباء وعوّل على أن يخوض المعركة ولو باع ثيابه . ولكن هذه الثورة النبيلة لم تكن إلا الى حين ، فإن البنت فرت الى آلاس .. « أيضا كما يقول اللاعبون » ، فلما رأى الزوج هذه الخيانة الصارخة حاول المقاضاة وطرق الأبواب فعاد بالفشل وآب بالخيبة وبعد انقضاء العدة عقد الطبيب على العروس المغتصبة وهي تكاد تكون من سن بناته . وانتقلت مجالس الأنس والسماع الى دار الطبيب وهو قصر فخم في إحدى ضواحي القاهرة . أما ابن الكولونيل الكريم السمّاح المهذب الأديب ، فقد اختفى حيناً عن الانظار ثم ضعف ومرض ومات .

هذه صورة صادقة ناطقة للوالد والولد والعروس وصديق العائلة وليس لهم قريب حي .

محمد خالد باشات

صديق حميم وقاضٍ بالمحاكم اشتغل بالمحاماة عشرين عاما ثم انتخبوه للقضاء، وهو من أصل سورى « مدينة حماة » وهى موطن المرحوم توفيق نسيم باشا وكان يمت له برابطة قرابة أو نسب ولكن باشات لم يلجأ إليه فى مروءة أو خدمة وتخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٩١٧ وكان فى مدرسة باب الشعرية الابتدائية فى عهد المرحوم على فوزى بك الذى كان يسهر على تهذيب تلاميذه كما يسهر على حسن تعليمهم .

ولما شب خالد عن الطوق تجلت عليه سيما النجابة والذكاء فكان منكّتاً بارعاً لايقل عن المرحوم البابلى وإن تكن دائرته أضيق من دائرة البابلى وإنما كانت كافية لإظهار موهبته . وهو يجيد النغم ويعتبر فنّاناً بفطرته ، وكان فى المحاماة مجتهداً شغوفاً بدرس قضاياه وإتقان المرافعة فيها ولكن عنصر الطرب والمسرة كان غالباً عليه، وكانت شهرته فى الدوائر القضائية مستفيضة بحذقه فى النكتة البارعة ، فلا يكاد يقف ويبدأ الكلام حتى تشرئّب الأعناق وتتطلع الآفاق لما يقوله وتفتر الثغور عن البسمات قبل أن ينطق والكل ينتظر منه أظرف النكات وألطفها وكان هو أيضاً يبتسم قبل أن يرسل النكتة ويعقبها بضحكة خافتة ، لأنه أول من يعرف قوتها وإصابتها وحدتها وقد حاولت تسجيل بعض نكاته فى مقال فى البلاغ اليومى سنة ١٩٣٠ «سبتمبر أو أكتوبر من تلك السنة فى الصفحة الأدبية» ولكن كل تسجيل كما ذكرت فى كلمتى عن المرحوم البابلى لهذه الأشعة المضيئة وتلك الشرارات المندلعة من وهج الذكاء والبديهة يردها باهتة خافتة ، فكيف تروى ماحدث بينه وبين أحد مشاهير المحامين وكان مشهوراً برثاثة ثيابه لا فقراً ولا زهداً ولكن سوء عادة درج عليها، فقد

طلب من المحكمة تأجيل قضيته فى أحد أشهر الصيف معتذراً بعزمه على السفر للاصطياف . فسأله القاضى فى رفق : أين تصطاف ياسعادة البك . وقبل أن يستطيع الرجل الإجابة ، نطق باشات بتلك النكتة الرهيبة : سعادته يصطاف فى «التانتوريرى» .

والذى يعلم أنها محل تنظيف الثياب بالبخار وأن لها أفرعاً فى كلّ شارع ، لايسعه إلا أن يستلقى على ظهره من شدة الضحك ، وقد حدثت ضجة واغرورقت أعين بعض الحاضرين من شدة الضحك واضطرت المحكمة أن ترفع الجلسة بضع دقائق للاستراحة . أضف الى هذا وجه البيك وتغيره وذهوله وعجزه عن الرد وهدوء باشات وسكينته ونظرته المطمئنة بعد هذه النكتة الصائبة ، ولأجل أن يقدرها الأديب قدرها عليه أن يعرف الشخصيتين وأن يدرك جو المحكمة القاتم وسكونها المصطنع وانشغال الخواطر بالقضايا والمنازعات وانصراف الأذهان عن النكتة . ثم تنفجر هذه القنبلة الضاحكة فلا يخلو أحد من شظاياها وترغم المحكمة على مشاركة السامعين فى الضحكة حتى تتغلب القهقهة على وقار العدالة فى ساحة المحكمة . ويفرج الناس عن أنفسهم بعض كروبهم ثم تعود الجلسة الى الانعقاد فيبحثون عن البيك المحامى «النظيف» فلا يجدونه ، لأنه انتهز فرصة الاستراحة وزاغ وتخلّى عن القضية فناب عنه فى الحضور صديقه الأستاذ باشات وتعهد بإبلاغه تاريخ الجلسة المقبلة بعد الراحة القضائية ، فأثار موقفه عاصفة أخرى من الضحك لأن فى ظهوره اعترافاً بأن المسافر الذي عجل بالسفر كان ضحيته .

وإنى أسألك هل ترى فى هذا مايغضب أو يجرح الكرامة أو يسىء الى المحامى الشيخ أو يكدّر صفوه أو يحقد قلبه على الناقد الرقيق الحاذق ؟

نعم قد يفحش المنكت وإن يكن لبقاً أو حذراً أحياناً كالذى اشتهر عن نكتة «الصيدلية المفتوحة طول الليل» . ولكن هذا نادر ولايقع إلا فى كل عام مرة .

ولايفوتنى أن باشات فى قضائه رجل فى أعلى درجات النزاهة والعلم والأدب ، وله كرامة خاصة به ومظهر يدعو الى الاحترام ، وسألته مايصنع إن « حزقته » نكته أثناء النظر فى القضايا فهل يطلقها أو يكتمها فقال لى وهو يبتسم ابتسامة أعرف سرها : إنى أمتنع لأن الوسط الريفى لايلائم وأخشى أن يشهر عنى التنكيت فى القضاء وهو يذهب الكرامة . ولكن أقول لك الحق إنى أحياناً لا أطيق الصبر فأرسلها ... فقلت له خيراً لك أن تقيدها وتكتبها أو تبقيها الى النطق بالحكم فضحك وقال « هى حيثيات والا إيه ؟ » ..

ولخالد بك صاحب أو نديم اسمه عبد العزيز السوسى مغربى الأصل ضخم الجسم أهوج عصبى المزاج وآخر محام اسمه م.م يزعم باشات أنه أشبه الناس بحوذى نقل « عربجى كارو » ولايمكن لخالد أن ينطلق ويتجلى إلا إذا كان أحدهما موجوداً ويسميه « عدة الشغل » أى الهدف الذى يوجه إليه نكاته اللاذعة ، فإن منظر أحدهما أو كليهما إذا اجتمعا يلهمه ويوحى إليه فيتخيل ماشاء ويرسل النكات تترى متتالية منتظمة كالجندى الشجاع فى المعركة . وقد بحثت فى أصل هذه الموهبة عند صديقى فقيل إن للوراثة دخلا فإن أباه الذى مايزال على قيد الحياة كان فى شبابه وكهولته من مشاهير المنكّتين ثم خبا بحكم السن وتحمل هموم الحياة ولكن فى ظنى أن باشات الوالد مهما حذق وذكا فلم يكن يبلغ شأو باشات الولد . وقد ذكرته عرضاً فى كلمتى عن الأستاذ الأديب عبدالله بكرى .

وإنى أحب النكتة الرقيقه البارعة وإن كنت لا أتقنها وأطرب لها وإن لم ترد على لسانى فكفى سماعها والتلذذ بها وتقدير أصحابها ، وفى انجلترا يسمون صاحبها Testeu ، وليست النكتة الانجليزية فاترة أو باردة كما يظن الناس لبرود طبع الإنجليز وفتورهم وطول صمتهم ، فقد اشتهر منهم فى القديم الدكتور چونسون وسجلها له بزويل ودافيد جاريك الممثل الشهير ، وفى العهد الأخير أوسكار وايلد فكان

ملك النكتة فى عصره وهم يفضلون أن يتخذوها وسيلة النجاح فى كتبهم فلا تضيع هباء فى المجالس ٠ وإنى أحبها ولو فى مجلس القضاء المعتم لأنها دواء الخمول والجمود وضياء الظلام المخيم على الخواطر والأفئدة فتشحذ الكليل وتنعش العليل وتبعث الوسنان وتيقظ الهاجع ولا يأباها البليد والأحمق ولايغضب منها إلا المغرور وضيق الصدر ٠

وإن صديقىّ العزيزين باشات وبكرى بجانب هذه الموهبة الجميلة يتلطفان فى القول ويخرجان من اللوم بأحسن العذر إذا اعتذرا ويجعلان من الكلام مصايد للقلوب ويعمران المجالس إن جدا أو هزلا ويبلغان الإرادة بأخف مؤونة ويستولى كل منهما على الأمد وهو وادع ويلحق الطريدة ثانياً من عنانه ويمشى رويداً ويكون أولاً ، لأن الغريزة مواتية والطبيعة قابلة جزاهما الله خيراً عن الأدب والأدباء والظرف والظرفاء فإنهما ذخيرة ثمينة وتحفة غالية وأطال عمرهما فهيهات أن يجود الزمان بمثلهما وإنى مهما أطنبت فى الإعجاب بهما أو تعريف قدرهما لمن لم يحظ بعشرة أحدهما واستيعاب مواهبه أكون فى حقهما مقصراً ٠

محمد شوقى بكير

كان أستاذ عام النبات فى مدرسة الزراعة العليا « قبل أن تصير كلية » وعرفته عن طريق إبراهيم رشاد « التعاون » وعن صاحبه المرحوم طاهر العمرى لأنهم كانوا يقيمون فى حلوان فى منازل فخمة ذات حدائق وأنهار ومنابع ماء وظل ظليل وخير عميم.

وكان شوقى من أصل چركسى وتعلم علومه فى انجلترا وتزوج من امرأة من جنسه وكان فى ظاهر الأمور سعيداً فى حياته مجداً فى عمله ولم يؤخذ عليه شيء إلا أنه كان يبيع كتبه فى علم النبات « وكانت تطبع وتباع لحسابه الخاص » بأثمان مرتفعة تثير ضجيج الطلاب .

ولما أردت أن أشترى أحدها لدراستى الخاصة دفعت غالياً ولم أشأ أن أطلب منه نسخة فقد درج بعض الأساتذة فى جميع درجات التعليم الابتدائى والثانوى والعالى على بيع مؤلفاتهم بمثل هذه الأثمان وأن يجبروا التلاميذ والطلاب على اقتنائها لأن أسئلة الامتحان تستخرج منها بحسب اتفاقية أو مؤامرة واسعة النطاق بين الموظفين فى الوزارة ولجان اختيار الكتب ووضع المناهج وبين مطبعة المعارف وقد أثرى كل من كانت له علاقة بهذا العمل الذى وضع أساسه أحمد حشمت باشا فى الفترة التى ولى فيها وزارة المعارف حتى صارت سنّة تتبع .

ثم ثار بعض الموظفين والأساتذة الذين لم يكن لهم نصيب فى هذه الغنائم التى كانت تدور على ابتزاز أموال التلاميذ بتكليفهم بشراء كتب غالية الثمن ثم لايلبث أن تلغى ويقرر غيرها وابتزاز أموال وزارة المعارف نفسها ، وحوربت هذه الطريقة من

خصوصها ولكن بعد أن أحصيت وحصرت عشرات ألوف الجنيهات بل مئاتها التى دخلت جيوب المنتفعين بهذه الخطة وتعطل طبع الكتب ماعدا المدرسية .

وكان أصحاب المكتبات إذا عرضت عليهم كتاباً يسألونك هل هو مقرر فى الوزارة أو أن لك أمل فى تقريره ، فإن كان الجواب سلباً أعرضوا عنك ؛ ولو كنت ابن المقفع أو ابن سينا بلاغة وحكمة . فنفقت سوق الأدب وازدهرت دولة النهب والسلب ببيع هذه الكتب ، وسرت العدوى من المدارس الابتدائية والثانوية الى كليات الجامعة وهذا أحد الأسباب القوية فى انحطاط مستوى التعليم وفشل نتائج الامتحانات وانحصار مجهود الأساتذة فى كسب الأموال ببيع كتبهم لطلابهم وأشياء كثيرة أخرى رأيتها ووقفت عليها وعرفتها وهى ماتزال جارية ولايحرك أحد ساكناً .

وقد ساقنى الى هذا الاستطراد ذكر المرحوم محمد شوقى بكير بمناسبة غلاء كتبه ، فإن الكتاب الذى لايتكلف قرشين أو ثلاثة كان يباع بثلاثين أو أربعين قرشاً يدفعها الطالب ، وليته كتاب واحد أو اثنان أو ثلاثة ولكنها عدة كتب فى كل علم وفن .

وكانت حياة الأستاذ فى قصره بحلوان محاطا بأهله وأصدقائه حياة سعيدة فى ظاهرها ولكن عوامل كثيرة خفية كانت تعمل على هدم هذه السعادة . وفجأة توفى هذا الأستاذ الفاضل فى مقتبل العمر وقيل فى أسباب هذه الوفاة أشياء كثيرة .

ومما استعذبته منه زيارتى متحفه فى داره وقد جمع معادن ونباتات مختلفة وأحجاراً وآثاراً للتاريخ الطبيعى كان يجمعها من الجبال والأودية المحيطة بحلوان ومن وادى هوف الذى كان يجهز اليه رحلات متعاقبة مع أسرته وأصدقائه ، وهو من مواليد القرن الرابع عشر الهجرى وقد مات ولم يتجاوز الأربعين بعلة إنسانية يتحمل آلامها كثير مما لايقيمون للمروة وزناً ، وخلف والدة شيخة وبنتا صغيرة رحمه الله رحمة واسعة ، أما زوجته الشابة الجركسية فلا أدرى ماصنع الله بها .

محمد صدقى الطيّار

توفى فجأة بسكتة قلبية عقيب ذبحة صدرية فى عصر يوم الجمعة ٢٣ يونيه سنة ١٩٤٤ وشيعت جنازته فى عصر السبت من داره بشارع رمسيس بمصر الجديدة . وسنه سبع وأربعون سنة تقريباً .

ولد بمصر فى عهد الخديو عباس حلمى لوالد كان مشهوراً بالشمم والإباء والاعتداد بالنفس فأنشأه نشأة حسنة ولكنه لم يتم دراسته لاسباب طرأت على حياة أبيه بسبب انفصاله عن وظيفته بالقصر الخديو لدواع لاتمس شرفه بل تزيده احتراماً وكان طول حياته رافع الرأس . فلما شب الصبى محمد صدقى مارس كثيراً من الأعمال الحرة ولم يوفق التوفيق كله وكانت آخر حرفة مارسها تجارية وهى توريد بضائع من أوروبا ، ثم هاجر الى ألمانيا حوالى سنة ١٩٢٥ عقيب الحرب العالمية الأولى بقصد التعليم فوقع اختياره على الطيران ، وكان جلداً شديد التحمل طموحاً شجاعاً وفى أخلاقه لين العريكة وحسن العشرة والتودد وهدوء الطبع ، فتعلم اللغة الألمانية وأحسنها ولما حصل على شهادة الطيران صمم على أن يعُود الى مصر وطنه طائراً بمفرده على طائرة ضئيلة الحجم رخيصة الثمن يستعملها الهواة للرياضة ، لا الطيران البعيد المدى ، وقد نصحه الفنيون أن لايخاطر بنفسه ونهاه أصدقاؤه عن تجشم هذه المخاطرة فلم يُجد نصحهم ولانهيهم ولم يكن يملك ثمن طائرة أكبر أو أقوى .

وتلك الطائرة تشبه تمام الشبه أختها نينيت التى وصل اليها سنة ١٩١٣ قبيل الحرب العظمى الطيار الفرنسى قدرين قادماً من باريس الى اصطامبول فآسيا

الصغرى فجبال طرسوس فالشام ، فمصر ، وقد رأيناها فى جوار فندق مينا هاوس فى تلك السنة ، وهى لعبة طفل بالنسبة لأصغر طائرة حربية أو مدنية مما نرى الآن .

ولما نما خبر عزم صدقى تحمس له المصريون تحمساً شديداً ولكن لم يفكر أحد فى معونته بالمال ، بل اكتفوا بأن لهجوا باسمه ، ماعدا المرحوم عبد القادر حمزة الذى كانت تربطه بالمرحوم والد صدقى معرفة سابقه فكتب عنه ودعا له دعاية حسنة وأعّد الأفكار لحسن استقباله وتشجيعه وحصل منه على امتياز بمقالات للبلاغ يصف فيها رحلته الجوية ، وأخذت أخباره تجىء الى مصر بالبرق وقد عانى معاناة شديدة من شوامخ الجبال والضباب ومضائق السحاب وتكبد مشقات جمة وكأنه كان يزداد عناداً كلما زادت مصاعبه شأن الرجل الشهم ذى العزيمة الصادقة .

وأخيراً وصل مطار منشية البكرى وهو سابق لمطار ألماظه فى الإنشاء فى عصر يوم من أيام الشتاء سنة ١٩٣٠ ، وتجمع له من الناس لاستقباله فى المطار والعباسية وشوارع القاهرة بقدر ماجمعوا يوم عودة سعد زغلول سنة ١٩٢١ ، وفى الساعة الرابعة بعد الظهر بعد طول الترقب والانتظار بدت طائرته فى الأفق صغيرة كالحدأة بجناحين (مونوبلان) صفراء داكنة كظبية الوادى غير أنها ذات نحول وهزال وعلا الضجيج والهتاف وتحمس الكبير والصغير تحمساً نادر المثال ، فبدأ الطيار الهمام بتحية المطار بالطواف حوله ثم هبط بحذق ومهارة وكاد المستقبلون يزهقون روحه ضماً وعناقاً وتقبيلاً ومصافحة ، وفى لحظة عين أصبح صدقى بطل الساعة ورجل مصر الأوحد فى هذا الفن العظيم ، ودخل القاهرة دخول الفاتح ، وقد أحصينا أكثر من ألف سيارة تتبعه وكان الزحام بميدان باب الحديد مما لم يسبق له مثيل ، وحضرنا جلسة البرلمان التى منحته أثناءها جائزة مؤقتة قدرها ألف جنيه ، وكان حاضرها ووالده وبعض أقاربه ومنحه الملك فؤاد نوط الجدارة ووهبه هبة مالية واستقبله وحيّاه وهنأه وشكره وشجعه .

وكان صدقى يحمل معه فى الطائرة تمساحاً رضيعاً يعتبره تعويذة (وباروكه) وبادرت شركة بنك مصر بتأليف شركة مساهمة هى شركة مصر للطيران لتشجيع هذا الفن واستثمار مواهب صدقى وخطت خطوطاً للطيران داخل القطر وخارجه وكان صدقى عماد هذه الحركة وأسست مدرسة للطيران وأسس مطار الماظة للطيران المدنى.

وأخذ صدقى يطير على طائرته وغيرها الى الحجاز والعراق والشام وينقل الركاب والمسافرين من ١٩٣٠ الى ١٩٤٣ وقطع ثلاثة ملايين كيلو متر وهو رقم قياسى يندر أن يجتمع لطيار فى حياته الفنية ، ولكن الأقدار قضت أن يهوى هذا النسر بعد أن حلق بمصر وأحلها محلاً حسناً فى عالم الطيران فله الفضل الأعظم على هذا الوطن ، فإنه لم يقلده الرجال وحسب بل العذارى الطائرات مثيلات لطفية النادى التى أتقنت الطيران على يديه .

ويمكن القول بحق أنه رجل أنشأ فناً فى بلد محروم منه ، وقد دعوت فى سنتى ٢٩ ، ٣٠ فى جريدة البلاغ اليومى الى إيجاد الطيران فى مصر(١) بعد أن شهدت حفلات أقيمت فى مطار منشية البكرى الإنجليزى الحربى لمعونة أرامل الطيارين وأيتامهم من الإنجليز ودهشت من مهارتهم وعلمت أن الانجليز يحرمون الطيران على المصريين لأنه سلاح حديث ولأن جو مصر يصلح للطيران طول العام ويعد خير مدرسة لتعليم الطيران فاستأثر به القوم ومنعوا المصريين من ممارسته ولم يسمحوا بدخوله فى الجيش المصرى .

---

(١) كتب لطفى جمعه أيضاً مقالاً نشر بجريدة المساء فى ١١ ابريل سنة ١٩٣١ تحت عنوان « موسم الطيران المصرى » .

وحدث أن طياراً مصرياً « عبد الرحيم مصطفى » زميلى ورفيقى فى دراسة الحقوق بفرنسا أخفق فى علم الحقوق وحذق فن الطيران وعاد بطائرة اشتراها بماله ، فلما وصل ثغر الاسكندرية عائداً من أوروبا حجزوها فى الجمرك ولم يسمحوا بدخولها ولم يسمحوا له بالطيران فى جو مصر · تصور أن المصرى المتعلم ابن عم رئيس الوزارة محمد محمود باشا لم يتمكن من الطيران فى جو مصرى بينما تعج سماؤها بالطائرات الإنجليزية الحربية والمدنية فى البر والنهر والجو ، فكتبت انتقد وأتألم وأشكو وأتظلم ولا حياة لمن تنادى ·

فحدث أن أيكنر الألمانى عزم على زيارة مصر بمنطاده ، فتردد الإنجليز فى السماح له ، وعزّ عليهم أن يدخل الرجل باختراعه « وهو قديما منسوب الى كونت زبلين ، وهو ألمانى » جو مصر قبل أن يصنعوا هم منطاداً مثله ، ولكن ترددهم لم يطل وسمحوا له · وكان آية فى الجمال والعجب · فلما جاء صدقى وطار من أوروبا الى مصر وتحمست البلاد له خجل من يستطيع أن يخجل فسمحوا بتعليم لفيف من الشبان فى انجلترا وأنشأوا سلاح الطيران ، ولكن الأقدار حاربت مصر فكان عدد ضحايا الطيران من الضباط المصريين أكثر من الاحياء مع أنهم لم يشتركوا فى معركة جوية ولم يظهروا كفاية ولم يحوزوا فخراً ، وقد جاءت أيام فى سنتى ٤٣ و ٤٤ كان لايمضى خلالها أسبوع دون أن نقرأ عن مصرع طيار أو طيارين ·

وقد كتب الحظ لصدقى أن يكون أقل الطيارين خطأ وأدومهم وأثبتهم وأقواهم قوادم وخوافى وأرشقهم جناحاً وأبرعهم صعوداً وهبوطاً وقد عينته الحكومة منذ خمسة أشهر مفتشاً للطيران بعد أن كان موظفا بالشركة ·

كما أتاحت له الأقدار أن يحقق حلم عباس بن فرناس العربى الأندلسى وقد حياه شوقى أمير الشعراء عند وصوله بقصيده رنانة · وربح شهرة ومالاً وأثلج قلب أبيه قبل موته وأثبت أن الأمم المغلوبة على أمرها ينبغ فى غمارها أفراد يؤيدون

حياتها ويؤكدون طموحها .

كان صدقى طويل القامة أسمر اللون عريض الصدر يمشى مكباً بعض الإكباب، بارز الأنف حاد البصر كالنسْر الضخم وكان هادئاً هدوء النسر طويل الصمت خافت الصوت مجتمع الأكتاف كأنه لاينفك مصمما على التحفز للصعود .

وقد لقيته وقضيت معه وقتاً طويلاً عند عبد القادر حمزة بمناسبة مقالاته الخمس أو الست التى كتبها عن رحلته الجوية وكانت جيدة الموضوع ذات أسلوب خاص كأنها مكتوبة بلغة أجنبية منقولة عنها الى العربية وليس مطلوباً من مثله أن يكون كاتباً عربياً ، وكفاه أن يقيد خواطره وأن يصف مخاطره ، وهذه المقالات اتخذت بوفاته صفة الوثائق الانسانية ولكنى لا أظن أحداً سوف يعنى بتدوين تاريخ حياته وتسجيل هذه الفترة المجيدة الأولى من أعماله .

وكان صدقى متأهلاً بسيدة ألمانية مرزوقاً منها بغلام سماه « أسامة » وهو اسم بطل عربى قديم ولما شرب من ماء النيل رأى أن يبنى بسيدة مصرية رزق منها ببنتين ورأت أم أسامة أن تبقى بجوار ولدها .

وعن وفاته روى لى الأستاذ مصطفى علوى مدير الحركة فى المطار « وليس طياراً» ابن عم كمال علوى بك نجل المرحوم علوى باشا الرمدى الشهير أنه كان مع صدقى قبيل وفاته وقد خرج مع أسرته فى نزهة خلوية بالسيارة وهو يقودها ثم شعر بتعب فترجل وقصد الى مكان بناد رياضى ليستريح فزاد وجعه فى صدره وذراعه وضاق نفسه واستنجد طبيبا فلما بلغه كان قد قضى نحبه وصعدت روحه الى بارئها فى طريق السماء .

قال مصطفى بك العجيب أن الكومسيون الطبى وهو خرافة حكومية «من عندنا» كشف عليه وفحصه وأقر صلاحيته الصحية من أسبوعين فقط . والذبحة الصدرية تزمن ولها أعراض . فلو أنه كان طائراً وفى عهدته مسافرون ووافته منيته فى بضع

دقائق لهوى ، وهوت طائرته معه ، وقيل إن الطائرة سقطت لخلل فى آلتها أو عطب أصابها ولكن الله سلّم – وهذا لنعلم أن حياة البشر معلقه بخيط أوهى من خيط العنكبوت ولكن أكثر الناس لايعلمون ولايدركون ويخطئون ولا يصيبون ٠

وعلمت أن المرحوم لم يخلف ثروة ولا مالاً كثيراً أو قليلاً وأن أولى الحل والعقد يدبرون لأسرته معاشاً يليق بحالهم وبماضى بطل الطيران المصرى وسابق جهاده ٠

وقال لى المرحوم إن عقدة الطيران فى الهبوط ومعظم الحوادث تقع أثناءه وأن الطائرة أسهل فى قيادتها من السيارة ومثله من يقول ويعتمد على قوله ٠

وقد دل ببعد نظره فى تعليمه على أن اختار حرفة سوف يكون لها أعظم مستقبل فى العالم وعاش حتى رأى شأنها فى الحرب بين الأمة التى تعلم عندها وبين بقية أمم العالم ٠ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته ٠

محمد عبد السلام(*)

كتب العالم الطبيعى ألبرت أينشتين ، صاحب نظرية النسبية التى قيل إنها قلبت العلوم الطبيعية رأسا على عقب ، مبحثاً فلسفيا فى العلم والدين جاء فيه « إن الشعور والشوق ، هما العاملان القويان اللذان يدفعان بالإنسان إلى السعى والإنتاج النافع ، وأن الشوق والتطلع نحو المعونة والمحبة والاسترشاد يخلقان فى نفس الإنسان صورة لله يتجلى فيها القانون الخلقى والمبدأ الأدبى الاجتماعى » .

وإذا أنت لاحظت الألفاظ التى استعملها أينشتين زعيم علماء الطبيعة فى هذا العصر المادى نجد ألفاظاً ومعانى تخصّصت للتصوف ، فالشوق والتطلع والمحبة والاسترشاد والتجلى وصورة الله كلها ألفاظ يكتبها المتصوفون ، وقد لجأ اليها العالم الطبيعى لأن معانيها كانت تجول فى نفسه وهو لم يجد غير تلك الألفاظ للتعبيربها عما يخالج ضميره .

ثم تراه يترقى فى بحثه فيقول : « إن بعض الأشخاص المتمايزين فى الشعوب التى بلغت مراتب عالية من المدنية يرتقون بفكرتهم الدينية الى درجة الاختبار الدينى Exprience Religieuse الذى أدعوه « هذا أينشتين الذى يتكلم! » « الشعور الدينى

(*) نثبت هنا مقالا للطفى جمعه نشر فى جريدة البلاغ بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣١ تحت عنوان «التصوف الإسلامى الحديث» . وتجدر الإشارة هنا الى أن هناك رسالة أخرى صغيرة وضعها لطفى جمعه عن الشيخ محمد عبد السلام عنوانها « تذكار الأربعين لوفاة العارف بالله شيخنا السيد محمد عبدالسلام الذى لبّى نداء ربه صباح الأربعاء ١٦ ذى القعده سنة ١٣٤٥هـ » . وتقع هذه الرسالة فى ١٤ صفحة من القطع الصغيرة وماجاء بها لايكاد يخرج عما جاء بالمقال .

الكونى » ٠ وهذا الشعور الدينى الكونى ، ليس باليسير تفسيره لمن لايشعر به ، لأنه لاينطوى على تشبيه مادى للذات الإلهية ولايشمل صورة بشرية للخالق سبحانه ! وإنما من يشعر بهذا « الشعور الدينى الكونى » يدرك أربعة أشياء :

(١) بطلان الرغبات الزائلة والأغراض الانسانية الصغيرة ٠

(٢) نبالة النظام المدهش الذى يتكشف لنا فى عالمى الطبيعة والفكر وجلاله ٠

(٣) أن مصير الانسان مقيد بهذا النظام العجيب السائد على الكون ٠

(٤) ضرورة اختبار ذلك الوجود الكونى بوصفه وحدة مشبعة بأعلى المعانى وأغلاها ٠

هذه هى المبادىء الصوفية التى وصل اليها أنيشتين بطريق البحث العلمى ومعانيها لاتحتاج الى بيان ٠

وقبل اينشتين قال برجسون أشهر فلاسفة فرنسا إن الانسان يصل الى العلم الصحيح بطريقة الانفطار Intuition أو إشراف النفس ، وقد ألف فى مذهبه كتباً كثيرة ، وأيده فى أمريكا وليم جيمس ٠

وظهرت نظرية فرويد المبنية على التحليل النفسى « بسيكوانااليز » ، وكتب علماء إنجليز عديدون فى العقل الباطن ، وعللوا به علم الغيب والإنباء بالمستقبل ٠ وألف الأستاذ ارثور آدمجون العالم الفلكى الطبيعى الأشهر كتابه « ماهية العالم الطبيعى » جاء فى ص ٣٢٠ منه مايأتى فى الكلام على قوى النفس :

« إن فى الانسان ، فى عقله ونفسه ناحيات وجهات لاتخضع لقوانين الطبيعة وغير مقيدة بأى قيد ٠ فمن ذلك خفاء معنى الكون وخلقه ، ومايحيط بنا من أسرار الوجود ، ووسائل النطق بالفنون وتفسير معانى الحياة بالموسيقا والتصوير والنزوع الى الجمال والطموح الى الله ٠ فى هذا كله تعلو النفس وتطمح متتبعة خواص الشوق المودعة فيها ، وتسمو الى العلى لتحقق أمانيها الكامنة فى ثناياها ٠ وتفسير هذا الطموح أمر باطنى ، هو شعاع من نور مودع فينا وهو سعى واجتهاد من العقل .

الظاهر والإدراك الحقيقى لنصل الى معرفة مالا نرى ، أو لتتصل نفسنا بما هو أعظم منها . هو شعور النفس بقوة أعظم من قوتها ، وسلوكها للوصول الى تلك القوة التى هى مكمن الأسرار ومستودع القوة العليا ، فالباحث والفيلسوف والمحقق والعالم الطبيعى والأديب والشاعر والمتفنن الذين يعمل كل منهم فى فرعه إنما يسعون الى الاستزادة الفكرية من العلم والفن ليقربوا من ذلك الضياء الذى يجذبهم رغم أنوفهم كما لو كانوا مسوقين بقوة قاهرة يشعرون بها ولايعرفون كنهها » .

هل هذا كلام عالم طبيعى فلكى إنجليزى أم كلام فيلسوف متصوف شرقى ؟

الجواب إنه كلام الاثنين معا . وقد قرب العلم الصحيح مسافة الخلف بين العلم و« المعرفة » .

وكل قراء العربية يعرفون من هو رومان رولان . فهو أعظم كتاب فرنسا الأحياء، ولكنه مغضوب عليه وغضبان . فقد ألف قصة جان كريستوف فى عشرة مجلدات وترجمت إلى كل لغات العالم . ماعدا اللغة العربية ، وألف « الروح المسحور » فى أربعة مجلدات ، وترجم لعظماء العالم أمثال تولستوى وميكائيل أنجلو ومهاتما غاندى، ودرس رجال الموسيقا المشهورين أمثال لولى وسكارلاتى وهندل وبيتهوفن ، ونال جائزة نوبل .

أما سبب غضبه وخروجه من فرنسا وطنه واستقراره بإحدى قرى سويسرا على شاطىء البحيرة « نيوفيل » ، فهو مقاومته للحرب إبان اشتعالها فى العالم وقد ألف رسالة صغيرة عنوانها « فوق جو المعركة » ، فعدها أبناء وطنه خروجاً على الاجماع ، ونكوصاً إلى الوراء عن فكرة الدفاع القومى ، فقاطعوه وشنعوا به ، واتهموه بممالأة الأعداء ، كعادة الفرنسيين فى أوقات طيشهم وغليانهم لايسمعون من أحد كلمة الحق ، حتى تدقّ أعناقهم أو تحطم رؤوسهم بالجدار .

هذا هو رومان رولان الذى وقف بضع سنين من عمره على تأليف كتاب « حياة راما كريشنا وفيفيكنندا » وهو « مبحث فى الصوفية الفعالة فى الهند الحية » فى ثلاثة أجزاء .

وقد سرد فى هذه الأجزاء الثلاثة ترجمة اثنين من أعظم رجال الهند بل أعظم رجال العالم ، أولهما راما كريشنا المتصوف البرهمى العجيب الذى « وصل » عن طريق الإلهة كالى ، وقد وصف نشأته وتهذيبه وسلوكه وملازمته لعتبة الآلهة ، وأسهب فى وصف حالته فى وقت « تطوره » و« جذبه » الذى يسمى بالهندى « سمادهى » وكيف كانت تتجلى له الرؤى ، وخبر الرجل الذى « أوصله » بشق جبينه بقطعة من الزجاج ، وما أصابه من صنوف « البلاء » .

ثم انتقل الى ترجمة مريده المفضل على غيره وهو فيفيكنندا ، وكيف كان اجتذابه ، مع أن فيفيكنندا من طبقة الأشراف والأعيان ، وكان على أعظم جانب من الجمال والقوة والذكاء وأن راما كريشنا جذبه ، وأعطاه حاله ، وأنذره بما سيقع له ، فلزمه فيفيكنندا بضع سنين وخدمه ومرضه فى مرض الموت ، وعنى به العناية كلها . وجاء الوقت الأخير فألبسه حاله وقال له « اسمع يافيفيكنندا ، لقد صرت أنت الآن كل شىء ، وأنا لا شىء » .

ولما توفى الشيخ ، خرج « الدرويش فى سياحته الأرضية » الأولى فطاف بلاد الهند على قدميه كأفقر « الدراويش » يتوسد الأحجار ، ويتظلل بالأشجار ، ويأكل بالصدقة ، ويخوض غمار المستنقعات ، ويستغنى بثوب واحد ، وهو مع حالة فقره يزداد رفعة وكمالاً ، وأخيراً سافر الى أمريكا وحضر مؤتمر الأديان الذى كان منعقدا فى واشنطون سنة ١٨٩٣ ، فخطب فيه وأخذ بألباب زعمائه المجتمعين به من كل حدب وصوب ، وقد انتخبوه رئيساً عليهم ، فأفاض على علماء أوربا وأمريكا من العلم اللدنى بما أدهشهم « كل هذا ملخص أقوال رومان رولان أعظم كتاب فرنسا الأحياء » .

فعرضوا عليه الأموال والمناصب فأبى ، ووصل الى انجلترا حيث خطب وكتب وكان له من الشأن أضعاف ماكان له فى امريكا . ثم سافر الى باريس وأخيراً عاد الى وطنه، وقد مات فى الرابعة والثلاثين من عمره .

أما علاقة هذين الرجلين بنهضة الهند الحديثة ، وتسلسل الحركة الوطنية واليقظة القومية من الحركة الصوفية ومن حياة هذين الرجلين بالذات فهذا مانتركه الى وقت آخر لنوفيه حقه من البحث والدرس .

ولما اطلع أحد أصدقائنا المصريين(١) على كتب رومان رولان وقرأ حياة هذين المتصوفين لاحظ أنه رأى متصوفاً مصرياً ينطبق كثير من أحواله على أحوالهما فدرسها ودوّنها وكتب الى رومان رولان يعرضها عليه فأجابه بقبولها على شرط إفراغها فى قالب فرنسى ، وقد رأينا الخطاب الذى ورد على صديقنا من رومان رولان وهو : فيلنيف (فو) فيلا أولقا ٦ مايو سنة ١٩٣٠ .. سيدى العزيز .. أشكرك على كتابك ، إننى أهتم كثيرا بمعرفة المتصوف المصرى الذى كتبت لى عنه ، ولما كنت سأتغيب فترة الصيف بضعة أشهر أرجو أن تبعث إلىّ بمبحثك الطريف أثناء الخريف لأتفرغ لقراءته ودرسه فى أحسن الظروف وأكثرها ملاءمة وتفضل ياسيدى بقبول فائق تحياتى « رومان رولان » .

وقد انقطع مابينى وبين صديقى لسفره إلى مدينة الأسكندرية فلا أدرى عن مؤلفه فى حياة المتصوف المصرى شيئاً . ولا أعلم هل نقله الى الفرنسية وأرسله الى المؤلف الشهير أم لا ، ولكننى كنت قد حصلت منه على معلومات أولية ألخصها للقراء وإليك ذلك : « توفى ذلك المتصوف فى أواخر العقد السادس من عمره فى يوم الأربعاء ١٦ ذى القعده ١٣٤٥ الموافق ١٨ مايو سنة ١٩٢٧ ، وقد ولد بالقاهرة وكان أبوه من علماء

---

(١) يرمز لطفى جمعه بذلك الى نفسه .

فن تجويد القرآن وكان إماما لإحدى الزوايا بالقاهرة ، وينتسب هذا البيت إلى الشريف الرضى وأصل نشأتهم فى العراق العربى وهم من حيث الإقامة بالقطر المصرى ، ينسبون إلى قرية سرسنا إحدى قرى مديرية المنوفية .

ولما نشأ ذلك الصبى « الذى صار فيما بعد محمد عبد السلام المتصوف » أقرأه أبوه القرآن الشريف فأتقنه حفظاً وتجويداً ، ثم التحق مجاوراً بالأزهر حيث قضى تسع سنين فى طلب العلم وكان أساتذته الشيخ راضى وكان يعتبره الطالب الأول المميز على أقرانه فإذا لم يجده يوماً فى الحلقة عدل عن الإلقاء وذهب الى داره يسأل عنه ويواسيه .

وروى الثقات من عارفيه عن حياته أثناء الطلب أنه كان يلبس ثياباً بسيطا لطيفة للغاية وأنه كان ثابتاً وقورا كثير الصمت قليل الكلام .

وكان فى مستهل العقد السادس متوسط الجسم ، ليس بديناً وليس نحيلا وهو أسمر الوجه جدا جميل الطلعة مقسم التقاطيع ، ما أخذت العين برأس أكمل فى تكوينه الطبيعى من رأسه ، فكان الناظر إلى جمجمته البيضاوية الشكل وجبينه العالى وجبهته العريضة وحاجبيه الدقيقين وأنفه الصغير المستقيم وعينيه النبيلتين وجفونهما الأقرب إلى الضيق منهما إلى الاتساع ، وفمه الجميل المتوسط وشفتيه الرقيقتين فى حسن استدارة وذقنه المتوسط فى الحجم مع تمام المناسبة بينهما وبين فكه الذى لا بروز فيه . وإلى ذلك أذنان جميلتان دقيقتان مرهفتان ، كأنهما أداتان من أدوات التلقى اللاسلكى . من نظر إلى هذه الصورة فى مجموعها وتأمل حجم رأسه بالنسبة الى بدنه وكيفية جمال الوضع مع الانسجام ، أيقن أن هذا الرأس وهذا الدماغ وهذا الوجه انما هو رأس حكيم عاقل عالم قد صنعها الخالق سبحانه وتعالى وأبدع فى صنعها وصبّها فى القالب الذى أفرغت فيه رؤوس أكابر الحكماء ، فى سائر الأمم القديمة والحديثة .

وكان أول ظهور حاله منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً فهجر حلقات الدرس تدريجاً ثم أخذ يتردد على آخر مسجد حضر فيه الدروس وهو مسجد الحلوجى ، فيقابل فيه أساتذته ورفاقه ثم انقطع بتاتاً ولزم داره ، وكانت له مكتبة عظيمة أنفق فى تكوينها مالاً طائلاً . فلما أدركته الحال أحرق مكتبته عن آخرها . وتزوج من فتاة ريفية اسمها « شلبية » وأقام معها شهراً فطلقها عنه أبوه وهى لاتزال على قيد الحياة ، ولم تتزوج ، ثم تجرد الشيخ من حاجات الدنيا ومطالبها وزهد فى شهواتها ورغائبها وأعرض عن زهوها وغرورها فآلى على نفسه القوية الأبية أن لاتملك شيئاً بعد أن تبصّرت ونظرت بعين اليقين فى عالم الحقيقة . فكان لايملك ثوباً ولا عمامة ولا قميصاً ولا منديلا ولا قميصاً ولا فراشاً ولا مالاً منقولا ولا ثابتا ولا يتقيد بمكان ولا زمان من حيث المنام أو الطعام أو الشراب .

وكان اذا دخل خلوته خلع ثوبه الوحيد المستعار سواء أكان جلبابا أم عباءة أم رداء ويبقى عارى الجسد .

وقد رؤى فى سنة ١٩١٢ قبيل حروب البلقان يدخل مخازن الثياب الإفرنجية وهو بثيابه الشرقية ومعه رهط من مريديه وأحبابه فيشترى قبعات مختلفة الأشكال والألوان ويلبسها ويسير بها ، وفى تلك الفترة وقعت تلك الحروب المهولة التى تألبت فيها دول البلقان على تركيا .

وكان من عادته أن يحلق لحيته وشاربه وشعر رأسه حيناً من الزمن وأن يرسل ذلك حينا آخر ، وقد رأيناه لأول مرة حليقاً وانتقل الى رحمة الله وهو على أجمل مايكون منظراً وقد أرسل لحيته وشعر رأسه .

وكان من عادته أن يجلس فى خلوته وهى غرفة صغيرة داخلية تطل بنافذتين صغيرتين على حارة تؤدى الى ضريح الشيخ معروف ، على دكة من الخشب عليها وسادة وأمامه موقدان من الحديد أحدهما صغير والآخر كبير وبجوارهما سلة مملوءة

فحماً مصرياً وتكون النار موقدة فى الموقدين أو أحدهما فى معظم الأحيان ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاء وكان بجواره صندوق يضع فيه أعواد الثقاب بمقادير كبيرة ، وكان ورده المعروف « أجزر عينه ! جزر عينه فناه – قتله ، رماه ! . . » .

وكانت من أدواته مرآة ومروحة فيطيل نظره الى المرآة فى الطريق أو فى الخلوة ، أما المروحة المصنوعة من الريش فكان يروح بها هو أو أحد مريديه على النار .

وكانت سياحته اليومية تبدأ من باب الخلق فى صحبة مريد أو أكثر الى شارع تحت الربع فباب المتولى فالغورية فالأزهر فباب النصر أو الحسينية أو المشهد الحسينى أو باب الشعرية ، وقد تستغرق تلك السياحة ساعة أو ساعتين أو نصف يو أو ليلة بطولها ويزور كثيراً من الأماكن العامة كالقهوات والأفران والمطاعم ويغشى المآتم والأفراح ليسمع القرآن . وكان يحب أن يصغى إلى سورة القصص فى آخر أيامه ويستعيدها مرات عدة .

وكانت عادته أن يستلقى على ظهره بعض اليوم ويندر أن تغمض عيناه أو يستغرق فى النوم ويسهر طول الليل جالساً ، ولم يكن البرد الشديد أو القيظ الشديد يؤثران فى بدنه مطلقاً وقد رأيناه وهو يتصبّب عرقاً بعد جلوسه أمام الموقد ساعات يخرج فى المسهك « تيار الهواء » ويدخل الى محل الماء ويطلق نافورة الماء البارد على بدنه ثم يعود الى حاله مرات متكررة .

وكان يطلب من مريديه نقوداً كثيرة أو قليلة يشترى بها فحما أو حلوى أو صابوناً أو كبريتاً أو مناديل جديدة وكان فصيح اللسان بليغ العبارة وكان أيام الطلب حجة فى علوم اللغة والفقه والأدب والموسيقا والمنطق والفلسفة ، وكان يحفظ الشيء الكثير من الأمثال والحكم والشعر القديم والحديث وغرائب اللغة ، وإذا سئل عن آية من القرآن الشريف دل على موضعها من سورتها بسرعة فائقة . وهو يحفظ أسماء مشايخه ومشايخهم ومؤلفات كل منهم بالتفصيل والدقة .

ولم ير أهل القاهرة رجلاً أعم محبة عند جميع الطبقات من هذا الشيخ وقد رأينا في حضرته علماء أعلاماً من أهل الشريعة وأكابر المتصوفة وكلهم مجمعون على تبجيله وتمجيده والتقرب إليه ، وهو يكرم الجميع ويحسن وفادتهم ويجود عليهم بما وهبه الله ويمنحهم من خيره وفضله بما يستحقه كل واحد على قدر نصيبه ٠

فإقرار علماء الشريعة بفضله دليل على معرفتهم بقدره ، والتفاف المتصوفين حوله اشارة على إدراكهم حقيقة أمره ٠ وكان اذا سار في الطريق فجراً أو ليلا أو ظهراً هرع الناس من أماكنهم ودنوا منه للسلام عليه ٠ فكان يقبل على معظمهم ويعرض عن بعضهم ٠ وكانت علامة إكرامه لهم أن يطلب إلى أحدهم أن يسقيه ماء فإذا عاد بالإناء أمسكه الشيخ مدة ثم ناوله إياه دون أن يشرب أو يتناول عمامته أو طاقيته أو طربوشه ويبقيها في يده هنيهة ثم يردها اليه ٠

وكان في أول حاله يكثر من ذكر الحلاج ويشبّه نفسه به ٠

وأخبرنا المرحوم مصطفى بك نصر المدرس بمدرسة الحقوق سابقاً أنه سمع من والده أنه جاءته البشرى قبل مولده بأن رأى فيما يرى النائم أنه وقعت في حجره فسقية صغيرة من الفضة من شجرة باذخة في ليلة مقمرة وعقيب تلك الرؤيا ولد له صاحب الترجمة ٠

كما ولد لوالده ولدان صالحان فاضلان من أرباب الأحوال ومكارم الأخلاق هما الشيخ سيد عبد السلام والشيخ محمود عبد السلام وقد شربا من البحر الزاخر الذي شرب منه أخوهما الأكبر ووالدهما الموقر الذي كان كالشجرة الطيبة التي تهدي أعظم الثمار ٠

هذا ولم أقف من صديقي على تفصيل ماكتبه عن الشيخ من أنواع الكرامات أو الإنباء بالمستقبل أو الأسرار التي أفضى بها اليه ٠ ولعله اذا اطلع على هذه العجالة لايبخل على قراء العربية بنتف صالحة من تاريخ حياة الشيخ محمد عبد السلام ٠

الشيخ محمد عبده(*)

وصلت الى يدنا حديثاً رسالة التوحيد تأليف المرحوم الشيخ محمد عبده منقولة الى اللغة الفرنسية ، وقد اشترك فى ذلك العمل الجليل النافع الأستاذ ب. ميشيل والشيخ مصطفى عبدالرازق فصدراها بترجمته ، ويلوح لنا أنهما أخطآ فى نسبة الشيخ الى الجنسية المصرية ، ولم يحققا نقطة ذات شأن ، فقد كان أبوه واسمه الشيخ خير الله كردياً ، وكل ماجاء على لسان الأستاذ الإمام فى وصف أبيه من إبائه الظلم وفراره من بيته فى أواخر عهد محمد على وعودته اليه فى عهد عباس الأول ، وإتقانه ركوب الخيل وحسن الرماية ، وما كان يبدو على سيماه من دلائل الكبرياء والوقار يدل على انحداره من جنس شرقى أجنبى عن مصر ، ولعل هذه الجنسية هى سبب الصداقة المتينة التى كانت تربط الشيخ بالمرحوم قاسم أمين الذى كان كردياً صميماً ، وهى التى جعلته يبادر الى التلقى عن جمال الدين الأفغانى ، فكان أحب تلاميذه إليه ، وكان رفيقه فى حله وترحاله وشريكه فى تأليف كتبه ورسائله وتحرير مجلته ، ولعل الشيخ محمد عبده أكثر المصريين إفادة من جمال الدين .

وإن فى نفور محمد عبده من التعليم النظامى ، والخروج على قيوده ، وحبه ركوب الخيل وحياة الطبيعة الحرة الطليقة ، وانتحاله فكرة الثورة وصيرورته روحها ومرشدها ، وفى التجائه الى التصوف فى بداية أمره ثم عدوله ، واكتفائه من الدين بالعبادة المفروضة والمستنة ، ثم ظهوره بفكرة الإصلاح فى مجلس الشورى وفى الأزهر

(*) مقال نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٠ يوليه سنة ١٩٢٩ تحت عنوان « الشيخ محمد عبده ، وصف مجلسه وأحاديثه وبعض آرائه » .

وفى القضاء وفى الأدب ، فى ذلك كله أدلة على امتزاج الأصل الأجنبى الشرقى بالعنصر المصرى الكريم الفلاحى ، فإننا لانتنازع فى مصرية أمه ، التى كانت فضلى الأمهات .

كان الشيخ محمد عبده الذى أدركته عام ١٩٠٣ « ربعة » بين الرجال أسمر اللون ، أبيض الشعر ، حديد البصر ، ليس نحيفاً وليس بادناً ، وكانت تقاسيم وجهه تحببه إلى من يلقاه ، دع عنك خفة الروح والجاذبية القوية التى كانت تشع عنه دأب كل عالم وعظيم ، وكان صوته هادئاً جميلا ، يتكلم بتؤدة وبساطة ويتأنى فى حديثه ، مع استمرار النظر الى المخاطب كأنه يحاول غرس أقواله فى أعماق نفس محدثه ، وقد تعرَّفتُ الى الشيخ بغير واسطة فكتبت إليه خطاباً ثم زرته وتكررت زيارتى له مرات ، وكان مجلسه يحفل بكبراء مصر وأدبائها وبعض الأجانب ، كما كان بيته فى عين الشمس ملجأ الكثيرين من ذوى الحاجات وطلاب المقاصد الشريفة . وكانت بين الشيخ وبين المرحوم ويلفريد سكوين بلنت أواصر مودة قوية ، وكان بلنت يقيم فى قصر فخم ذى حديقة غناء فى « الشيخ عبيد » على مقربة من عين شمس ، وهو الذى أقطع الشيخ الأرض التى بنى عليها بيته بالطوب « الآجُر الذى لم تنضجه النار » وكان يزور الشيخ لابساً عباءة وعقالا ، ومعظم حديثهما بالفرنسية ، وكان الأستاذ يدعو بعض نجباء المصريين ويجمعهم لدى بلنت ليأنس اليهم ومنهم محمد المويلحى وعلى يوسف وحافظ إبراهيم ، وكان بلنت يقيد أحاديثهم وكثيراً ما أمد الجمعية الخيرية الإسلامية بماله خفية لوجه الله .

وكان الشيخ محمد عبده فى أيامه الأخيرة مريضاً بسرطان فى الكبد متبرماً بالحياة ضجراً من الذى عاناه فى حياته التى كانت سلسلة جهاد وكفاح ، ومما سمعته منه ودّونته قوله :

« لايوجد فى الوقت الحاضر رجل أشقى حظاً من الرجل المتميز المنور فى مصر

اذا كان مصرى الجنس ، لأنه مقصوص الجناح مقلم الأظفار فى سائر الناحيات التى يمكن أن يكون بها نافعاً ٠ فإن عناصر الخيبة والفشل و وعدد المحاربة الموجهة اليه من الأوساط المختلفة ، لا تمكن مقاومتها مطلقاً ٠ والأدهى والأمر من هذا أن الفوضى الضاربة أطنابها فى جميع مظاهر الحياة المصرية تنقلب نظاماً عجيباً محكماً لدى حشد جيوش المقاومة للرجل النافع أو الرجل العظيم ، وتعمل ضده قوى من قوى الظلام التى تبدو للغير الخبير لا شىء ، وهى فى الحقيقة قوى عظيمة خفية غامضة ، كأنها شيطانية أو سحرية ، وكأن بين جميع الأفراد والجماعات تفاهماً سرياً على الوصول الى نتيجة واحدة وهى تخييب جميع مساعى الفرد النافع ، فى كل اتجاه يقصده !! وقد تصل المحاربات المذكورة الى درجة تجعل حياة الشخص وعقله وكيانه المعنوى فى خطر ولكن الحياة تنجو باتفاقات القضاء والقدر ، وعقله ينجو مصداقاً للنظرية القائلة « بأن العقل السليم لايتهدم أمام الحوادث مهما عظمت ، وإن كان يعتريه ألم أو اضطراب ، ولكنه لايفقد مطلقاً توازنه ولايتأثر جوهره » كذلك كيانه المعنوى يحتفظ بقوة إرادته ٠

«ومهما يكن الرجل نابغاً أو موهوباً ، ذا صفات فعالة فى عالم الماديات أو الأدبيات فلن يجد ميداناً لأعماله ولن يجد متسعاً لجهاده ، بل سوف يجد سخرية ممن هم أجدر الناس بتشجيعه وأحوجهم الى جهوده ، وسوف يجد تثبيطاً من قرنائه وأصدقائه وأحبابه وأهله ، وسوف يجد النكران والمعاداة والمصادمة من الذين كان ينظر اليهم بعين الرجاء والعشم ، وسيمر به الأشخاص مرور المحبين للاستطلاع كأنه بعض عجائب المخلوقات وسيشيرون اليه بالبنان كما يشيرون الى الكائنات الشاذة ، وهم يعلمون تميزه وظهوره ولكنهم يحاولون قهره وإذلاله والتقليل من قدره لقتل عظمته فى مهدها ، لغيرة خفية فى نفوسهم ، وإن كانوا يعلمون أنهم لن يبلغوا شأوه ولحقد طويت عليه ضمائرهم لايمكنهم تعليله أو تفسيره ، ولعله من بين الرذائل الموروثة ٠ وهم

بالجملة ينظرون الى ذلك الرجل المتميز نظرهم الى إنسان غريب عنهم ، وعن أخلاقهم، بعيد عن إحساسهم وعن طبيعتهم .

«ومن غرائب الظواهر التى ظهرت أخيراً فى مصر وصارت واضحة فاضحة بعد الحوادث العرابية بعشرين عاماً أن كل واحد من الزعانف والصعاليك والمقززين «ترجمة صحيحة للفظ Snobs » والإمّعات أصبح يزاحم بالمناكب أرباب الخصال الحميدة والمواهب الظاهرة والفضائل المحمودة ويقول « لماذا يكون فلان أفضل منى أو أعقل أو أكرم ؟ إننا فى زمن المساواة ! » ولعمرك ماهذا القول إلا دليلا على تردّى قائله فى مهاوى الجهل ، لأن الأمم التى سادت لديها نظريات المساواة والتى نحكيها تقليداً ، هى أعظم الجماعات تكبيراً للعظماء وتقديراً لفضلهم وخضوعاً لإرادتهم وتسليماً بمواهبهم واستسلاماً لهم بضمائر خالصة ، وهذه الأمم تساعدهم وتعضدهم وتأخذ بأيديهم وترفعهم على رؤوسها وتعطيهم حقوقهم وتملكهم قيادها ، فعلة سقوط الشرق محاربة شعوبه لعظمائه والتواطؤ على هلاكهم « انتهى كلام الأستاذ الإمام » .

وكان الاستاذ الامام يتكلم متدفعاً كالسيل ولكن فى هوادة ورقة ، ولئن شعر السامع بقوة الحديث وكلامه وتدفقه فإنما يشعر أيضاً بأنه ماء السيل عذب سلسبيل ، تزينها نبرات الصوت المطربة.

وكان الشيخ عدا أحاديثه فى المسائل العامة على هذا الأسلوب الشائق يتفكه أحياناً ويروى ملحاً يطلق عليها اسم « لطائف » ومعظمها مقتبس من الآداب الأجنبية، ومما نذكره ملحة أطلق عليها اسم « لطيفة فارسية » قال رحمه الله : « مر رجل فارسى بآخر كردى جالساً الى جدار وبجواره جراب ممتلىء ، وأمامه كلب مريض يتلوى ويتضور ، والكردى ينظر الى الكلب العليل الذى يعوى عواء النزع بألم ظاهر ويقلب فيه أجفانه بلوعة ظاهرة ويشفق عليه بألفاظ رقيقة ، فاستوقف هذا المنظر العجيب ذلك الفارسى فحيّا الكردى فى رفق وسأله عن الكلب ماذا تكون حاله ؟

فأجاب الكردى : إنه كما ترى كلب يموت !

الفارسى : ومم يموت ياسيدى ؟

الكردى : من الجوع ..

الفارسى : ولمن يكون هذا الكلب المسكين ؟

الكردى : هو بلا ريب كلبى ...

الفارسى : وما هذا الجراب الذى بجوارك ياسيدى ؟

الكردى : هو جرابى الذى أنقل فيه أمتعتى

الفارسى : أراه منتفخاً فما به ؟

الكردى : مآكل ومطاعم وأقوات وزاد وذخيرة

الفارسى : الحمد لله ! اذا كان الكلب كلبك والجراب بما فيه ملكك ، وأنت مشفق على هذا الحيوان الأعجم الذى يجود بنفسه جوعاً ، ولديك ما يسدّ رمقه فلماذا لاتعطيه فتحييه ؟

الكردى : لم تصل بيننا المودة الى هذا الحد !! » .

وكان الشيخ رحمه الله يضحك لدى الفراغ من روايته هذه اللطيفة ، وهو يستخرج مغزاها بنظراته وإيمائه اللطيف ، ويستدرج السامع ليستنتج بنفسه جمال المعنى وحسن تطبيقه على بعض أمم الشرق التى تجود بالأقوال الفياضة والعواطف المتدفقة وتضن بالمال والفعال ، فهم ذوو دين ووطنية يملآن القلوب ولكنها لاتصل الى الجيوب .

وكان الشيخ رحمه الله يتمثل أحياناً ببعض الشعر ، ومما دونته عنه قول شاعر لا أذكره :

ذرنى وأشياء فى نفسى مخبأة

لألبسنّ لها درعاً وجلبابا

والله لو ظفرت نفسى بطلبتها
ماكنت عن ضرب أعناق الورى آبى
حتى أطهّر هذا الكون من دنس
وأوجب الحق للسادات إيجابا
وأملأ الأرض عدلا بعد ماملئت
ظلماً وأفتح للخيرات أبوابا

وكان يفسر « السادات » بأنهم أرباب النفوس السامية والمواهب العليا ومن يقصدهم الفرنسيون بقولهم Les âmés bien nées

ودخل عليه مرة المرحوم حموده عبده شقيقه وقاطعه ليخاطبه فى شأن جماعة جاءوا لشراء قطعة من الأرض مما كان يملكه الشيخ من أصل هبة بلغت إياه ، فغضب الشيخ وتهاون فى فرار فرصة تلك الصفقة دون قطع حديثه ، وغضب حمودة لذلك واحتدّ ، فلم يأبه الشيخ لغضبه واستمر فى حديثه متمثلا ببيتين للنمرين تولب :

أعاذل إن يصبح صداى بقفرة
بعيداً فأتى صاحبى وقريبى
ترى أن ما أبقيت لم أك ربّه
وأن الذى أنفقت كان نصيبى

واتصل بالشيخ الإمام أن أميراً شرقياً كبيراً تخلى عن زعيم سياسى كان يصادقه ويساعده ويعضده ، وقد وقف الزعيم جهوده على الدفاع عن ذلك الأمير وصيانته ، وكان سبب التخلى وشاية شيخ صحفى ، لمسألة زوجية شهيرة حدثت فى أوائل القرن العشرين ، فأسف الأستاذ لما حدث بين الأمير والزعيم وقال يحق لفلان باشا « وذكر اسم الزعيم الشاب » أن يتمثل بقول الشاعر :

وأنت الذى أخلفتنى ماوعدتنى
وأشمتَّ بى من كان فيك يلوم
وأبرزتنى للناس ثم تركتنى
لهم هدفاً أرمى وأنت سليم
ولو أن قولا يكلم الجسم ، قد غدا
بجسمى ، من قول الوشاة ، كلوم

وكان لهذه الأبيات وقع شديد فى نفوس سامعيها لدقة ظروف التمثيل بها ، وصدق المناسبات التى تذكر فيها حتى يخيل إلينا أن الشيخ رحمه الله هو ناظمها(١).

ومن أعجب ماعلمنا من الصحف أن أرملة الشيخ عاشت أكثر من عشرين عاماً بمرتب شهرى قيمته مائة وخمسون قرشاً صاغا ، ولكن ليس فى مصر شيء عجيب لأنها بلد العجائب !

* * * *

تشرفت بمعرفة الأستاذ الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٣(٢) ، وكان لسبب تعرفى به مطالعتى مقالاته التى كتبها رداً على كتاب «ابن رشد وفلسفته» الذى ألفه صديقى المرحوم فرح انطون ، فكتبت الى الأستاذ الإمام أطلب التشرف

---

(١) يشير لطفى جمعه الى الخلاف الذى وقع بين الخديو عباس والزعيم مصطفى كامل بسبب قضية الشيخ على يوسف المعروفة بقضية الزوجية ، فاتخذ مصطفى كامل هذه القضية فرصة للنيل من الشيخ على يوسف ، فى حين نصر الخديو عباس صاحب المؤيد الذى كان خادمه الأمين ولسان حاله وعينه وأذنه ، وكان أعظم من عاداهم الشيخ على يوسف بسبب هذه القضية الشيخ محمد عبده لأنه اعتقد ان الشيخ محمد عبده يكيد له » راجع فى تفصيل ذلك كتاب « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الاعلام » تأليف رابح لطفى جمعه ، ص ١٥٥ ، سنة ١٩٩١ .

(٢) ابتداء من هذه الفقره نثبت هنا مقال لطفى جمعه الذى نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٣٠ إبريل سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « كيف حرمت من تابين المرحوم ، الشيخ محمد عبده فى *القاهرة* وكيف وصلت إلى غايتى فى مدينة الإسكندرية » .

بمقابلته ، فدعاني الى منزله ، وشملني بعطفه ولم تنقطع زيارتي له في صحته ولا في مرضه ، ولما اعتزمت الرحيل الى سوريا لطلب العلم في كلية الأمريكان كتب اليّ مكاتيب توصية الى لفيف من أعيان المدينة ومن بينهم صهره المرحوم السيد محيى الدين حماده الذى كان وكيل شركة البواخر الخديوية ، ولم تنقطع مراسلتي للشيخ ، ولما عدت كان أول رجل زرته هو ذلك الأستاذ العظيم ، وهذه حقائق يعرفها كثيرون من الأحياء والمعاصرين أمثال السيد رشيد رضا ، الذى لاتزال في عهدته مجموعة من مكاتيبي الى الشيخ ، والأستاذ محمد بك حافظ إبراهيم وغيرهما ... وكان آخر لقاء بيني وبينه في رمل الاسكندرية قبيل وفاته بأيام ، وكنت أول شخص قرأ له حافظ إبراهيم الأبيات الأولى من مرثاته البليغة التائية :

سلام على الإسلام بعد محمد
سلام على أيامه النضرات

ولما توفي الشيخ كتبت بضع مقالات في الصحف في تاريخ حياته وأعماله ، وعقدت اجتماعات كثيرة لتأبينه وتشرّفت بالتكلم فيها عن مناقبه . ولا عجب فقد حضرت بعض دروس الأستاذ وغذيت نفسي بكثير من مقالاته ومؤلفاته وتمتعت بحديثه العذب وأخلاقه الكريمة وانتفعت بتوصيته في سوريا فكان طبيعياً بعد هذا كله ، عندما أعلن لفيف من كبراء الأمة عزمهم على إحياء ذكراه بعد سبعة عشر عاماً لموته ، وألّفوا لجنة لذلك وطلبوا من الخطباء والشعراء أن يعلنوا رغبتهم في الاشتراك في تأبينه ، أقول ليس عجيباً ولا مستغرباً أن أبادر حينئذ « شهر يونيو سنة ١٩٢٢ » الى مراسلة اللجنة وطلبي منها أن تتيح لي فرصة للتعبير عن عواطف احترامي وتقديري وإعجابي بأستاذي المرحوم ، وقد كنت أقرب إليه بالفكر والعقيدة والمبادىء من كثيرين ممن دعوا الى هذه الحفلة .

ومهما يكن الخلاف السياسى بينى وبين فريق من السادة الأمجاد الذين قاموا بهذه الحركة ، بعد أن نبههم اليها أديب فاضل من قراء الصحف ، فلم أكن أظن أنهم يفكرون فى حرمانى أنا وغيرى من مريدى الأستاذ وتلاميذه من إظهار عواطفنا نحوه فى تلك الذكرى ۰ ولأجل هذا بادرت فى يوم ٨ يوليو سنة ١٩٢٢ بالكتابة الى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت أخبره بعزمى على تأبين الأستاذ وأعرض عليه نص الكلمة التى سألقيها كما هى العادة فتفضل ذلك العالم الفاضل وأجابنى بالكتاب الآتى :

الخرنفش فى ١١ يوليو سنة ١٩٢٢ « هذا تاريخ طابع البريد على الغلاف » ..

بعد إهداء السلام لقد استلمت خطابك بيد السرور وعلمت مافيه وإنى لا أرى مانعاً من أن تكون بين الخطباء خصوصاً لما أعلمه من أنك مجيد عظيم غير أن مدة الحفلة ستكون ساعتين فقط فأرجوك أن تقابل الشيخ مصطفى عبد الرازق لكى تقسموا هذا الوقت على الخطباء (كذا) ومع ذلك يمكنك أن تلقى كلمة وجيزة بقدر الإمكان وفيّة الكلام وإنى ممنون ومتشكر لهذه الصداقة التى جعلتك تخاطبنى ، فإنى أود أن تدوم العلاقة بينى وبين أولادنا النجباء أمثالك واقبلوا فائق الاحترام ·· محمد بخيت

فقرأت هذا الكتاب بسرور عظيم وشكرت لفضيلة الأستاذ كرم أخلاقه وسمو آدابه وعطفه على الضعفاء ، وسرنى جداً قوله « لكى تقسموا هذا الوقت على الخطباء » أى أنه جعل لى وهو رئيس اللجنة مشاركة فى تقسيم الوقت وترتيب الخطباء ·· وكان صاحب الفضيلة مصمماً فى كل حال حتى ولو ضاق الوقت ، على أن « ألقى كلمة وجيزة » فبادرت بالكتابة الى صديقى الفاضل صاحب الفضيلة السيد مصطفى عبدالرازق وأرسلت اليه صورة من خطاب فضيلة الشيخ بخيت ونص كلمتى ، وكانت لاتستغرق أكثر من عشر دقائق لأننى أعتقد أن الخطيب الذى لايستطيع أن يقول فى عشر دقائق مايجب أن يقال فخير له أن لايقول ··

وانتظرت النتيجة أى رد فضيلة السيد مصطفى عبدالرازق على خطابى ، وبعد أيام ورد إلى الجواب الآتى :

حضرة الأستاذ لطفى جمعه

قررت لجنة الاحتفال بإحياء ذكرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن تشكر لحضرتكم ماتفضلتم به من إظهار الرغبة فى إلقاء كلمة بالحفلة ٠ ولقد كانت اللجنة حريصة على أن تجيب رغبتكم النبيلة لولا أن اضطرها ضيق الوقت الى الاقتصار على عدد من الخطباء محدود جداً لم يتّسع لكثير من أصدقاء الإمام وتلاميذه وأنصاره الذين كانوا يودون أن تمكنهم الفرص من إلقاء شىء فى الاحتفال واللجنة مع اعتذارها لحضرتكم ترجو أن لايحرم الجمهور من تلاوة مقالكم فى المجموعة التى ستنشر متضمنة مايلقى فى الحفلة ومايختار من المقالات والقصائد التى ترد الى اللجنة ٠

وتفضلوا بقبول تحياتى الخالصة واحترامى ٠٠٠ مصطفى عبد الرازق

وأنا واثق من صداقة السيد مصطفى وإخلاصه ، ولا أوجه اليه عتاباً بعد أن وقفت على الحقيقة ، فإنما كان السيد الفاضل سكرتير اللجنة ، كما كان فضيلة الشيخ بخيت رئيسها ، ولكن كما هو العادة كانت هناك أوامر معينة أو خطة مرسومة أو مايسميه الفرنسيون : mot d'ordre أن لايخطب فى هذا الاحتفال أى إنسان لايتفق مع شخص خفى فى السياسة والمبدأ ، ولكنه لم يكن ليجاهر بهذا اللجنة وفيها رجال أشراف مستقلو الرأى أمثال الشيخ بخيت والشيخ مصطفى ، إنما كان يحصل الرفض بطريقة التنهد وتحويل الوجه ، والشخص الخفى أحول النظرات وبطىء فى الكلمات ويقلد أحياناً ألفاظ الفلاحين تجملا وتظرفاً مع بعده الشاسع عن الجمال والظرافة ، وقد حاولت الوقوف على اسمه لأذكره للقراء فلم أتمكن للأسف الشديد فإذا

ورد أمامه اسم شخص معين لايحبه هو أو لايريد خطابته ، يفعل الحركات التى ذكرتها آنفا ثم يقول فى رزانة وتصنع :

– ما علينا ياشيخ بجا « بقى » إحنا جاعدين « قاعدين » علشان نظهر خطباهم على خطبانا ٠٠

وقد علمت أن هذا هو الذى حدث فى حالتى ، وطبعاً بعض أعضاء اللجنة يضطرون للمجاملة والملاطفة ، فيضحون علاقتى بهم وخطبتى إكراماً لحول عينى ذلك الانسان ، الذى قيل لى بعد ذلك إنه صار من أعدى أعداء المرحوم سعد باشا بعد أن كان من أتباعه وتلاميذه ، والمدهش أنّ سبب علاقته بالشيخ عبده ترجع الى تحككه بالمرحوم سعد باشا ، فبعد إظهار خصومته للمرحوم سعد باشا استمر يتحكك بالمفتى المتوفى ، فانظر الى هذه المعقولية العجيبة التى لاتتجلى ولا تقبل ولا يسكت عليها إلا فى مصر ٠

فلما وصل إلىّ خطاب السيد مصطفى عبدالرازق عجبت كثيراً ، ولم أجد مجالاً لمراجعة الشيخ بخيت ، فأين المسافة من « قسّموا الوقت بين الخطباء » وبين « اللجنة تشكركم وتعتذر » فعلمت أن الرجلين بريئان من هذه الدسيسة وأن صاحبها هو ذلك الشخص الذى وصفه محدثى بأنه « محراك الشر » فى كل زمان ومكان ، وقال لى أيضا إن الحوادث أيدت صدق رأيه فيه ٠

والأعجب من كل ماتقدم أننى انتظرت أن تصل الىّ رقعة الدعوة الى الاحتفال فخاب ظنى ، ولم تفكر اللجنة التى تشكرنى وتعتذر فى دعوتى دعوة بسيطة كما دعت مئات الأشخاص من كل الطبقات ، ومع ذلك قد حضرت الاحتفال غير مدعو ، واستقبلنى بالباب أفندى من الخطباء ، ونظر الىّ شزراً وكان يعلم الحديث كله من البداية الى النهاية ، وكان يعلم أننى غير مدعو ، وهمّ يسألنى عن تذكرة الدعوة أو ينفينى ثم خجل ٠

وقد سمعنا فى تلك الحفلة المعجب والمطرب ، فقد خطب أحدهم وقال « إن الشيخ محمد عبده كان عظيماً جدا رجل عظيم (كذا) وأننى لم أره ولم أحادثه فى حياتى ، لأننى كنت فى المدرسة ، ولكننى كنت أسير مرة مع بعض أصدقائى ورأينا رجلا عظيما يدخل من باب وزارة الحقانية ، فرأينا ظهره ٠٠ وقيل لنا إنه الشيخ محمد عبده إنه كان رجلا عظيماً جداً » .

وخطب الشيخ الزنكلونى ، فضيّقوا عليه الخناق ومنع من التكلم فى السياسة وعدم التفوه بذكرى سعد والسعديين ، ومن العجب أن الشيخ محمد عبده لم يصل الى شهرته إلا بالسياسة ، لأنه لولا اشتغاله بالحركة العرابية ومشاركته فيها وتحريره فى الصحف وانتخابه عضواً فى المجالس التشريعية لم يكن ليعرفه أحد بأكثر من كونه عالماً مصلحاً مضطهداً ، ومع ذلك قد حرموا الكلام فى السياسة لأنهم يخافون من ذكر سعد ولايرغبون فى تكدير صفو الوزارة الثروتية .

وبعد نهاية الحفلة أرسلت الخطاب الآتى الى أحد أصدقائى من رجال اللجنة ولا أريد التصريح باسمه الآن!⁽¹⁾ .

سيدى الاستاذ الجليل صاحب الفضيلة والكمال فلان حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تسلمت بيد السرور خطاب فضيلتكم المؤرخ ٩ يوليو سنة ١٩٢٢ فاشكر لكم تنازلكم وتفضلكم بالرد وقد علمت منه أن لجنة الاحتفال بإحياء ذكرى الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده تفضلت لطفاً منها وكرماً بشكرى على إظهار رغبتى فى إلقاء كلمة بالحفلة ولكنها فى الوقت ذاته تعتذر عن إجابة ملتمسى لضيق الوقت الذى اضطرها الى الاقتصار على عدد محدود جداً من الخطباء ٠ وإننى ياسيدى الأستاذ الكامل أنتهز هذه الفرصة لأكرر الثناء على اللجنة

---

(١) هو الشيخ مصطفى عبد الرازق ٠

على عملها الجليل وأشكرها على أنها أنقذتنى من مأزق ولم ترض لى الموقف الحرج ٠ فإنه على الرغم من أننى لم أدع الى الحفلة برقعة كغيرى من خلق الله حتى كدت أنشد مع الشاعر القديم :

ما الذى ضر مدير   الجام لو جاملنا

فإن حبى لإحياء ذكرى الأستاذ الإمام دفعنى الى حضور الحفلة بغير دعوة فاعذر ياسيدى الاستاذ الأجل هذا الاندفاع منى فى سبيل العلم والأدب ، وكان من حسن بختى أن حظيت بسماع الخطباء لاسيما ٠٠ فحمدت الله الذى ألهمكم ياسيدى فكرة عدم إجابة رغبتى الأولى الطائشة ، فأين كان يذهب الضعيف كاتب هذه الأسطر بين هؤلاء الفطاحل الذين اعتلوا منبر الخطابة وفى أية سوق كنت أعرض بضاعتى الضئيلة وقد جعلتم من الحفلة عكاظاً أخرى أحق بالثناء وأحرى ، بل ما أبعد أمثالى «العلمانيين» Profane عن هذا الهيكل المقدس والمقام الأسنى والمجال الأعلى ، ولو علمت وحقك ياسيدى الأستاذ أن فلانا هو خطيب الحفلة وسيحف به من رأيت وسمعت من الخطباء والمتكلمين والعلماء الأعلام والأساتذة الكرام ماحدثتنى نفسى أن أتطفل على تلك المائدة بغير فائدة ٠ لأننى أؤكد لسيدى الأستاذ أننى حقا استفدت أولاً وطربت ثانياً وحمدت الله وأثنيت على اللجنة ثالثا ورابعاً فقد كان الوقت من تبر وعسجد ، وكان كل خطيب كالعلم المفرد ولكل قول ألقى علينا لذة تتجدد ٠ هذا وإننى ياسيدى الأستاذ أقسم لك بقبر الاستاذ الامام الأبرّ أننى لم أظهر رغبتى فى الخطابة حباً بها أو سعياً وراء شهرة أستفيدها أو استشفاء من داء الكلام Maladie de la chair الذى أصيب به بعض الناس فى هذه الأيام ، ولكن كان ذلك قياماً بواجب واعترافاً بجميل ، فقد تشرفت بمعرفة الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٣ ولدىّ منه رسائل شتى وكان مرشدى و معينى فى التعليم فى بيروت فى سنه ١٩٠٣ ويعلم ذلك جيداً كل من السيد محيى الدين حمادة والشيخ رشيد رضا ورثيته يوم ١٥

يوليو سنة ١٩٠٥ فى محفل كبير ماسونى وفى جمعية النشأة الحديثة بالقاهرة وبعد أن شاركت فى تشييع الجنازة فى الثغر وفى مصر ، وحفلة التأبين المذكورة مثبتة فى الصحف – فانظر ياسيدى إلى عجائب الدهر التى جعلتنى فى العشرين من عمرى كفوءاً لتأبين هذا الرجل العظيم والاشتراك فى تكريمه وحرمتنى هذه النعمه إذ شارفت على الأربعين، حقاً إن فى ذلك لعبرة لمن يتأمل ، ولعل الناس فى أوائل هذا الجيل كانوا من البساطة بحيث أباحوالى تكريم العظماء وكان من الأجدر بهم أن يحتكروه تعظيماً لقدره ورفعة شأنه وأن يقصروا الاشتراك فى إحياء ذكره على كل عالم عظيم أو نبيل جليل أوسرى كريم ، واعلم سيدى الأستاذ فى الختام أننى لم أجرؤ على الكتابة السالفه إلى مقامك إلا بعد أن ورد لى خطاب من حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت بخط يده الكريمة جاء فيه « ومع ذلك فيمكنك أن تلقى كلمة وجيزة بقدر الإمكان وإنى منون ٠٠ الخ » وبقيت بعد ذلك أفكر فى « تنظيم الاضطهاد » الذى أتقنه جماعة المصريين أو Clique أى شلة معينة سواء أكان ذلك فى السياسة أم فى الأدب ، وإننى أعتبر هذا العمل مضراً بالمجتمع ضرراً بالغاً ، فقد ظهر أن الخطباء الذين خطبوا فى الحفلة ، ماعدا صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق المؤرخ الفاضل والكاتب البليغ والمفكر الصادق ، كانوا كلهم خطباء ضرورة ، تغتم نفس الشيخ محمد عبده لو سمعهم حياً أو ميتاً ٠ ولاسيما ذلك المطربش الذى قال إنه عرف الشيخ من ظهره ، وقيل له إنه الشيخ محمد عبده !

إذن لم يكن منعي لتقديم فطاحل الخطباء ولا لتفضيل علماء مصر على غيرهم ، ولكن لمجرد عدم انتمائى لهذه « الشله » سياسياً ولاعقلياً ولاأخلاقياً ٠

ولاحظ جيداً أن رجالاً أمثال الشيخ بخيت والشيخ مصطفى عبد الرازق هم أنفسهم ضحايا لهذه الشلة ، لأنهم يتخذونهم ستاراً لما اشتهروا به من العلم والفضل وكرم الأخلاق وسعة الصدر فتعمل تلك الشله وراء اسميهما وهذا من أغرب الأمور ،

وطبعاً هذه « الشلة» قد انفضحت الآن تماماً وظهر أنهم جماعة من الوصوليين ودعاة الهزيمة والاندحاروفريق من المغامرين فى السياسة والعلم والآدب وقد أنقذ الله من مخالبها بعض رجالنا الصادقين الذين كانوا على وشك الذهاب ضحية لها أمثال صديقى العزيز الفاضل الأستاذ الدكتور منصور بك فهمى ، فانه كان فى فترة ما مسحوراً بأقوالهم الخلابة ومخادعتهم البراقه حتى استبان النور من الظلام ونجابعلمه وخلقه وعقله وقلبه والحمد لله .

نرجع إلى تأبين الشيخ فى الاسكندرية ، فقد علمت أن اللجنة قد تألفت فى الثغر لهذا الغرض فبادرت بالكتابة اليها وبادرت اللجنة بدعوتى ، لانه لم يكن بين أعضائها دساسون ولا مراءون ولا متنطعون مدّعون كصاحبنا الأحول المرذول الذى يقلد أقوال الفلاحين تظرفاً وهو أبرد وأسخف خلق الله إنساناً .

وأرسل إلىّ الصديق الدكتور الاستاذ مرسى محمود المحامى الخطاب الآتى :

الاسكندريه فى ١٢ يوليو

عزيزى لطفى

سلاماً وشوقاً ، وبعد فقد وزعت لجنة الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده المواضيع على الخطباء وخصتكم بموضوع دقيق ألا وهو التكلم عن الأستاذ الإمام كمصلح للقضاء وهو موضوع يتناول البحث فى المشروعات الإصلاحية كالمحاكم الشرعية وماذا كان يريد بها الفقيد رحمه الله وكيف أنه فى الواقع لامس مسألة من أدق المسائل الحيوية ، ولو تم كل أو أكثر ما فكر فيه لما شكا الناس هذه الشكوى التى نسمعها كل يوم ، واللجنة ترجوك أن تتفضل بالحضور للاسكندرية قبل الاحتفال بيوم أو يومين لتشاركها النظر فيما هولازم ، سيكون الاحتفال بتياترو الحمراء يوم الاثنين ١٧ يوليو سنه ١٩٢٢ الساعة الخامسه مساء وإليك تحيتى وحبى .

وكان مرسح الاحتفال فخماً. وبين أعضاء اللجنة كرسى المغفور له صاحب الدولة محمد سعيد باشا وعرفان باشا وسليمان بك يسرى وكل قضاة البلد الأهليين والشرعيين ومحاميها وأساتذتها وبعض رجال النيابة ٠

وقد حدث فى هذه الحفلة حادث غريب وهو أن إبراهيم الهلباوى بك حاول الخطابة ، فحدث أن فريقاً كبيراً من السيدات عارضن فى ذلك ، ونطقن بعبارات تاريخية وذكرن اسم إحدى قرى الفلاحين إشارة الى بعض الحوادث⁽¹⁾ وعطلن الاحتفال بكل ما فيهن من قوة على الصراخ والصياح « وهى عظيمة » ، وعلى الرغم من قوة إرادة الهلباوى بك وشدة شكيمته غلبه اجتماع الأصوات ٠ ولكن بعض أعضاء اللجنة صمم على أن يخطب الهلباوى وأن يسود السكون ، وعندئذ انضم الرجال الى النساء وعلت أصوات الجميع على أصوات الأمواج وأصبح مسرح الحفل كأنه سوق عظيمه هائجة ٠ وأخيراً وقعت القرعة على شخص معروف أن يخطب ذلك الجمهور الهائج المكون من جنسين ، فتقدم وألقى كلمة وجيزة وأثر فى آذانهم بحجة قوية واستدرجهم بنادرة لطيفة ، وما زال بهم حتى أدخل السرور على أنفسهم فابتسموا ثم ضحكوا ٠٠٠٠٠ ثم تسامحوا ، لأن الضحك ينزع سلاح الغضبان ٠ فرجاهم فى أن يسمحوا للأستاذ الهلباوى بك بالكلام ، فسمحوا وتكلم الرجل ودفع دينه لصديقه ، وأظن أن حضرة صاحب العزة الهلباوى بك يذكر هذة الحادثة وأشخاصها وإن كان قد مضى عليها ثمان سنوات ٠وانتهت الحفلة فى الساعة التاسعة بعدأن دامت أربع ساعات ، وقضيت وقتاً سعيداً فى بيت صديقى سليمان يسرى بك وعدت الى القاهرة فى قطار الصباح بعد أن أديت دينى للأستاذ الراحل ٠

---

(١) يشير لطفى جمعه الى موقف إبراهيم الهلباوى من تمثيل الاتهام فى حادثة دنشواى حتى أن الشيخ عبد العزيز جاويش أطلق عليه وصف « جلاد دنشواى » ، ووجه اليه الشاعر حافظ إبراهيم قصيدته الدالية التى يقول فيها :

أيها المدعى العمومى مهلاً　　بعض هذا فقد بلغت المرادا
إيه يا مدره القضاء ويامن　　ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا　　قد لبسنا على يديك الحدادا

يقال فى الكتب العربية القديمة ، تبعا لحديث محمدى شريف « إن الله يبعث على رأس كل قرن رجلا يجدد حياة هذه الأمة »⁽¹⁾ .

وقد أجمع العلماء والمؤرخون فى كل الأقطار الشرقية أن رجل الإحياء والنهضة فى القرن الرابع عشر الهجرى كان المغفور له محمد عبده بن خير الله المولود فى قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة سنة ١٢٦٥ هجرية والمتوفى برمل الاسكندرية فى يوليو سنة ١٩٠٥ - سنة ١٣٢٣ هجرية .

وقد نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة فى القرى المصرية وتعلم القراءة فى بيت والده ودخل المكتب « كتاب البلدة » ، ولما نما وترعرع قصد بأمر والده الى مدينة طنطا ليدرس العلم فى الجامع الأحمدى الشهير ، ولكنه فر على ظهر جواده إلى بلدة أورين ليلهو بالفروسية واللعب بالسلاح . فحزن والداه لأنهما أراداه على أن يتلقى العلم . فأطاعهما ولوى عنان فرسه نحو القاهرة والأزهر واجتمع للمرة الأولى بالسيد جمال الدين الأفغانى الذى كان له أكبر الأثر فى حياته فى سنة ١٢٨٦ ، بعد التحاقه بالجامعة الأزهرية خمس سنوات ، فلازمه من أول لقاء وأخلص له الحب ، إلى أن فرق الدهر بينهما فى باريس بعد ذلك بعشر سنوات .

واشتغل الأستاذ الإمام يدرس الفلسفة وتعلم اللغة الفرنسية واجتمع بمستر ويلفريد سكاوين بلنت ليعلمه اللغة العربية فأعجب به الأديب الانجليزى ولفت نظره إلى الشئون السياسية .

وحاز الشيخ شهادة العالمية من الدرجة الثانية لأن بعض الممتحنين نفسوا عليه ذكاءه الخارق وحقدوا عليه لاتصاله بالحكيم الأفغانى . فلما نجح بدأ بالتدريس

---

(١) ابتداء من هذه الفقرة نثبت هنا مقال لطفى جمعه الذى نشر بمجلة اللطائف المصورة فى ١٩٤١/٧/١٤ تحت عنوان « الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مؤسس الإصلاح الدينى والاجتماعى والقضائى فى مصر ، بمناسبة انقضاء ست وثلاثين سنة على وفاته » .

والإصلاح فى الأزهر وهو فى ريعان الشباب ، ولما ظهر نبوغه فى حلقات التدريس اختارته نظارة المعارف مدرساً فى بعض مدارس الحكومة ، ثم عينوه فى إدارة المطبوعات وكلفوه بالتحرير فى الجريدة الرسمية فلم يصل الثلاثين من عمره إلا وتقلب فى التعليم طالباً فأستاذاً فطالب فلسفة فسياسيا فمصلحاً فموظفاً فمحرراً فى الجريدة الوحيدة التى كانت تصدرها الحكومة ، يكتب فيها فطاحل الرجال .

وفى سنة ١٨٨٠ ظهرت بوادر الثورة العرابية « وأسبابها المباشرة استدانة مصر المبالغ الطائلة ومسالك بعض حكامها وحلول الفوضى فى الجيش محل النظام ونفوذ الأجانب ووزارة رياض باشا » .

وقد ثبت بأحدث المعلوم والمكتوب من تاريخه أن الأستاذ الإمام لم يكن راضياً كل الرضى عن أعمال العرابيين ، كما جاء على لسان مستر برودلى محامى عرابى فى دفاعه وقد قال هذا المحامى الانجليزى نفسه « إن مصر لاتستغنى عن مثله إذا قدر لها الاستقلال » .

ولكن على الرغم من هذا فقد قبض على الشيخ وسجن وحكم عليه بالنفى فى مصر ، وأثناء سجنه خانه نفر من الذين كان يثق بهم ويظهرون له الصداقة نفاقاً . فانتقل إلى بيروت منفياً . فلم يركن إلى الراحة بل عمل فى تدريس اللغة العربية ببعض مدارس الأجانب وأتقن اللغة الفرنسية وشرح كتابين من أهم الكتب العربية وهما « نهج البلاغة » للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه و« مقامات بديع الزمان الهمذانى » وأشرف على طبعهما ونشرهما .

وكان دائم الاتصال بالأفغانى سواء أكان هذا الحكيم بتركيا أم بالهند أم بأوروبا .

وانتقل الأستاذ الإمام من بيروت إلى باريس فأسس بمعونة السيد الحكيم «جمعية العروة الوثقى» ونشرا معا مجلة بهذا الاسم لم يصدر منها إلا ثمانية أعداد .

وكان فى خدمتهما فى ذلك الوقت رجل إسرائيلى مخلص اسمه يعقوب سنوا (صنوع)(١) صاحب جريدة « أبو نضاره زرقا » السياسية الهزلية .

واهتمت الحكومات بمجلة العروة الوثقى فصادرتها ومنعت دخولها إلى بعض البلاد الشرقية لخطورة المقالات التى كانت تنشر فيها .

وسافر الشيخان الأفغانى ومحمد عبده الى لندن واتصلا برجال السياسة وتوثقت العلاقات بينهما وبين بعض ساسة الانجليز مثل ويلفريد سكاوين بلنت ، وفكرا فى إصلاح الدولة العثمانية فسعى الإمام لإقناع حكومة السلطان عبد الحميد بإصلاح التعليم والتربية بلائحة « مشروع قانون » أرسلها الى شيخ الإسلام فى استامبول بيّن فيها الأخطار على الدول من فساد التربية والتعليم الرسمى وحلول التعليم الاجنبى محله .

وفى نوفمبر سنة ١٨٩٢ أمر الخديو توفيق بمشورة حكومة انجلترا بالعفو عن المتهمين بالثورة العرابية فعاد الشيخ الى مصر فتنكر له فريق من أصدقائه الأقدمين ولم يبق على مودته إلا المرحوم سعد زغلول وإبراهيم اللقانى .

وسعى ليكون معلماً فى دار العلوم فلم يقبل الخديو توفيق سعيه لأن الوشاة مشوا بينهما . فعينته الحكومة المصرية قاضياً فى المحاكم الأهلية وجعلوا مقره محكمة عابدين ، فأظهر نبوغاً كبيراً واستعان بعلمه الفقهى وذكائه الفطرى واللغة التى تعلمها على فهم القانون الفرنسى وصار يحكم باجتهاده أحكاماً موفقة جدا ونفذ أحكامه على الأجانب ولم يعترض عليه أحد واعتنى فى قضائه بالأخلاق وإصلاح ذات البين بين العائلات وتشدد أحياناً فى عقاب الفاجرات من النساء ، وبرع فى تحقيق القضايا وصدقت فراسته فى أمور كثيرة أدهشت القضاة والمتقاضين ، ولما سمع ناظر

---

(١) انظر ترجمة يعقوب صنوع صفحة ٣٧٤ من كتاب .

الحقانية ببعض حوادثه قال « اتقوا فراسة المؤمن » ، ولما اقتنع ولاة الأمور بجدارته وعلو كعبه رقوه الى منصب المستشار بالإستئناف الأعلى ٠

وفى أواخر سنة ١٨٩٤ والشيخ فى أوائل العقد الخامس ، وقد مضى عامان على حكم الخديوى عباس ، وقد رأى الأستاذ الإمام جرأته وجهاده للأخذ بناصية الأمور وإنهاض البلاد ، مال اليه وتقرب منه بواسطة المرحوم محمد ماهر باشا ، فاستقبله عباس بترحاب وعطف وأحبه لما آنسه فيه من صدق الوطنية وأصالة الرأى فاجتمعا مرات عديدة فى قصور الخديو الثلاثة وتحدثا فيما يمكن عمله لخدمة الوطن وتحقيق أمانيه ، فاقترح الشيخ عليه ثلاث طرائق للإصلاح وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ٠

وأشار الأستاذ على الخديو عباس بأن يبدأ بإصلاح الأزهر وقدم الشيخ له مذكرة بما يراه ٠ وفى يناير سنة ١٨٩٥ أمر الخديو بكتابة الأمر الى نوبار باشا بتأليف المجلس الأعلى للأزهر فصدر فى شهر يونيو من تلك السنة ٠

وبعد ذلك بعامين اختاره الأمير لمنصب الإفتاء ، وطلب الأستاذ أن يحتفظ بمركزه فى محكمة الاستئناف ٠ فلم توافق الحكومة بإيعاز من بعض خصومه وحاسديه فدسوا له بأن محافظته على زيه الشرقى وعمامته لا يلتئم والعصر الحديث وإن كان لايقل عن أحد من المستشارين الأجانب الذين اكتظت بهم محكمة الاستئناف من كل جنس وملة ٠

وفى سنة ١٩٠٤ استجدت ظروف سيئة بين الخديو والأستاذ محمد عبده لعبت فيها الدسائس دورها ، وكان لصاحب المؤيد يد قوية فيما حدث من الفتور فى العلاقات فصمم عباس على إقصاء الشيخ عن الأزهر ٠ فجمع العلماء فى قصر عابدين « مارس سنة ١٩٠٤ » فى حفلة ظاهرها الإنعام على الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخ الأزهر بخلعة سنية « كسوة تشريفة » وباطنها التعريض بالمفتى وإرغامه على الاستقالة من

مجلس الأزهر . وألقى الخديو خطبة مشهورة نشرت فى المؤيد ، وجعلها فى إطار مزين بالنقوش ، لإظهار أهميتها ، وإفهام غايتها للعامة . وقد جاء فيها على لسان الأمير «وقد جريت منذ أثنتى عشرة سنة على هذه القاعدة وهى أن أقبل استقالة كل من يستقيلنى من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالة الشيخ البيلاوى « ثم نظر الى الشيخ محمد عبده واسترسل فى خطبته » ومن يستقيلنى من وظيفته سواه ، فأنا مستعد أن أقبل استقالته جرياً على العادة التى اتبعتها فى ذلك »(١) .

وأضاف سموه أنه لايريد فلاسفة فى الأزهر ولايريد شغباً من أى نوع كان «مشيراً الى حادثة رواق المغاربة » وقد أدرك كل من كان سامعاً وشاهداً – والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم – أنه هو المقصود بطلب الاستقالة ، فخرج من القصر وقدم الاستقالة ، وكانت قبل ذلك قضية الزوجية الشهيرة والمصاهرة بين صاحب المؤيد وشيخ السادات . وتفصيل هذه القضية أن الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد عقد زواجه على كريمة المرحوم السيد عبد الخالق السادات فى قصر المرحوم السيد توفيق البكرى زوج شقيقتها بدون إذن والدها ، وأخرجها الى بيته فرفع والدها عليه قضية شرعية طلب فيها فسخ العقد لعدم الكفاءة بين الزوجين فحكم القاضى الشرعى بعد مرافعة الشيخ عثمان القندى عن الوالد ، أولا بالحيلولة بينهما الى أن يتم النظر فى القضية « ولكن هذا الحكم لم ينفذ » وآخراً ببطلان العقد ، فاشتغلت الأمة بهذه القضية التى حكم فيها المرحوم الشيخ محمد أبو خطوة وكان صديقاً حميماً للشيخ محمد عبده وكان الخديو ميالا للشيخ على يوسف لأن جريدته كانت لسان حال سموه فاتهموا المفتى بأنه عون للسادات .

وكانت هذه القضية أيضاً سبباً فى الجفاء بين الخديو ومصطفى كامل وأدت به الى كتابة خطاب التقاطع بينه وبين الأمير(٢) .

---

(١) ، (٢) راجع صفحة ١٩٨ من هذا الكتاب

وحدث أثناء ذلك حادثة رواق المغاربة وهى نزاع بين الطلاب وشيخهم والحكومة المصرية وسفير فرنسا انتهت بذبح شيخ الرواق فى المسجد أثناء صلاة الجمعه بيد أفراد من بنى وطنه ٠

وقد استمع الخديو لأقوال الوشاة والدسّاسين من أن إصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة فيه أدى الى الشغب والفوضى ولكن العامل الأول كان قضية الزوجية ٠

فلما استقال الشيخ محمد عبده من مجلس الأزهر الأعلى اضطربت عقول المسلمين فى سائر بقاع الأرض ووجمت نفوسهم لهذا النبأ فى كل قطر ووردت احتجاجات من السودان وسوريا وبلاد المغرب والمشرق ، وكتب علماء فارس وأمراء الهند ولاسيما الكاتب الأشهر النواب محسن الملك عميد جامعة عليكرة ٠

ولكن هذه الاستقالة لم تزد الشيخ إلا سمواً واحتراماً فى نظر الأمة لوقوفهم على الحقيقة ٠ وكان المفتى قد أصدر بعض الفتاوى توافق الشريعة وروح العصر الحديث كإباحة لبس القبعة فى بلاد الترنسفال للمسلم وأكل ذبائح غير المسلمين للضرورة ، وكلها مؤيدة بكتب الفقه ، ولكن خصومه زعموا أنه أباح ماحرم الله كذباً وبهتاناً ، ومنها أن المفتى أراد أن يتم منهاج الإصلاح الذى اتفق عليه والخديو فى الأوقاف والمحاكم الشرعية ٠ فتم إصلاح المحاكم الشرعية وتعطل إصلاح الأوقاف لأسباب كثيرة لايتسع المقام لتفصيلها ، ولكن المفتى رحمه الله كان متشدداً فى هذه الناحية ، ويروى ثقة أن المرحوم خليل باشا حماده « وكان صهر المفتى » وقد تولى إدارة الأوقاف العامة فى مصر ثم وزارة الأوقاف فى الأستانه ، دعا الشيخ الى العشاء عنده وقال له على المائدة « ياسيدى الأستاذ أبوس إيدك والله إن إطلاق الحرية لك فى إصلاح الأزهر خير لك وللإسلام والمسلمين فى الدنيا والآخرة من كل ماتوفره من مال الأوقاف لديوانها » فقال الشيخ : « أنا أعلم هذا ولكن وجدانى ومراقبتى لله تعالى لاتمكننى من إقرار مالا يبيحه الشرع والباطل لايكون وسيلة الى الحق » ٠

ويروى بعض مؤرخى الشيخ وتلاميذه أنه كان ضعيفاً فى هذه الناحية ، فالمصالح العامة تبنى على قاعدة ارتكاب أخف الضررين وتقديم أرجح المصلحتين . ويتفق هذا مع مذهب الإمام مالك رحمه الله الذى نشأ الأستاذ عليه . هذا هو السبب الأول وعلة العلل لتحول قلب رجل عظيم عن هذا المفتى المصلح الذى كان يجب أن يجعله عمدته فيما يصلح شعبه وبلاده . ولما تنكر قلبه تجددت عنده أسباب أخرى للكراهية تنحصر فى ثلاثة :

الأول – ماكان يراه من عزة نفس المفتى على ضد مايراه من غيره من الذلة له ، بل لم يكن يرى من الأمراء ولا من الوزراء مايراه من المفتى من الشمم والإباء ، وكانت آداب الشيخ مع « الرجل العظيم » تحجب عنه كبر نفسه فى طور رضائه عنه ، فلما سخط عليه صار يراه بمنظار أسود مكبر حتى صار يقول « إنه يدخل علىّ كأنه فرعون » ولما بلغ الشيخ هذا القول من أحد أصدقائه قال « جزاه الله .... أنا لست فرعوناً بل أحد الرعية » .

الثانى – اتهام بعض الوشاة النمامين للشيخ بأنه غير مخلص «للرجل العظيم» ولا راض عنه وأنه يعاكسه ويقاومه .

الثالث – ماكان من حسن العلاقة بين الشيخ ولورد كرومر ، فقد كان اللورد يجله ويقدره ويستشيره فى بعض المسائل الحكومية المهمة ويتحاشى أن يهيج وجدانه ، ووجدان حزبه الراقى . وكان الأستاذ يداريه لعلمه بأنه لايستطيع البقاء فى مصر بدون هذه المداراة . وكان المفسدون والنمامون يتهمون الشيخ فى إخلاصه لوطنه مع أن حاكم البلاد فى ذلك الوقت الخديو عباس لم يكن يشك فى وطنية الأستاذ الامام محمد عبده ولايرتاب فى ترفع فضيلته عن التقرب الى اللورد بمساعته ، فإن لم يكن هذا الترفع للإخلاص لأميره فهو لكرامة نفسه وإبائها .

كان المفتى يشغل منصب الإفتاء منذ منتصف سنة ١٨٩٩ وكان الأمير هو الذى اختاره لذلك عقب حادثة قاضى مصر وفصل الشيخ النواوى من الإفتاء ومشيخة الأزهر . وقال الأمير لمستشار الحقانية « الآن أوجدت لك مفتياً تستطيع أن تفهم منه ويفهم منك بلا واسطة ولا ترجمة » ، وقد هيأت له هذه الوظيفة إصلاح المحاكم الشرعية فصار زعيم الإصلاح الدينى والقضائى فى مصر كما صار زعيم الاصلاح الاجتماعى.

وكان الاستاذ على كثرة أعماله وامتلاء وقته بالواجبات ، يلقى دروساً فى التفسير ، فى الأزهر الشريف بالرواق العباسى صارت مع الزمن دروساً دولية يحضرها العلماء من كل جنس وملة كالمستشرقين الأوربيين من ألمان وإنجليز وفرنسيين وغيرهم .

وكان يكتب مقالات فى مجلة المنار لصاحبها المرحوم السيد محمد رشيد رضا . كما أسس بعد عودته من المنفى الجمعية الخيرية الإسلامية واتخذ لها مركزاً فى « قبة الغورى » وشجع الأدب والأدباء . فكان شاعره المختار المرحوم محمد حافظ إبراهيم بك الذى أهدى اليه ترجمته لكتاب البؤساء ورثاه بعد وفاته بقصيدة عامرة أولها :

سلام على الاسلام بعد محمد   سلام على أيامه النضرات

وترجم كتاب سبنسر فى التربية ورد على هانوتو بالعربية والفرنسية وأفحم مجلة الجامعة فى بحثها عن الفلسفة فى الإسلام ، واتصل به كبار رجال الدين الذين حاولوا توحيد العقائد أمثال لوازون الفرنسى واسحق طيلر الانجليزى وخريستوف جباره السورى ، وسافر الى أوروبا مراراً وقابل البابا ليون الثالث عشر برومه وإلى تونس والجزائر . واجتمع بالفيلسوف سبنسر . ومن أقواله فى هذا « إن الحق عند أهل أوربا للقوة ولا قيمة له بذاته وإن الأفكار المادية محقت الفضيلة وأنه لا علاج لأوروبا إلا بالتدين » .

ومرض الشيخ بالسرطان فى الكبد وعانى آلاما شديدة ، وكان يقصد السفر الى أوربا فى يونيو سنة ١٩٠٥ ولكن منيته وافته فى بيت صهره بالرمل فنقل الى القاهرة ودفن بالمجاورين وحزن عليه كل إنسان عرفه وسمع عنه أو قرأ كتبه ودروسه ، وأقيمت فى عرض البلاد وطولها حفلات التأبين وألفت عليه الكتب العربية والأفرنجية ونقلت بعض مؤلفاته الى اللغة الفرنسية ولاسيما رسالة التوحيد . وكتب عنه فى دائرة المعارف الاسلامية بكل الألسنة وشهد فى حقه أصدق الشهادات وأشرفها لورد كرومر - إدوارد براون - مختار باشا الغازى - عبد الله جودت الكاتب التركى - ذكاء الملك الإيرانى - طاهر بن عاشور المفتى التونسى - الأستاذ الكواكبى - الزهراوى - كرد على - الكاظمى - جورج زيدان - رياض باشا - اليازجى - سعد زغلول - فتحى زغلول - قاسم أمين - الأميرة نازلى - على يوسف - أسرة عبد الرازق - حسن عاصم باشا .... إلخ .

واحتفل أول مرة فى سنة ١٩١٧ بالجامعة المصرية بمرور اثنتى عشرة سنة على وفاته وأقيم له حفلة فى الإسكندرية فى السنة نفسها ، وقد مضى الآن ست وثلاثون يزداد فضله أثناءها انتشاراً ويعلو فيها اسمه اشتهاراً وتجمع العامة والخاصة على تعظيمه وتقديره وتعترف بأنه المقصود بالحديث الشريف وهو أن الله يبعث على رأس مائة كل سنة رجلا يصلح من أمر هذه الأمة . رحمه الله رحمة واسعة .

محمد على وهبة بحراوى

أحد أهل بحرا قرية بين جدة ومكة وكان موظفاً بجمرك جدة واتخذه الملك حسين أميناً على أمواله ، ونزح الى السويس وقيل إنه مولود بها وهاجر الى الحجاز ثم عاد منه الى السويس بثروة طائلة وأسس وبنى واشترى واستحدث بيوتاً ومتاجر ومخازن وتعاطى التجارة فى دكان له ليشغل نفسه بالبيع والشراء وإن لم تكن به حاجة اليه . وقد عرفته سنة ١٩٣٠ فى قضية جنائية كبيرة وطال أمدها وانتهت لصالحه . وهو رجل يتكلم بلهجة أهل الحجاز ويطيل تدخين النارجيلة شديد الحرص على ماله كمن تعب فى تحصيله ، ولندرة المشاهير فى السويس تراه فى مقدمة المعروفين فى البلد ، ويتبرأ من الفعل ثم يفعله ويبدو حسن النية وهو شديد المكر ولا يهمه إلا نفسه .

وقد عرفتُ أثناء اتصالى به رجلاً فاضلاً هو الشيخ إسماعيل الباز أحد أولياء السويس تمت على يده كرامات يعرفها ذووها ممن رأوها وهو مقصود بالتحية والإكرام والمطالب من كل فج حتى الأجانب والروم يحيونه ويرجونه فى أمور ، وقد كتبت عنه فى أوراق مبعثرة كثيراً من أخباره . وهو يملك أرضاً وبيتاً فى السويس وكان يتجر فى الحليب وفى عربات الركوب وعلف الخيل وله أولاد وكان فى أول أمره حداداً ثم جعل لنفسه مطعماً فى القاهرة أثناء الحرب الكبرى الأولى ثم استقر فى وطنه، وكان البحراوى أثناء قضيته يلازمه ويلتمس بركته ويدعوه الى داره ويجلس إليه فى كل يوم وليلة . فلما قضى له وربح تنحى عن مودته وتخلى عن صحبته فدل بذلك على حقيقة خلقه ، فإنه لم يستبق المحبة التى أسسها على مصلحته حتى قضيت عاد الى ماكان عليه من منافرة الخلق وفى مقدمتهم شيخه الذى كان يقبل يده صباح مساء

ولا يتذوق طعاماً إلا بصحبته ، وللشيخ إسماعيل عندى مكانة رفيعة ومحبة عميقة واحترام وتقدير فقد رأيت من إخلاصه وصدقه ورجولته ماحببه الىّ .

وللبحراوى جانب مشرق ولكنه ليس فى السويس ولكنه فى جدة وهو ابنه وهبة البحراوى الذى ورد اسمه فى القضية كثيراً « حكم فيها فى سنة ١٩٣٤ » ، والذى رأيته أثناء عودتى من الحج سنة ١٩٤١ « ١٣٥٩ هجرية » فقد انتهز فرصة مرورى بجدة واحتفى بى وخاطبنى كأنه يعرفنى معرفة قديمة وجدد شكره لى على ماكان منى فى قضية والده ، فأخبرته أنه كان سبباً فى نجاته بخطابه الذى حرره الى أحد الشركاء .

ووهبة يختلف عن أبيه صحة ومظهراً وخلقاً فهو لين العريكة طيب الأخلاق صادق الود وفىّ لأهله وأصحابه وهو لحسن نيته يظن أن أباه بعد قضيته لاينقطع عن زيارتى أو السؤال عنى لأنه كان المتهم الوحيد الذى نجا من الأحكام الشديدة التى وقعت على بقية المتهمين وعددهم تسعة ، فكان خليقاً به أن يعرف لى هذه المكرمة وأن يواظب على مودتى فقلت له « لو هبة » نعم إنه مواظب « جبراً لخاطره » وأنه لايزور القاهرة دون أن يزورنى ويسأل عنى عدا عن كتبه ورسائله ، وخجلت أن أخبره أننى لم أر وجه أبيه منذ الحكم ببراءته ، لأن الولد لا ذنب له وهو وإن يكن مظلوماً بعد وفاة أمه وتيتمه وتأهل أبيه بأخرى ، إلا أنه كثير الاحترام له ولعل من دواعى هذا الاحترام بعد المسافة بينهما بعداً يمنع الاحتكاك ، ولم يرزق الوالد غير هذا الابن النجيب ، ولكن وهبة مرزوق طائفة من الأولاد والبنات كالأقمار عجبت للجد كيف يطيق البعد عنهم وقد رآهم فى أسفاره الى الحجاز ذاهباً الى جدة وعائداً منه ، فكيف لم يتعلق قلبه بهم أو بأحدهم ولم يتفرغ من عمره عاماً لإتقان ذلك الفن الذى ذكره فكتور هيجو فن الجدودة l'art d'etre grand pére وأحياه فى الشرق أحمد شوقى ، وقد سألت الأطفال فى جدة « أتحبون جدكم » فقالوا نعم ونحب أن نراه ونحبّ أن نذهب الى

السويس ، وأحببت أن أنقل هذه الصورة الجميلة الى ذهن محمد على وهبة بحراوى عند عودتى فلم ينتظرنى على الباخرة كما وعد فكتبت إليه ولم يصلنى منه رد ، كتبت لأشكر ابنه فى شخصه وكان نجله طلب الىّ أن أبلغه رسالة أو رسالتين ٠ ولو أن هذا الشخص ترك للأقدار فى قضيته لحدث له مالا تحمد عاقبته ٠

نعم إن أعمال المحامى والطبيب والمعلم مأجورة ، ولكن شتان بين من يقوم بعمل مأجور لأنه مأجور لايبالى بنتيجته وبين من يبذل جهوداً ليحصل على ثمرة حلوة وغاية نبيلة ، ولكن فى مصر يقولون « كله عند العرب صابون» ، ولا تظن أن واحداً من هؤلاء يرد لك جميلا أو يذكر لك جميلا أو يقابلك بمثل فعلك فى الخير ، كما هى طبيعة البشر فى انتظار الإثابة ٠ ولكننى وطدت نفسى من قديم على احتقار الجزاء أو الشكر ولو باللسان لعلمى أنه ضد طبيعة الإنسان ٠ وأنهم أثناء حاجتهم إليك لو شئت لاشتريتهم وبعتهم رقيقاً حتى إذا بلغوا مآربهم هيهات أن يبذلوا لك التحية ، وهذا وإن يكن مأثوراً عن بنى آدم عامة وعن الشرق أيضاً إلا أنه أظهر مايكون فى مصر وبين المسلمين ، فإن المعاملات تنقلب هاهنا مغامرات وأحابيل ومحايلات ولصوصية وأطماع وليس المدهش أن الأمر كذلك ولكن المدهش أن الأمور تظهر بمظهر السير بانتظام كأننا فى مدينة فاضلة أو عادلة مع أننا فى مدينة خاطئة فاسقة جاهلة خائنة ينتهز أشرارها الفرص لاغتيال حقوق الأخيار والانتقام منهم والوقيعة بهم فلا حول ولا قوة إلا بالله ٠

محمد ماضى أبو العزايم

شيخ طريقة صوفية معروفة باسمه توفى فى آخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى بالقاهرة وقد رأيته بضع مرات قبل وفاته ، كان رجلاً طويل القامة ضخم الجسم أبيض اللون أبيض الشعر فى الرأس واللحية ، فصيح اللسان جداً شديد الذكاء وكان يقيم ببيت يملكه فى سكة مسكة أو زقاق مسكة بجوار درب الجماميز .

عرفت أخباره من والدى وبعض أقاربى ومن رجال عاشروه وأول حاله أنه كان مدرساً للغة العربية بالسودان ثم أسس هذه الطريقة وأطلق عليها اسمه ، وقد ألف كتباً كثيرة فى التصوف أهدى الىّ معظمها ، وكان ينشىء مجلة باسم المدينة المنورة قرأت معظم أعدادها . واتخذ من بيته مقراً لطريقته فكان يرد عليه أتباعه ومريدوه بالهدايا والتحف والنذور والمال الكثير من سائر أنحاء القطر المصرى ، وكان له دعاة يرسلهم فى المديريات يجمعون له « العادة » وهى نذور من الحبوب والنقود ويسافر بنفسه وحاشيته ويقيم أشهراً وأسابيع فى القرى فيكون موضع الضيافة والإكرام ممن ينزل ببلادهم .

ورأيت بعض أتباعه يقبّلون قدمه وبعضهم يدلّك أعضاء بدنه وهو شديد الحفظ قوى الذاكرة فيتكلم بفصاحة وسرعة ويرتجل الخطب البليغة المنمقة المرصعة بآيات القرآن والأحاديث والشعر الصوفى . وكان فى حلقات الذكر يرتجل الشعر للسماع، وكان كاتب يده وأمين سره الشيخ مفتاح وهو رجل صالح جداً يكاد يعبده ويجلس نهارا وليلا تحت أقدامه ويدون فى كناشات أقواله المنثورة والمنظومة ووحى الخاطر والقصائد المرتجلة ثم يجمع هذه المقولات وتطبع فى المجلة أو فى كتب على حدتها فى

مطبعة المدينة المنورة الملحقة بمنزله ، وقد تخرج من بيته المدعو عبد الظاهر السمالوطى الذى صار أشهر شاهد ملك فى القضايا السياسية فى سنة ١٩١٩ و ١٩٢٠ ولقى كثيرون من الشبان حتفهم بشهادة السمالوطى هذا الذى اختفى بعد ذلك وقيل إنه نزح الى السودان لينجو بجلده من انتقام الأبرياء وقيل إنه تعين فى وظيفة حكومية مكافأةً له على شهاداته التى أوقع فيها بالكثيرين ٠

وكان الشيخ بجانب تصوفه يشتغل بالأمور العامه والسياسية ، ولذا كان بيته يعج أثناء الحركات الوطنية بالجواسيس ٠ وله مكاتبات مع ملوك العرب على طريقة الشيخ رشيد رضا وأظهر اهتماماً بمسألة الخلافة دون أن يعرف حقيقة كنهها ولكنه كان يستمد نفوذاً من الاشتغال بها ٠

أما علاقته بالحكومة المصرية فكانت مبهمة ولكن له أولاداً يزيدون على الستة يطلقون أقدامهم فى الدواوين ويتصلون بالوزراء ويقضون المصالح باسم الشيخ ولا سيما فى وزارة الأوقاف ويهتمون بتأليف الوزارات الجديدة ويفرحون كلما جاء فى بعض مناصب الحكم رجال مشهورون بالميول الإسلامية ٠ وبعضهم يمارس التجارة وقد خلفه على طريقته ابنه أحمد وكان يلبس ثياب الأفندية ثم خلعها ولبس ثياب المشيخة بعد وفاة أبيه ٠

وقد روى لى بعض من أثق به عن كرامات تتم على يد الشيخ وخصوصاً فى عقوبة النساء والرجال الذين يرتابون فى أمره كأن يسقطون من حالق ، ويأتى المريد الذى له قريب أو صديق أصيب بحادث ويحكى فى مجلس الشيخ أن الله انتقم من قريبه لأنه نهاه عن الشيخ ثم يروى آخرون مثل قصته كنوع من الدعاية والشيخ يبش لهم ويفرح بأخبارهم ٠

ونظر مرة الى القاعة الكبرى التى فيها مجلسه أو عرشه وكان بها ثلاثة أو أربعة أشخاص وقال كان يجلس ها هنا مئتا شخص قبل مرضى ٠ وبيان ذلك أنه حوالى

سنة ١٩٢٦ أو ١٩٢٧ أصيب بفالج ولكنه عولج علاجاً حسناً واتبع أوامر الأطباء بدقة وكان فى بداية مرضه ينزل الى الحلقة ثم اعتكف بأعلى الدار ٠

وكانت له زوجة صبّية رزقت منه أطفالاً صغاراً يداعبهم أثناء مرضه ويطعمهم بيده على مائدته التى تجمع أصناف الخضر والفاكهة منذ حرمت عليه اللحوم بسبب مرضه ٠ ولكنه كان واعياً يقظاً يخطب وينظم الشعر ويملى الحكم على خادمه المطيع الشيخ مفتاح ٠

وكان ذا فراسة فى الأشخاص مستقاة من الكتب ٠ وأهم أتباعه محمد عبد ربه أحد المقاولين بالإسكندرية أعد له بيتاً فى سيدى جابر برمل الاسكندرية يصطاف فيه كل عام الى أن أفسدت بينهما امرأة كانت معلمة فى مدارس البنات بالإسكندرية جمع الشيخ بينهما فى الحلال وعقد لهما وهو يعلم أن عبد ربه متزوج وله أولاد وزوجته الأولى على قيد الحياة ، فلما نزعت هذه الزوجة ملك زوجها حرمت على الشيخ النزول بالبيت بسيدى جابر وامتنعت عن الشيخ هدايا عبد ربه لارتباك أحواله الذى نشأ من استيلاء الزوجة المعلمة على ثروته ٠ وفترت العلاقات بين الشيخ ومريده ٠

وكان يحيى ليلة الإسراء بخطب طويلة وسهرات وولائم الى ماقبل وفاته بقليل وقبلت الحكومة بعد وفاته أن يدفن فى بيته وجعل له ضريح ووافقت الحكومة على إحياء مولد له ثلاثة أيام فى آخر رجب وآخرها فى سنة ١٩٦١(١) بشرط الاكتفاء بإحياء الشعائر فى المسجد الملحق بالمقبرة ، وكان له أخ « توفى قبله » اسمه محمود أبو العزائم خرج عليه فى حياته واتخذ طريقة جديدة ذكر لى الشيخ محمد أن فيها إباحية وإلحاداً وانتقد أخاه انتقاداً مراً ودعا عليه كان الأخ يقيم فى إحدى مدن الصعيد وله أتباع كثيرون ولا أعلم من أمره أكثر مما رواه لى أخوه الأكبر، غير أنه فى سنة ١٩٣٤

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها سنة ١٣٦١ هـ ٠

حضر إليَّ جماعة قالوا إنهم من أتباع محمود ماضى أبو العزائم جاءوا القاهرة خصيصاً ليسألونى عن مؤلفات الحلاج بمناسبة كتابتى عنه فى فصول متتابعة بعنوان « التصوف المصرى الحديث » بجريدة البلاغ ، وفهمت من حديثهم ورسالتهم أن شيخهم لم يسمع قبل الآن بهذا الولى العظيم « الحلاج » فدللتهم على المطبوع من كتب الحلاج كالطواسين وبعض المراجع الأخرى .

وقال لى الشيخ محمد أبو العزائم مرة : لك عندى أمانة ولكن كيف أقدمها لك أو أوصى لك بها مادمت لم تكسنى ثوباً من الشاهى أو قفطاناً من القطن ، وكان أحد أقاربى يعتقد به اعتقاداً ثم عاد فانقلب عليه وقد حققت هذه المسألة أن أصل النزاع بينهما أمور دنيوية أهمها سعى الشيخ فى زواج محمد عبد ربه ألصق أتباعه من المعلمة أو ناظرة المدرسة الدمياطية وقد عاد هذا الزواج بضرر بليغ علي الزوجة القديمة وأولادها من عبد ربه وهى تمت الى قريبى بصلة الرحم فغاظه هذا الأمر وانقلب على الشيخ وصار ينال منه بعد أن كان يقدسه ويبكى فى حضرته ، ولابد أنه قبَّل أقدامه مرات عدة .

وقد حققت مسألة الزواج فعلمت أن للشيخ اليد الطولى فى تمامه ، وكان يأمره بأن يصحبها فى سيارته ليوصلها الى منزلها ثم قال له فى إحدى الليالى « خذ زوجتك وقم » ولم أعرف ماهية العقد الذي تم على يديه إن كان فى داره فى هذه الليلة أو قبلها .

وله تدخل فى بعض أمور النساء ، من ذلك أنه لما أراد الحج واصطحب كاتب يده الشيخ مفتاح أمره بطلاق زوجته المرزوقة منه أولاداً فعارض مفتاح أولاً ثم أطاع وطلق ، ولما عاد من الحجاز رد زوجته الى عصمته . ولعل الشيخ أراد امتحانه بهذه المسألة لأن مفتاحا لم يعصه فيها . ولكن بعد وفاة الشيخ وتقسيم التركة وتنظيم أحوال الأرملة الفتية وشراء عقار لها بنصيبها ونصيب أولادها تنمر أولاد الشيخ

لمفتاح وطالبوه بمؤلفات والدهم واتهموه بإخفائها ، حتى كان يخرج ويترك زوجته وأولاده ويسافر الى الصعيد ويقيم أشهراً طويلة . فكان مظلوماً محسوراً .

وكان الأثر الذى تركته مقابلة الشيخ لايشعرنى بتصديقه فى أكثر من أنه رجل ذكى عالم ، وقد حاول تفسير القرآن فى مجلته تفسيراً عادياً منقولاً من التفاسير القديمة ولكن أولاده وأتباعه طنطنوا به طنطنة كبيرة ، ومات الشيخ دون أن يتمه . وكذلك كان يشرح الأحاديث وكانت له نزاعات طويلة على البيت الكبير الذى سكنه ثم امتلكه ، فإنه دخله مستأجراً من مالكيه من عائلة الفريق ثم وضع يده عليه وانتهى بشرائه بطريقة مبهمة وهو ذو مساحة واسعة ولكنه متهدم .

وكان من عادته أن يستهوى الأشخاص الذين يتوسم فيهم النجابة أو الشهرة ويبذل جهداً كبيراً فى استمالتهم اليه ليعترفوا به أو يقبلوا يده ويتخذ لكل واحد منهم الخطة التى تؤدى الى استمالته كبذل المنافع والاشادة بالذكر ، وحسن اللقاء أو اطلاعهم على بعض مايظنونه أسراراً أو دعوات .... إلخ .

وعدتُه مريضاً ورأيته يتيمَّم وقت الصلاة ويؤدى الفريضة جالساً ، وكان أسلوبه فى كتابته عادياً فيه بعض الإبهام وله كتاب حسن فى وصف شعائر الحج قد أغرب فيه وأطنب وأبهم أموراً من شأنها الوضوح والجلاء فذهب ببهجة الموضوع وخلط بين الشرع والتصوف خلطاً شديداً . ولم أحضر وفاته ولا دفنه .

وكان له سائق سيارة رومى الأصل وأسلم من الفقر أو التقوى فأطلق عليه اسم صهيب كالصحابى الذي كان يحمل هذا الاسم فى صدر الإسلام وقد غاظنى ذلك لأن فيه تشبهاً بالرسول وليس هو كالرسول وليس السائق الرومى كصهيب .

وكان كثير الشكوى من أولاده شديد الأسف من مخالفتهم وكلهم متزوجون وكل منهم ينفق مايصل الى يده فى مصلحة زوجته وأولاده وكل منهم يعنى بأمره الخاص ولايلتفت الى مصلحة الجماعة أى الشيخ وأسرته الجديدة والأتباع المقيمين فى المنزل

بعائلاتهم كالشيخ مفتاح وصهيب ، وتشتد هذه التهمة بالعقوق كلما أنس من الضيف احتراماً له أو تقديراً . وكل أولاده أقوياء فحول فى مقتبل العمر مندفعون يستمدون سلطة دينية من أبيهم لجلب المنافع لأنفسهم .

وعلى كل حال فطريقة آل العزائم طريقة فيها حب الدنيا وتبادل المنفعه وتمجيد الشيخ والخضوع له الى درجة العبادة ومنها تقبيل أقدام الشيخ وطاعته طاعة مطلقة وقد ماتت الطريقة فى حياة مؤسسها وتفرعت عنها حركة مذمومة وهى حركة أخيه المخالف له محمود ماضى أبو العزائم .

وعلى الرغم من شهرته المستفيضة فى السودان والصعيد والقاهرة والاسكندرية وكثرة كتبه ومجلاته وخطبه وقصائده وخواطره التى سلخ مفتاح حياته فى تسويدها وتبييضها ، لم يستطع الشيخ أن ينفخ فى أتباعه روحاً معنوية أو دينية تمكنهم من الاستمرار بعد موته أو تمنعهم عن التخلى عنه فى حياته ، ولم يبث فيهم مبادىء دينية ولا اجتماعية تجعل منهم هيأة تكون أهلا للبقاء والاستمرار ، ولم يخرج تلميذاً واحداً نابغاً أو خليفة يحمل أعباء الطريقة بعده . وكان الكل فى الكل أثناء حياته فى صحته ومرضه وقد تركزت فيه السلطة والنفوذ ، ولم يعين بعده خليفة ولو أرادوا الحق لاختاروا الشيخ مفتاح لأنه كان أكثرهم صحبة له ، ولكن ابنه أحمد وثب عليها ولم يفلح فى شىء أبعد من لبس العمامة والقفطان بعد السترة والسراويلات والطربوش وصادف أول أمره تعيين أحمد مراد البكرى خليفة لأبيه فتقرب اليه أبو العزائم الثانى وأقام له الحفلات والولائم وكان يخاطبه بالانجليزية ، زيادة فى الاتصال به ، ثم انشق عليه مع عشرة مشايخ طرق من أنحاء القطر ، فأصدر البكرى الجديد أمراً صوفياً بعزلهم جميعاً وحرمانهم من حقوق المشيخة ، وهكذا تطورت المسألة الى صورة هزلية توافق العصر الحديث ، وقد قيل لى إن الشيخ محمد ماضى لم يتصل طول حياته بالمرحوم عبدالحميد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفيه لا استصغاراً لشأنه ولكن اعتزازاً

بمكانته فى العواصم والريف ولاسيما الاسكندرية عندما كان يصطاف اصطياف الأمراء فى بيت مريده محمد عبد ربه ٠ وقد توفى فى الثمانين من عمره ولابد أنه ولد فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى ١٢٧٠ - ١٣٥٠ رحمه الله وغفر له ٠

من أفضل كتبه - ولعله أفضلها - كتاب النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين ألفه فى زمان شبابه ونشره سنة ١٣٣٢هـ بمصر فى أكثر من مائتى صفحة وقال فيه إن غرضه إرشاد المؤمنين الى طريق النجاة وهى الاقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام وأن نيل السعادتين « فى الدنيا والآخرة » لايكون إلا بالإسلام ، وأوصى فيه باليقظة من الغفلة وبالوفاء والصبر ونصح المسلم بالتفكير فيما يحيط به فى قالب قصيدة من القصائد التى كان يرتجلها فى تجلى السهرات ويمليه على الشيخ مفتاح ، وباح فيها ببعض الأسرار الصوفية ومنه التفكر فى النفس وأفعالها وتأثيرها ، وبعد أن تكلم فى الرسول عليه الصلاة والسلام انتقل الى الإمام العادل ووجوب طاعته ٠ ويظهر لنا أن هذا الكتاب من تأليفه أراد أن يودعه آراءه فى الدين والدنيا ولكن تفكيره وخطته بدائية ينطبقان على حالة أتباعه وبيئة الدراويش الذين ألفه لهم ، ولكن اجتهاده ملحوظ فيه ورغبته فى أن يكون كتاباً متداولاً بأيدى الكافة لا مقصوراً على تلاميذه ٠

وكانت سنة ١٣٣٢هـ ٠ توافق سنة ١٩١٤م التى أعلنت فيها الحرب وكان الشيخ فى ذلك العهد مقصودا من عدد كبير من الأعيان والخاصة من قرى الصعيد والوجه البحرى ومجالسهُ آهلة بالذاكرين والمنتفعين والمتبركين من كل فج فكانت فترة عصره الذهبى وقد استمرت هذه الفترة نحواً من عشر سنوات فترت بعدها شهرة الشيخ لسببين الأول ، ظهور بعض الجواسيس فى حاشيته أمثال عبد الظاهر السمالوطى وكانت له شهرة فظيعة فى القضايا السياسية العسكرية وظهر أن الشيخ

لايتحرى فى اختيار أتباعه حتى رمى الشبان بهذا الفحل الصعيدى الذى لا ضمير له ولا شرف ، فشهد الزور فى المحاكم شهادات أدت الى ضياع أعمار عدد كبير من الشبان . والأمر الثانى انشقاق أخيه المرحوم الشيخ محمود أبو العزائم وظهوره فى أحد بلدان الصعيد بمذهب لايقره الشيخ ولا يوافق عليه فكان ذلك سبباً فى غضبه وحزنه ، وبمناسبة ذكر هذا الأخ الذى كان طالحاً فى نظر أخيه الشيخ الكبير نذكر أخاً آخر صالحاً هو أصل ظهور هذه الأسرة وواضع أساس شهرتها ومنشىء كيانها وهو المرحوم الشيخ أحمد ماضى أبو العزم (كذا) ويظهر أن هذا أصل هذه الكنية قبل أن يجعلها الشيخ محمد بصيغة الجمع فيصير أبا العزائم .

وهذا الرجل الفاضل السيد أحمد أبو العزم الموصوف فى كتابه الذى نشر بعد وفاته بأنه « شيخ الصحافيين والعالم الكاتب الصحافى الشهير» كان فعلا شيخ صحافة عصره لأنه ورَّث الشيخ على يوسف هذه الصناعة وشاركه فى نشر جريدة الآداب التى صارت بعد ذلك جريدة المؤيد الشهيرة . وكانت إدارة الجريدتين فى نفس البناء الذى صار « دار المؤيد » بعد ذلك بعشر سنوات .

ولكن اتجاه السيد أحمد أبو العزم كان دينياً وأدبياً ، فألف قبل موته كتاب وسائل إظهار الحق الذى نشره فى سنة ١٣٣٢هـ شقيقه محمود أبو العزائم الذى خرج بعد ذلك على أخيه وهو فى مقدمته يقول « يقول المسكين محمود أبو العزائم أن سيدى ومرشدى شقيقى السيد محمد ماضى أبو العزائم أشار علىّ هو وأخوه السيد محمود أحمد بطبع تلك الرسالة التى تركها السيد أحمد وديوان شعر وبعض سوانح أدبية» ، ولم يشر بكلمة الى تاريخ أخيه المتوفى الصحافى وترك هذا البيان للمؤلف المتوفى نفسه الذى قال « دعانى الشوق الى تعليم لغات أجنبية (كذا) حتى اشتغلت بالسياسة وأسست وصديقى الشيخ على يوسف جريدة المؤيد وتحملت أهم أعمالها فكنت مديراً ومحرراً لها فى زمن كان الوطن العزيز .... إلخ » ، وقد توفى الشيخ على يوسف قبل

نشر هذا الكتاب بعام « أكتوبر سنة ١٩١٣ » .

أما كتاب إظهار وسائل الحق فهو نقض للديانة المسيحية وتقليل من قدر الحضارة الحديثة وتمجيد للاسلام وفيه تعرض لأمور لايعرفها المؤلف كدعوى « أخذ القانون الرومانى من أحكام الإسلام » وهذه دعوى باهتة لأن روما تأسست سنة ٥٣ ق.م وعاشت قبل الإسلام أربعة عشر قرنا ، ولما ظهر الإسلام كان نذير زوالها وهلاك دولتها بعد أن ملكت العالم ، ولايعقل بالبديهة أن دولة كهذه انتظرت هذه المدة لتأخذ قانونها من دولة جديدة ، هذا بالبديهة لمن يعلم تواريخ السنين ، فأما الذى يعلم علم التاريخ وتاريخ الرومان ونشوء قوانينهم يضرب بهذا القول عرض الحائط ولايراه معظما لشأن الإسلام فى شىء . فكان تعلم اللغات الأجنبية والاشتغال بالسياسة والإدارة والصحافة لم يغن الشيخ رحمه الله شيئاً .

وأعجب من هذه الدعوى معالجتها فإن المؤلف اكتفى فى بيانها بسطرين قال ص ٩١ «إن الرومان ترجموا تلك القوانين (؟؟؟) من كتب مذهب الإمام مالك ولما خافوا أن تأبى الأمة الرومانية قبوله قالوا إنه قانون قديم للرومان فقبله القوم » رحمه الله وغفر له.

فأية فكرة كانت لديه عن رومه ونظمها السياسية ومجلس شيوخها وآراء علمائها وبحوث مخترعيها - وهو لو عرف شيئاً من ذلك لعرف أن دول العالم انتحلت القانون الرومانى وجعلته قانونها . وكل الذين قرأوا كتابى إهرنج وممسن الألمانيين فى تاريخ رومه وتشريعها يتحسرون على تورط أمثال هذا الرجل الطيب فيما لا علم له به .

وعلى كل حال فنحن نعتبره مجتهداً فى دينه ووطنيته وعلمه وأدبه وللمجتهد إن أخطأ أجر لايفوته . ولا نعد هذا عيباً عليه فقد نشأ نشأة أزهرية منذ ستين عاماً ولم تكن العلوم الحديثة أو الثقافة العصرية قد احتلت مكانتها التى تحتلها الآن . ويكفى هذا الشيخ فخراً أنه كان صحفياً شريفاً طاهر اليد لم يلوث ضميره ولا نفسه بأقذار الحياة التى استجدت بعده بفترة قصيرة واستمرت واستفاضت حتى أغرقت الخير والفضيلة . فأين لنا الآن صحفى متصوف وأزهرى ميّال الى الخير يخدم وطنه لينبه أبناءه ويوقظهم من سباتهم .

محمـــود الأيوبـى

طبيب أسنان نجل صلاح الدين الأيوبى المحامى بطنطا فى أوائل القرن العشرين ، وعمه الأستاذ إلياس الأيوبى المؤرخ لمصر الإسلامية وحاز جائزة ملكية فى تاريخ الخديو إسماعيل ، وشقيقته الآنسه نعيمه الأيوبى . وقد تعلم طب الأسنان فى ألمانيا فى فترة الحرب الكبرى الأولى . وقد عرفت أباه وكان رجلاً شهماً ذا غيرة على الدين والأخلاق ، أما عمه « إلياس الأيوبى » فكان بين بين وقد انتحل الإسلام وتزوج بسيدة مسلمة وتوظف بالمحكمة المختلطة ثم انتقل الى القصر الملكى بعد تأليف تاريخ إسماعيل وتوفى فى صيف سنة ١٩٣١ فى إحدى قرى الشام وهى مسقط رأسه فتنازع جثته المسلمون والنصارى مرات عدة وانتهى الأمر بدفنه فى قبور المسيحيين مع ثبوت إسلامه .

وقد ذكر فى تاريخ إسماعيل عبارات أليمة كقوله إن ماربيت باشا كان يضحك فى سقارة كلما رأى غضب المسلمين من استحمام حلوفه « حلوف ماربيت » فى الميضأة التى أعدها عمال التنقيب فى سقارة للوضوء ، وكان الأيوبى يشارك ماربيت الضحك هازئاً بهذه الشعائر المقدسة . وكذلك كتاب مصر الإسلامية قد حشده بالنقد المرير والتحامل على العرب والإسلام مما دلّ قراءه على أنه انتحل الاسلام لمأرب .

أما أخوه صلاح الدين فكان صادق الإيمان منزها عن الأطماع وكان رجلا مهيب الطلعة قصير القامة سريع الغضب للشرف والاستقامة عدواً لكل اعوجاج فى الأخلاق ، وأما محمود الأيوبى طبيب الأسنان فقد جمعتنى به مأدبة فى دهبية نيلية يملكها من يدعى أحمد بهجت نجل أحد القضاة وخاله مصطفى الشوربجى من أعيان

القاهرة وكان مقره بباب الخلق .

فتكلم عن تعليمه فى ألمانيا ثم انحدر الى الكلام عن المستشرقين ففتح أحد الحاضرين الحديث فى السيرة النبوية . فانبرى محمود الأيوبى « الدكتور » وهو ذو فهاهة ولثغة وقال إنه عندما كان بألمانيا سمع أو قرأ أن المستشرقين يقولون إن الرسول ليس له والد معروف ولذا سمى ابن عبد الله وهذه عادة كل ولد مجهول النسب، ثم توسع فى هذه المسألة توسعاً عجيباً وكان أحد المدعوين صامتاً صابراً حتى انتهى الأيوبى من قصته فقال له : هل تعرف على التحقيق من هو المستشرق الذى كتب هذا وفى أى كتاب من كتبه وفى أى صفحة من صفحاته .

فقال : لا أتذكر

قال المعترض : إذا سلمنا جدلا بأن مسألة على هذا الجانب من الخطورة يصح الاستشهاد فيها بكلام طيّار على لسان مسلم متعلم فهل تظن محمداً لو كان كما زعمت أو زعم المستشرق المجهول كانت قريش تسكت عنه وهى التى كانت تتلمس مواطن الضعف فى ماله أو دعوته حتى سبوه ونسبوا اليه السحر والجنون ومعاشرة الفقراء والأراذل مما ذكره القرآن ولم يخفه . حتى عتاب الله فى حديث ابن أم مكتوم « عبس وتولى » .

قال : لا اظن

قال المعترض : ولو فرضنا والده مجهولا فهل كان يتطوع اثنان من أشراف قريش وهما عبد المطلب وأبو طالب ليتكفلاه ويكون أحدهما جده والآخر عمه . وهل كان أبو لهب وهو ألد أعدائه يكتم هذا الأمر ويقول « ابن أخى » وهل كان يوفد جاريته ثويبة لترضعه ثم يعتقها لأنها بشرته بمولد محمد . واذا كان مستشرق واحد قد قال هذا فهل صدق وكذب مئات المستشرقين الذين أقرو بنسبه .

فنهض المعترض عن المائدة وقال : إن لم تغادر هذه الدهبية فإننى أغادرها فالجلوس مع مثلك والطعام معك حرام لا لأجل الدين أو شرف الرسول ولكن لجهل واستهتارك .

ولا أدرى ماحدث بعد هذه الضجة . ولكن هذا الحادث ولّد الرعب فى قلب الأيوبى فلم يذكر النبى بشر بعد ذلك(١) .

أما شقيقته فقد سافرت فى بعثة الى بلجيكا وعادت بأستاذ شاب من بروكسيل وحتمت على الحكومة أن تسمح لها بالزواج منه ، وقيل بعد ذلك إنه أسلم ووافقت الحكومة المصرية على تعيينه أستاذاً فى الجامعة المصرية فحظى بالمنصب والعروس والإسلام ول ظاهرا . وهى فتاة متعلمة حازت إجازة الحقوق ونالت شرف الانتساب الى المحاماة فكانت أولى الفتيات المصريات اللواتى قيد اسمهن فى جدول المحامين ث خلعت رداء الدفاع وتقلدت وظيفة فى وزارة المعارف ثم ارتدت ثياب الزفاف وهى الآ من دائرة السيدة هدى هانم شعراوى تلازم مجالسها وتحضر محاضراتها وتعينها فى الإصلاح الاجتماعى لأنها متحررة الفكر الى أبعد مدى وتلبس القبعة والفستان القصير وتتخذ زينتها عند كل محفل . وهى على النقيض من أخيها محمود فإنه سمين قصير مبهم التقاطيع ذو لكنة ولثغة ولا أعرف مهارته فى طب الأسنان وربما كان تثبت من فنه كتثبته من أنساب الأنبياء .

---

(١) الواضح أن المعترض هو لطفى جمعه نفسه .

ولا يفوتنى أن أذكر أن إلياس الأيوبى بذل لى جميلا فى مصاحبتى ليلة ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٢ بالاسكندرية بعد حفلة المرحوم الشيخ محمد عبده فقد خطبت فيها ومرضت فرافقنى الى دار صديقى وصديقه القاضى سليمان يسرى بك رئيس جمعية العروة الوثقى . وقضينا سهرة الى أن آن موعد سفر قطار نصف الليل الى القاهرة من محطة سيدى جابر ، وقد وقفت على أمر مهم فى تلك الليلة وهو أن يسرى بك اقتنى كل مطبوع عن تاريخ مصر فى مكتبة جميلة وأباحها للأيوبى فكانت فيها سائر المراجع التى استعان بها فى وضع تاريخ إسماعيل فى جزئين ضخمين وهو لايساوى ثمن الورق الذى طبع عليه .

محمود بسيونى

رجل فاضل بحبوح محبوب من جميع من عرفه من زملائه وعملائه ، وكان منذ شبابه وطنياً مخلصاً ومن أنصار مصطفى كامل وترافع عن الوردانى وجملة من مشاهير المحامين أمثال الهلباوى وعلوبه باشا . ثم اتصل بالوفد فى أول حركته وكان وزيراً للأوقاف ورئيساً لمجلس الشيوخ ورئيس الوفد الذى سافر إلى الهند لرد زيارة البانديت نهرو وأمير الحج فى سنة ١٩٣٨ أو سنة ١٩٣٩ ونقيباً للمحامين مرات متتالية وبالجملة نال بإخلاصه وثباته ووفائه وحسن نيته كل ماتصبو إليه نفوس الرجال عن جدارة واستحقاق ولم ينل شيئا محاباة أو مجاملة .

وله كعب عالية فى المحاماة وقدرة ماهرة فى المرافعة واختار أسيوط مقراً لعمله منذ نشأته فحصل على ثروة جيدة فى العقار والمنقول وربّى أولاده تربية حسنة وبوأهم المناصب العالية فى حياته .

وهو رجل بسيط المظهر طيب القلب لاتعرف العداوة طريقاً الى فؤاده ولايتخذ من الحزبية وسيلة للبغضاء أو التقاطع ، ولايعتبر الخصومة السياسية سبباً للتنافر ويعتبر كل الوطنيين مخلصين وإن اختلفت مشاربهم ووسائل عملهم .

ويظهر لى أن سبب السكوت عليه من الزعماء أنه هو نفسه زعيم ورجل كبير وذو مكانة وحرمة غير منكورة، ولما كان مسلكه هو الصحيح والواجب الاتباع ومذهبه هو الأحق بالتقدير فلم يعرض له أحد بالنقد وهو مستقل اقتصادياً فلا يحتاج إلى أحد وإن كان يخدم كل محتاج ويحمي كل ضعيف فإنه إن عرض له أحد بنقد فلا يؤثر منصبه على حريته ولايبيع شهرته بالأفق الضيق ، مهما دفع له فيه من ثمن . وقد مرض مدة طويلة وتعطل عن حضور مجلس الشيوخ وكان زعيم المعارضة فيه قبل يوسف الجندى ومايزال ملازماً داره وهو عضو فى ذلك المجلس الى أن يمن الله عليه بالشفاء .

معـــروف ارنــــاؤط

معروف أرناؤط أديب دمشقى وصحفى يدير جريدة ألف باء ، حضر الى مصر بمناسبة وفاة المرحوم أحمد شوقى أمير الشعراء « أكتوبر ١٩٣٢ » وأقام بها شهرا وعرفته مع زملائه ونسيبه نبيه شيخ الأرض وصديقه الأستاذ شفيق جبرى أستاذ الأدب العربى بجامعة دمشق .

وأرناؤط كهل قصير سمين حسن الخلق متساهل يميل الى المرح والمزاح . أهدى الىّ كتابه سيد قريش فى ثلاثة أجزاء وهو فخور به وإن يكن معظمه فى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وتاريخ تيودورا بنت الأمبراطور وأخبار عشقها فخلط عملا صالح بآخر سىء . ولغة الكتاب ضعيفة ومراجعه ضئيلة وهو على نسق روايات الهلا الإسلامية وإن يكن جورجى زيدان قد قصر كتبه على أخبار الخلفاء ولم يتقدم الى تاريخ الرسول فى رواية . ولعله لو فعل ذلك كان كتابه يكون أفضل من سيد قريش . ومعظم أوصاف الرجال وأهم الحوادث من نسيج خيال معروف ، واكتفى بذكر بعض المراجع فى أقدام الصفحات . وله أسلوب غريب فى تكوين الأفعال والأسماء على طريقة تخالف قواعد اللغة العربية . وفى وصف مكة يجعل كل أبطاله مقيمين فى قصور عالية مشرفة على المسجد الحرام ويضع على ألسنتهم أقوالاً لم ترد ببال أحدهم ولاسيما عند وصفه موت ورقة بن نوفل . فقد جعله فى هيأة بطريق المدينة والقبيلة وزعيمها وعالمها وكاهنها وهو لم يكن شيئاً من ذلك ، وتخيل صورة شاذة لسطيح وبالغ فى احتشاد القبائل فى استقباله وتلقى أنبائه وأخباره على طريقة القصاصين .

وبالجملة فإن الكتاب لايعد ذا قيمة من الوجهة الإسلامية وهو الى تمجيد النصرانية أقرب ، ولذا قال لى وهو فى غير وعى إن إقبال نصارى الشام عليه أكثر من إقبال المسلمين ، وعلى حسب العادة المتبعة استكتب خليل مطران الشاعر مقدمة الكتاب ، وعندى أن شاعر القطرين (؟؟) لم يقرأ منه كثيراً ولا قليلا .

وقد قرأت بعد ذلك أن معروفاً « عفا الله عنه » وضع كتباً أخرى فى تاريخ بعض الخلفاء الراشدين ، ولو أنه بذل جهده فى تحسين كتابه الأول لكان أجدى عليه وعلى القراء ولاسيما لو أنه حذف الخرافات الوثنية والمسيحية التى أفعم بها هذه السيرة الخيالية .

وقد وجه اليه بعضهم نقداً فى وضع العنوان ، فقال له ليس محمد سيد قريش بل سيد العالمين لأنه أرسل رحمة إليهم ولم يقتصر عمله على هداية قريش ، بل امتدت دعوته الى أنحاء العالم ونجحت فى جزيرة العرب كلها ثم انتشرت فى الشرق والغرب.

وعلى كل حال فإن إسلام معروف فاتر وحميته الدينية محدودة وتحمسه مصطنع. وليته لم يتعرض لهذا الموضوع واكتفى بقصة هيرقل وتيودورا وسطيح . على أن هذا الرأى لايطعن فى أدب الرجل الخلقى . ولكن أعتقد أن تاريخ الأنبياء لايتخذ للتجارة بالأدب ولايجوز لرجل غير متحمس لشخص النبى تحمساً عالياً مجدياً وعالماً علماً صحيحاً بسيرته أن يمد يده لتاريخ حياته ، فإن أمثال هذه التراجم الخالية من حرارة الإيمان ومن صدق العقيدة فى بطولة النبى تضر أكثر مما تنفع وتسىء ولا تحسن ولأجل هذا فطن قراء الشام من غير المسلمين الى هذه الناحية فاقبلوا على الكتاب .

وقد روى لى معروف أثناء إقامته ، تاريخ الجناية الفظيعة التى جنتها زوجة المرحوم فوزى الغزى أحد أبطال الدستور السورى وكيف دست السمّ فى الدواء وتآمرت عليه مع بعض أقاربه ودبروا القتل وسرقة المال والفرار الى إيران . وقال لى فى وصفها إنها فتاة بلهاء لثغة فى السين تنطقها تاء وأنها طائشة قد لعب الأدنياء بعقلها وسيطروا عليها حتى قضت على حياة زوجها العظيم الذى كان يعيبه شدة تعلقه بها على مابينهما من الفرق فى السن .

وكان بعض رفاق معروف أثناء روايته عن جريمة المرأة يظهرون التأفف وّيظنون فى سرد وقائعها الأليمة حطة فى قدر السوريين ، فقال معروف : إن أخبار هذه الجريمة منشورة فى الصحف وفى كل الممالك خونة وقتلة وفسقة وربما كانت هذه المرأة آلة فى يد من هم أقوى منها للقضاء على هذا الرجل فلا مساس بشرف سوريا ودمشق . وهذا هو التاريخ إن لم نروه نحن فلابد أن يرويه سوانا فنحن أعلم به وأقدر على روايته . وقال أديب آخر إن الأستاذ فيلكس فارس الشاعر الأديب اللبنانى والموظف الآن (١٩٣٢) بالمجلس البلدى بالإسكندرية قد كتب مقالات طويلة مفصلة عن هذه الجريمة . وقد عرفها المصريون معرفة تامة .

وقد التقيت بهذا الأديب « فيلكس » فى سنة ١٩٣٣ فى حفلة تأبين المرحوم محمد حافظ إبراهيم بدار الأوبرا وقضيت معه فترة قصيرة من الوقت وسرد علىّ تفاصيل جناية امرأة الغزى . وطلبت من الأرناؤطى أن يوافينى بما يحدث فى المحاكمة فقال إن المحكمة اكتفت بعقوبة السجن المؤبد بدل الإعدام نظراً لحملها وقت المحاكمة وكانت اللعنة عليها عامة فى دمشق لأن جريمتها اقترنت بالزنا والخيانة وهى زوجة

رجل عظيم ، ومايزال قتل الأزواج بالسم سلاح المرأة فى كل زمان ومكان فى الشرق والغرب وأذكر قضية السموم Affaire des poisons وقضية مدام لافارج « فى فرنسا » وجرائم الانجليز بالسم لأجل الحصول على أموال التأمين والتخلص من الأزواج مشهورة .

ورأيت معروف الأرناؤطى مرة ثانية فروى لى نوادر مضحكة عن الدكتور محجوب ثابت أثناء إقامته فى دمشق والشام عند فراره من تهمة كاذبة كادت تلصق به فى قضية القنابل وكان هذه المرة ضيفاً على الدكتور عبد الرحمن شهبندر وهو خال زوجته على ما علمت .

موريـك بـران

أستاذ فرنسى فى كلية الآداب بالجامعة المصرية أسس جماعة إحياء الثقافة الفرنسية بالقاء المحاضرات فى إحدى قاعات فندق كونتننتال يدعو إليها الأدباء من كل جنس ودين ويدعو إليها كبار الأساتذة والخطباء ويظهر لى أنه من جنوب فرنسا أو شرقها ، وأصل معرفتى به عن طريق أحمد رشاد صاحب مجلة « الوهّاج » فلامبو وتوطدت بيننا المحبة وعمل على ترجمة شعر شوقى الى الفرنسية وترشيحه لجائزة نوبل، وينشر مجلة أدبية بلغتم القومية ودعانى الى إلقاء محاضرة فى الفولكلور المصرى فألقيتها فى إحدى صالات الكونتننتال وهى التى أقيم فيها معرض التصاوير والتماثيل فى ربيع ١٩٤٢(١) وحضرها شوقى بك وسرّ بها .

وأراد بران أن يقف على حالة الأدب فى مصر بعد سنة ١٩٣٠ وبعد وفاة شوقى وحافظ فى سنة ١٩٣٢ وسمع مصادفة عن مقالاتى فى المرحوم أحمد العاصى الذى انتحر فى سنة ١٩٣٠ فحملت ديوانه وكتبه ومخطوطاته « التى أودعها عندى قبل وفاته» وتعاونت وبران على نقلها الى اللغة الفرنسوية وكان ينوى نشرها فى مجلة واشتغلنا يومين شغل الجد فى بيته ثم انقطعنا لأسباب شتى كبعد المسافة وكثرة المشاغل .

ومايزال بران دائباً علي عمله فى نشر الثقافة الفرنسية ، ولكن أظن هذه الثقافة لن يكون لها أى شأن بعد تدهور فرنسا وانهيارها فإن آداب الأمم لاتنتعش ولا تنتشر إلا بعاملين الأول كثرة القارئين « كما هى الحال بالنسبة للأمة الأنجليزية المنتشرة فى

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها سنة ١٩٣٢ .

الجزر البريطانية وفى أمريكا واستراليا وآسيا وافريقيا »والعامل الثانى ظهور الحضارة فى الأمة ، وكلا الأمرين قد قصرت فيهما فرنسا ، فعدد أهلها آخذ فى الانحطاط وظلها تقلص من البلاد الأجنبية وسيبقى أدبها تذكاراً أثرياً للمثقفين والمنقطعين لدراسة الآداب الميتة كاليونانية واللاتينية القديمتين ، ولاسيما أن كتابهم انقطعوا للقصة الغرامية وتحايل النساء وهذا شىء فرغ العالم منه وزهد فيه . نعم إن قانونها قوى والمؤلفات فيه قيمة ولكن أثره كالقانون الرومانى وما وقع لفرنسا الآن قد وقع للعرب والإسلام بعد انهيار دولهم .

وستبقى تلك اللغة والآداب لمصلحة الأساتذة الذين يتعيشون منها فى هذا الجيل، ومن محاسن بران أنه محب لمصر ويلبس الطربوش ولا يتخلى عنه .

نجيب اسكندر

طبيب عالم ومحلل قدير وصديق لمرضاه مخلص فى عمله مجد فى علمه ، ولد سنة ١٨٨٥ فى مدينة القاهرة وكان أبوه إسكندر مسيحة بك وكيل البطريركية القبطية الأرثوذكسية ، وهو شاب حسن الصورة شديد الوفاء محب لوطنه كان يعمل فى وظيفة كبيرة فى معامل الصحة ثم اشتغل بالحركة الوطنية من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٤٢، وانضم الى الوفد المصرى واجتمعنا معا فى عيادته للنظر فى كثير من أعمال الحركة الثورية التى كانت سرية واجتمع معنا كثير ممن صاروا بعد ذلك وزراء ورؤساء وزارات. ولكنه كان مستقيم الأخلاق لايعرف التفريط فى مبادئه وأخلاقه وقد عرض نفسه لأخطار كثيرة وتهم خطيرة فى سبيل وطنه ولم يربح شيئاً غير النيابة ، ولو أنه بقى فى منصبه بالحكومة لوصل الى منصب وكالة الوزارة على الأقل فقد وصل إليه من كانوا أقل منه بمراحل فى العلم ومن لم يبذلوا دانقاً ولا تعب ساعة فى خدمة وطنهم .

وقد وضحت لذهنه هذه المسألة فكان يصوغها فى القالب الآتى يقول « لقد رأيت الحركة المصرية وراقبتها عن كثب من عهد المرحوم مصطفى كامل الى الآن فرأيت أفضل الرجال وأخلصهم يُهضمون وتبلع حقوقهم وينساهم الشعب الذى خدموه وأن الكسالى والعاطلين والأنانيين هم الذين يجنون ثمرات هؤلاء المجاهدين ويستولون على المناصب والمنافع . ورأيت أن سبب ذلك راجع إلى حياء الفضلاء وأدبهم وعفتهم فى بلد وفى زمن لايفلح فيه إلا المنافقون والأوغاد والهجامون والمغامرون الذين يشبهون بنات آوى والذئاب والثعالب التى تتبع الأسد لتأكل فريسته . والفرق أن الأسود فى مصر لايمسّون الغنيمة ويتركونها للذئاب والثعالب وبنات آوى . وقد رأيت النجاح فى

وقد استبان الدكتور نجيب هذه الحقيقة أثناء حياة سعد وبعد وفاته ولكنه صبر الصبر الجميل الى سنة ١٩٣٢ ٠ فوقعت قضية القنابل واتهم بتحريض العمال على صنع القنابل وإطلاق الرصاص واغتيال رجال حكومة إسماعيل صدقى باشا الذى وثب الى الحكم فى سنة ١٩٣١ وألغى الدستور واضطهد الوفديين .... إلخ ، وبقى الدكتور نجيب إسكندر عاما فى سجن الأجانب وقد قبض عليه فى سبتمبر سنة ١٩٣١ فى مصيفه بالإسكندرية وتاريخه فى هذه الفترة هو تاريخ تلك القضية ، وتطوع للدفاع عنه سبعة محامين أحدهم الأستاذ مكرم عبيد وحدث بينهما جدال ونزاع وخصام أدى الى انسحاب مكرم وخمسة من زملائه وكادت تتعطل الدعوى لولا أن الله سلّم وتسلّم زمامها غيرهم من المحامين الذين قاموا بالدفاع خير قيام حتى حكم ببراءة نجيب وتسعة معه بعد اعتراف إبراهيم الفلاح بتلفيق القضية ٠

ولما خرج نجيب من السجن في أغسطس سنة ١٩٣٢ أقيم له احتفال فى يوم النيروز ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٢ حضره البطريرك يؤنس وجميع أعيان الطائفة ، وألوف من المصريين وخطب فيه عشرات الخطباء والشعراء ، ولكن الوفد نبذه وقاطعه وأعرض عنه الرؤساء وتجاهلوا وجوده بعد تعذيبه عاماً ٠ فانضم الى المنشقين مرغماً وهم الحزبُ المعروف بالسبعة ونصف إشارة الى أن ثامنهم على الشمسى باشا قصير فلا يعد إلا بنصف رجل ٠ وكانت أعماله فى تلك الفترة مبْهمة لأن هؤلاء السبعة ونصف كانوا من أعجز الرجال وأجبنهم وأضعفهم وهم حمد الباسل وسلامة ميخائيل والشريعى والجزار وفخرى عبد النور وفتح الله بركات وعلى الشمسى ٠ فلم يجتمعوا ولم يستقروا فى مكان ولم يخطبوا ولم يكتبوا ، ولم يذيعوا بياناً جبناً وخوراً وخوفاً من قوة الوفد ، وأخيراً اتخذوا نادياً يتيماً فى شارع فؤاد يختلفون اليه ويجتمعون فيه سراً ويطيلون الاجتماع ثم يخرجون صفر الأيدى كأنهم كانوا فى مأتم ويجيدون تمثيل الصمت ٠

مصر مقدراً بالمال الذى يخطفه الرجل ولا يسأل من أين يأتى به ۰ ورأيت المناصب والنفوذ فى أيدى الرجال الذين لايستحقونه ، ورأيت الكفاءة مجهولة مهضومة وصاحبها محسود مبغوض ۰ ورأيت الأشرار واقفين للأخيار بالمرصاد لمحاربتهم ومزاحمتهم وحرمانهعم بكل الوسائل من حقوقهم وحرمان الأمة من خدمتهم ۰ ورأيت الأحزاب كلها من نوع واحد كأنهم قبيلة واحدة ، وأن الأفراد كلهم على وتيرة واحدة فى أخلاقهم وأعمالهم وسيرتهم كأنهم جمعية سرية ذات خطة واحدة غايتها سرقة الحكم والاستئثار بفوائده ومنافعه – فهم يختلفون اسما وهيأة وشكلا وصورة ولكن كلهم رجل واحد فى محاربة الحق والعدل وهضم الحقوق وإقصاء أهل الكفاءة والذمة وليس لديهم صداقة ولا إخلاص ولا شرف ولا مبدأ » ۰

« وقد أدهشنى هذا الأمر دهشة لم أفق منها حتى الساعة ، فقد كنت أحسن الظن بالجميع وأصدق مايزعمونه ويدعونه من الإخلاص للوطن والعمل على خدمته ولكننى فوجئت باليقظة فى عالم صغير ينهش بعضه بعضاً والجرم واقع على الزعماء والرؤساء الذين هم عبيد شهواتهم وعبيد سادتهم » ۰

ثم يضرب الأمثال بالأسماء والألقاب والوقائع ۰ ويقول « لقد كان مصطفى كامل أصدق الوطنيين ولم يخلفه إلا فريد وسعد ، أما فريد فقد حيل بينه وبين خدمة وطنه ولم يكن يصلح لها لأن أخلاقه الشريفة وأصله الطيب ونبل مقاصده كانت تمنعه من المداهنة والمجاملة والمساومة التى هى ضرورات السياسة المصرية فى جميع أدوارها ، أما سعد فقد التفت حوله من الساعة الأولى جماعات لا أستطيع وصفها الحقيقى لأننى أحد أفرادها ۰ وقد اندمجت فى زمرتهم أنا وأخى راغب مخدوعين ، وجاهدنا وفقدنا المال والمركز وكافحنا ونفينا وسجنا ثم أهانونا وأقصونا وطردونا واضطهدونا ثم استداروا يأكلون بعضهم بعضاً وينهشون بعضهم بعضاً ، وكلما خرجت فئة لعنت التى قبلها والتى أخرجتها وهكذا » ۰

ومن أخبارهم أن حمد الباسل كان يحسن الحديث فى البهو الكبير ويقلد اللهجة البدوية ويروى أشعاراً ونوادر ويذكر ماقرأ من الكتب وينطق أحياناً برطانة فرنسية ولكنه جم الأدب كريم الخلق وكأنَّ فى فمه ماء فيما يتعلق بالسياسة • فيصغون اليه كأن على رؤوسهم الطير ثم ينفض المجلس •

وكان فخرى عبد النور وهو قسيس فى زى الأعيان يفتخر بأن له أقوى ذاكرة فى العالم فيما يتعلق بحوادث الوفد وأشخاصه وأيامه فيسردها سرداً منظماً، وعندى أن الرجل كان يقتنى الصحف وكان يسجل الحوادث أولا بأول وأنه كان يديم مذاكرتها ومراجعتها فلا تفوته فائتة ، وكان يعتبر حياته ومصلحته مستمدتين من الوفد وتاريخ الوفد وأخبار الوفد ، ومازال هكذا يمالىء السبعة ونصف الى أن صالح الوفد وعاد الى أحضانه مغفور الذنب • وكان سلامة ميخائيل صنماً صامتاً يعوج الطربوش ويقلب السبحة ويتهيج فيتكلم فى نوبة عصبية ثم ينسحب • أما الشريعى والجزار مع فضلهما فقد كانا كالممثلين الذين لاينطقون بحرف « كومبارس » وقد اصطلح أحدهما وهو الجزار وتوفى الشريعى فلم يشيع الوفد جنازته ولم يوفد رجلاً واحداً لمرافقته الي مقره الأخير انتقاماً • كل هذا جرى سنة ١٩٣٣ •

وقد خانهم الدهر بوفاة المرحوم فتح الله باشا عقيب عملية جراحية ، ولو أنه عاش لانتعشوا فما قيمة قوم ينهضهم رجل ويقعدهم رجل • فكان موته « دقة حظ حسن » لخصومهم وقد حل محله نجله الأديب بهى الدين ولكنه لم يملأ فراغه •

وكان يحوم حول هؤلاء السبعة كثير من الناقمين أمثال الغرابلى باشا « لعله أحدهم » وعبد الرحمن عزام وعبد القادر مختار وموريس أرقش ولفيف المحامين الذين لم يتبعوا إشارة مكرم فى الانسحاب من قضية القنابل ومدَّ إليهم محمد محمود باشا يده مصافحاً وخاطباً ودهم وخطب يعضدهم مرة فى بيت حمد الباسل ودعاهم حمد يوماً للإفطار فى رمضان وأقاموا بعض الحفلات لضيوف مصر من العراقيين وغيرهم

تركوا خصومهم ينهشون لحومهم مع أنهم كانوا فى عهد الوزارة الصدقية المعادية للوفد ، ولكن هذا الوفاء الصامت وهذا الجميل الناطق بالإخلاص حتى خافوا على الوفد شماتة الأعداء ، ولم يجد نفعاً . واندس فى هذا المجتمع كثير من المنافقين والجواسيس واتخذ أصحابنا غرفة للاجتماع السرى كأنهم مجلس الكرادلة عند انتخاب البابا . ولكنهم لم يفعلوا شيئا ولم يأتوا بثمرة ناضجة وتفككوا بالتدريج ، فالشمسى هاجر الى سويسرا أو عاد الى مناصب المال والسياسة والتمثيل فى عصبة الأمم ، وسلامة ميخائيل هوى من أفق شهرته وتخلى عنه غالى ميخائيل الذى جلبه من قريته يافعاً وقدمه نائباً ورشحه لانتخابات النقابة وأغدق عليه، وكان آخر العهد به سنة ١٩٣٨ بعد خروج ماهر والنقراشى ، فقد سافر الى إحدى القرى ليرشح نفسه فأهين واعتدى عليه وألقوا بطربوشه فى الترعة وحطموا سيارته فحزن فمرض فمات .

وهكذا برهن أعضاء الوفد على أنهم لايصلحون للعمل منفردين ولم يطل العهد بهؤلاء السبعة ونصف فإنهم اضمحلوا وتخاذلوا الى سنة ١٩٣٤ فتغيرت الوزارة وحل توفيق نسيم محل إسماعيل صدقى ...... إلخ .

وتمكن نجيب إسكندر من دخول البرلمان فى سنة ١٩٣٨ وكنت أظن أنه لايعود بعد قضية القنابل الى هذه المهازل ولكنه عاد تحت راية أحمد ماهر ولم تكن حاله فى هذا العهد بأسعد منها فى العهود السالفة وقد فشل أخوه الأستاذ راغب إسكندر بك فى الانتخابات فى نفس بلده وفشل سلامة ميخائيل فشلاً ذريعاً واختاروا الدكتور حامد محمود لوزارة الصحة وكان المأمول أن يقع الاختيار على نجيب بك فإن كان قياس الوطنية قضاء مدة فى السجون فقد سجن نجيب عاماً ولم يخرج من التهمة المحكمة إلا بشق الأنفس . ومازال فى البرلمان خافت الصوت شديد الحياء عاجزاً عن المطالبة بحقه وإخوانه قد جعلوا « ودن من طين وودن من عجين » ولايقدمون إلا الذين يخافون جانبهم أو يقيمون لهم الولائم الرداح أو يساهرونهم ويسامرونهم حتى مطلع الصباح .

ولكن الدكتور نجيب إسكندر لم يشك ولم يتململ ولم يغضب ولم يظهر ضجراً ولا غضباً ، ولكننى رأيت هضم الحقوق والاستئثار يربّى الحزازات ويغير النفوس ويحوّل القلوب عن المقاصد العليا الى النظر فيما أيدى الناس ، فبئس الحيلة والقوة عند الاستيلاء على القوة والنفوذ ثم التربع فى دست السلطة ، وغض الطرف عن كل من خدموا وضحوا وبذلوا .

نعم إن الوطنى الصادق لايطلب أجراً على عمله وإخلاصه لأن العمل والإخلاص لايقدران بمال ولامنصب ، ولكن الوصوليين يستحلون الأجور لأنفسهم ويحرمونها على إخوانهم وأعوانهم الذين تسلقوا على أكتافهم ، وقد روى له أحد هؤلاء الذين سُخِّروا للوصوليين أن هؤلاء الوصوليين كانوا أثناء جهاده يقبّلونه ويحتضنونه ويقبلون عليه فى محبة ظاهرة وعطف مصطنع ، فلما أن مسكوا أطراف حبال السلطة تنمروا له وصاروا يغضون أطرافهم ويتجاهلونه كأنهم لم يسمروا معه ولم يأنسوا به ولم يرحبوا به بالأمس ، وهذه صناعة خبيثة منهم ليردوا أهل الحياء والإباء أو يرهبوا أصحاب الجرأة ، حتى إذا هاجمهم أحد « وهذا نادر » أظهروا له « الشلق » وشنعوا عليه وقالوا له « خلاص أنت خدمت وطنك باختيارك ولم يرغمك أحد على ذلك ونحن ليس عندنا خزائن الأرض ومناصب الحكومة ليست ملكا ، بينما يقربون السفلة والقوادين وسياس الخيل وسماسرة السوء ، وأصحاب التهم وأرباب السوابق وأهل الشهرة الرديئة والأسماء الخبيثة وجعلوهم رؤساء وكبراء وبذلوا لهم ما استطاعوا من المنافع ، فيرى الرجل الطيب هذا المسلك فلا يحتاج الى العتاب ، خوفاً من تفشى العدوات وينسلخ عنهم بالتدريج بعد أن يكون قد رأى بعينه وسمع بأذنه وتأكد بعقله أنهم لايختلفون عن أسلافهم وهم يعتمدون فى خطتهم على أنهم إن فقدوا زيداً أو عبيداً سوف تنبت طبقة أخرى من المخلصين والجاهلين وقليلى التجربة يلقون بأنفسهم فى أفرانهم ليكونن حطباً لنارهم ومطايا لأغراضهم .

وخلة أخرى خبيثة عندهم وهى أنهم كلما صعدوا كلما نعمت أخلاقهم وتهاونوا فيما كانوا يتشددون فيه وزادوا استهتاراً واستصغاراً للشئون العامة ، وكان المنطق أن يضاعفوا جهودهم فى خدمة أوطانهم ٠

ولكن الحقيقة التى لا ريب فيها هى أن كل هؤلاء الناس ماعدا مصطفى كامل ومحمد فريد وأفراداً معدودين من كل الأحزاب ، لا غاية لهم إلا الوصول الى الرتب والمرتبات ولاسيما الذين سبقت لهم قبل اشتغالهم بالسياسة وظائف فى الحكومة ، فكم يكون طرب أحدهم عظيماً عندما يصبح وزيراً ورئيساً لرؤسائه السابقين ، وغير هذا من أنواع الصغار النفسى والضعة الخلقية ٠

وقد لقيت واحداً من مرشحى أنفسهم للمناصب انضم الى فئة غدرت به ، فكان الرجل يكاد ينفجر من الغيظ ويعجز عن الإفضاء بما فى صدره من الغل والحقد والتعبير عما لحقه من الإهانة وعدم الاكتراث على مدى أربع سنوات قضاها فى كنف هيأة أصدقائه الذين طلق لأجلهم أصدقاءه الأقدمين ٠ وأكثر من ذلك أنه كان منذ ثلاثين سنة بشّرته منجمة بأن يكون وزير خارجية فى وطنه ، وقد بذل جهوداً جبارة فى هذا السبيل ليحقق كهانة المنجم دون جدوى وقد شارفت حياته على الفناء دون أن يحققها وفُلتت الفرصة فعلاً من يده ، ودع جانباً كفاية الرجل وأخلاقه وجدارته فإنه كان يستحق المواساة والتشجيع بالرجاء على الأقل ولكن أصحابه جعلوا « ودن من طين وودن من عجين » وعموا وصمؤا عنه كما عمو وصموا عن سواه ٠

فأين يذهب نجيب إسكندر فى وسط هذه المعمعة الحمقاء ٠ وأين تذهب « عيشه فى سوق الغزل » ٠ فهذه معركة حامية ومجزرة دامية وسلب ونهب وأحقاد وأضغان ، وهناك لصوص وقطاع طريق فى ثياب عظماء وذئاب فى جلود حملان ٠

وماتزال الحال هكذا فى مصر الى أن تمر أجيال وأجيال فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى التوأمان ٠٠٠ !!

نيقولا بالاماريس

شاب مهندس يونانى الجنس والأصل ولد فى المنصورة من أسرة حسنة وتعلم الهندسة فى كلية الملك بلندن ، وقد عرفته فى سنة ١٩٠٩ فى البيت الذى نزلنا فيه أيام كنا ندعو للمؤتمر الوطنى المصرى الذى عقد فى مدينة جنيف سنة ١٩٠٩ ٠ وعلى الرغم من جنسه ودينه وإقامته فى انجلترا يتلقى العلم فى كلياتها ويرجو أن يدخل خدمه الحكومة المصرية بمعونتهم ، فقد بذل لنا معونة كريمة وتكبد مشقات فى أعمالنا الكتابية وقضى أياما وليالى طويلة فى إدلالنا على مانطلب وصحبنا الى مجلس النواب وكان فى أوقات الفراغ يدعونا الى النزهة والحفلات الاجتماعية وينفق من حر ماله بينما كان عدد كبير من الطلاب المصريين يتحاشى القرب منا أو الاتصال بنا خوفاً على مستقبله منهم ح٠ باشا٠ ش ٠ وتوفيق دياب ٠ وقد كان لهذين وغيرهما بعد ذلك شأن فى الحياة السياسية فى مصر وبذلوا وضحوا ، فدلنى ذلك على أنهم مذ كانوا فى انجلترا على الرغم من شبابهم وذكائهم كانوا لم يبلغوا حلمهم السياسى ولم يصلوا الى الرشد الذى يوحى اليهم خدمة أوطانهم فى أى زمن ، فلما نضجوا وبلغوا الرشد بعد ذلك بعشر سنوات لم يتأخروا عن العمل ولكنهم تجاهلوا المؤسسين الأول والذين زرعوا الزرع الأول وهزّوا الأقلام وأعواد المنابر ، فوجب علىّ أن أسجل هذه المكرمة لهذا اليونانى الفاضل وأعتبره من ورثة الحضارة اليونانية القديمة ٠

وبعد عودته الى مصر ببضع سنين لم يقطع مودتى وشرفنى بزيارته وصداقته ثم اشتغل فى أعمال الخزانات ومقاولات السودان ومصر ، ولم يقف شىء مما قدمه لمصر فى سالف وقته عقبة فى طريقه بل حببه الى الناس وأعانه حتى تزوج وأثرى وزرت أهله فى المنصورة أثناء غيبته كما وعدته فقوبلت بالترحاب وقالت لى والدته وهى شيخة متقدمة فى السن لقد أحسنت إلىّ فكأننى رأيت ولدى ٠

ويلفريد سكوين بلنت

أحد زعماء الفكر والأدب والسياسة فى القرن التاسع عشر والعشرين فى انجلترا ، وكان صديق مصر المخلص الوفى وحبيب الإسلام والشرق ونصير كل مظلوم في أنحاء العالم طوال حياته .

وقد ترجمت له مرات متعددة ولاسيما فى جريدة الأفكار فى شهر اغسطس سنة ١٩٢٢ عندما توفى إلى رحمة الله فى الثمانين من عمره .

وليس هذا الرجل العظيم قليل الشهرة فى العالم ولكن بعض أهل السوء فى مصر من الجواسيس والمأجورين زعموا كذبا ومينا أنه كانت له يد فى احتلال القطر المصرى وتحريض عرابى وإخوانه على الفتنة ليجعلوا للإنجليز وسيلة للتدخل الحربى وغزو البلاد وحكمها . وهذه أكذوبة ضخمة وتهمة ملفقه ونبأ باطل أتى به أكثر من فاسق ليفسد بين هذا الرجل وأصدقائه من الشرقيين والمصريين .

وليس يوجد دليل على إخلاص الرجل وصدقه وغضبه على حكومته وشعبه من بقاء المرحومين السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل والخديو عباس حلمى وأحمد المنشاوى باشا على صداقته ومحبته وتقديره ، وليس بين هؤلاء أبله ولا مخدوع ولا رجل سهل القياد ويخدع بالظواهر .

وقد زرته وعاشرته فى سنة ١٩٠٩ فى قصره المنيف المدعو بالمبانى الحديثة New buildings place بجنوب انجلترا الشرقى Sussex عن طريق هورشام .

وتحدثت اليه وكان يمد يد المعونة الى مصطفى كامل طوال مدة جهاده ثم الى المرحوم محمد فريد بك وقد نشر كتبا كثيرة أولها سر الإحتلال ثم غوردون فى

السودان والهند فى عهد ريبون ومذكراته فى مجلدين و مذكراته عن فترة الحرب العظمى ، وكل هذه الكتب المطبوعة المنشورة تدل على إخلاصه للشرق والإسلام ومصر فخير ما أقوله فى الدفاع عنه لمن يجهلون شأنه أن يقرأوا بضع صفحات من أى كتاب مطبوع من كتبه ومن لايعرف الإنجليزية فليكلف من يعرفها بالنقل اليه بالعربية .

وكان الرجل خصم غلادستون وكرومر وجراى ولورد مورلى الألد ولم يكن بينهم وبينه مايقتضى الخصومة وهو من أعيان بلاده وأكبر أغنيائهم وقاضى مديريته ، وأكبر ملاكها إلا ماكان ينازعهم عليه من المظالم فى الشرق وقد سجن مرة بسبب مناصرته لأيرلاندا ورحل فى الهند وسافر الى اصطامبول ولقى السلطان عبد الحميد وساح فى جزيرة العرب .

وكانت هوايته اقتناء الخيل العربية الأصيلة واشتهر مقره فى العالم أجمع بأجود الجياد وأثمنها ، ونزح الى واحة السيوة ليعتنق الإسلام ونقلت زوجته لادى بلنت المعلقات الى الإنجليزية وكانت حفيدة لورد بيرون الشاعر الإنجليزى الشهير .

وكان الرجل كاثوليكى المذهب حكما وشهرة ، ولكنه فى الواقع كان يعيش على قواعد الإسلام حتى إنه أوصى قبل موته أن يغسل ويكفن ويدفن على طريقة الإسلام . فلم يلبس ثياباً ولم يوضع فى صندوق ولم يباشر أحد القساوسه توصيته أو الغفران له أو يتمم واجباته الدينيه كما يصنع أهل الكثلكة .

وكانت له ضيعة أخرى ابتنى فيها قصراً آخر ولعله مورث وهو قصر crabbets وكان مقر الوزراء والأمراء والأعيان ومحفل الأرستوقراطية من أنحاء العالم وقد زاره المرحوم الأفغانى فى هذا القصر وزاره مصطفى كامل وفريد وعشرات من الوطنيين وكاتب هذه الأسطر فى قصره الجديد وقابلنا بثيابه العربية « الكوفية والعقال والعباءة» وحيانا باللغة العربية وعرض علينا فى وضح النهار بعض خيوله الشهيرة الأصيلة . وإن لم تكن من أهل المعرفة بها ولا هواتها .

وكان رجلا طويل القامة نحيف البدن « وقد رأيناه قبل وفاته بثلاثة عشر عاما » رقيق الصوت ناعم القول ، شديد التحمس للحق يعيش عيشة الزهد والعزلة ، لأن زوجته كانت تساكن كريمته فى قصر كرابيت ، وقد ذكره لورد كرومر فى كتبه ورد عليه فى عنف وعنجهية بعض المسائل وأراد أن يشكك القراء فى صدق روايته ، ولكن الواقفين على حقيقه الأمور يعلمون الصادقين من الكاذبين ومن له مصلحة فى الحق ومن له مثلها فى الباطل ٠ وليس هنا مجال الإسهاب فى هذا الباب وليس هذا مجاله.

وقد مضى الآن ثلاث وعشرين سنة على اجتماعنا به ولاننسى وجهه الأصبح وجبينه العريض العلى وأنفه الأقنى وعينيه الهادئتين الخارقتين ولحيته الكثة البيضاء وقامته المعتدلة الرقيقه ويده الناعمة اللينة وصوته الرقيق العذب عندما قال لنا « أهلا وسهلاً ومرحباً لقد شرفتم داركم فتفضلا » ، وكان معى رفيق فى هذه الزيارة « حامد العلايلى صحبة اضطرار فإنه قضى خمس سنوات قبل ذلك فى انجلترا ولم يخطر بباله أن يتعرف الى هذا الرجل العظيم » ٠

وكان أهم حديثه توجيه النصح إلينا وإظهارنا على خفايا السياسة الاستعمارية قال عن عرابى « لاترفعوا له تمثالاً ولا تضعوه فى التراب » فإنه لم يكن زعيما قويا ولا قائداً قديراً بل كان فلاحاً راقياً وكان ذا أحلام جميلة ومقاصد طيبة ٠ وأثنى أجمل الثناء على المرحومين محمد عبده ومصطفى كامل ، ورفعهما الى درجة المصلحين العالميين والأبطال ٠

وأنفق بلنت أموالا طائلة فى سبيل خدمة الشرق والإسلام ونشر جريدة للدفاع فيها عن مصالحنا واستمرت بضع سنوات وقد عدّه المؤرخون الإنجليز بين المستشرقين والرحالين فى بلاد العرب والشرق ، واستشهد كثير من كتابهم وغيرهم بأقواله وآرائه٠ وأذكر الآن أننى كتبت عليه فى البلاغ اليومى والبلاغ الأسبوعى ونشرت صورته التى تفضل بأهدائها إلىّ فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ قبيل انعقاد مؤتمر جنيف بأيام معدودة ٠

كان اسم بلنت(*) يذكر دائماً مقرونا باسم موسيو ديلونكل النائب الفرنسى الشهير ، وكان بعض الحاقدين على الوطنية المصرية يطلقون على بلنت اسم « محرر مصر نمرة ١ » وعلى ديلونكل « محرر مصر نمرة ٢ » ، وذلك من قبيل السخرية والتهكم ، لأن اسم بلنت اقترن بالحركة العرابية ، بالدفاع عن عرابى فى قضيته الشهيرة ، كما اقترن اسم ديلونكل بمصر فى مجلس نواب فرنسا وصحافتها التى كانت إلى ماقبل ١٩٠٤ « تاريخ المعاهدة الانجليزية الفرنسية » تعطف على مصر وتشاركها فى مواقفها الدولية ، وتمد يد المعونة الى بعض الوطنيين المصريين الذين رفعوا أصواتهم بالدفاع عن مصر فى أوربا فى أواخر القرن الماضى .

وبعد أن انتهى الدور الأول ، دور التهكم والسخرية من بلنت لأنه ظهر بمظهر المدافع عن الاستقلال المصرى ، وبذل فى سبيل ذلك المال والوقت والذكاء ، جاء الدور الثانى دور النميمة والوشاية والاتهام الكاذب ، فادعى لفيف من الكتاب السوريين المقيمين فى مصر ، أن بنت لم يكن مخلصاً للوطنية المصرية ، وإنما كان جاسوساً للإنجليز ، وكان وكيلا مهيجاً Agent provocateur وأنه هو الذى أشعل نيران الثورة العرابية ليمهد السبيل لدخول الإنجليز مصر ، وغاية أرباب هذه الشائعة الذميمة أن يبغضوه إلينا وأن يجعلوه ممقوتاً فى نظر المصريين الوطنيين ليحرموه عطف أصدقائه فى هذه البلاد كما حرم العطف فى وطنه من كبار قومه !

(*) ابتداءً من هذه الفقرة نثبت هنا مقالاً للطفى جمعه نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٨ يناير سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « ويلفريد سكوين بلنت صديق مصر والعرب والاسلام بمناسبة مضى ثمانين عاماً على ميلاده » .

واستمر هذا الدور ، طول المدة التى قضاها المنفيون العرابيون خارج هذه البلاد، ولما عاد بعضهم أمثال المرحوم الشيخ محمد عبده والمرحوم محمود سامى البارودى ونشر بلنت مذاكراته و« تاريخ الاحتلال البريطانى فى مصر » للمرة الثانية «مايو سنة ١٩١٧» ، وهو الكتاب الذى نقلته إدارة البلاغ للغة العربية ، ومهد له الأستاذ عبد القادر حمزة بمقدمة بليغة ، بدأ الجيل الحاضر يعيد النظر فى كل ماعلم وسمع عن بلنت ، وأخيراً ظهر الحق واستقر قرار الكتاب والمؤرخين فى جيلين متعاقبين من الأفرنج أمثال دكتور كوشرى فى كتابه « المركز الدولى لمصر والسودان » والمصريين ، « أمثال المرحومين مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك» ، أن بلنت لم يكن مهيجاً ، ولا مستعمراً ولا مستفيداً ، إنما كان شريفاً إنجليزياً مخلصا للإنسانية والعروبة والإسلام والوطنية المصرية ، كما كان مخلصاً للشعر والأدب والفلسفة وللوطنيتين الهندية والأيرلندية ، وقد أثبت ذلك بما قاساه فى هذا السبيل من سجن وتنكيل واضطهاد من أقرب الناس إليه ومن مليكه ادوارد السابع ومن فصيلة الأشراف والأعيان الذين كانوا يخالفونه فى مشربه ، وقد استمر على مبادئه الإنسانية السامية الى أن توفى رحمه الله فى صيف سنة ١٩٢٢ بعد أن رأى انتصار مصطفى كمال علي جنود اليونان فى سهول الأناضول ، وكان لدى موته فى الثانية والسبعين من عمره ، وقد أوصى بأن يغسل ويكفن ويدفن على شبه الطريقة الإسلامية ، وطلب الى ممرضيه بأن لايلبسوه ثياباً ، وأن لايضعوه فى صندوق ، بل ألحدوه فى قبر فرش بالرمل ، على سجادة شرقية ثمينة . وقد نفذت ممرضته التى حضرت وفاته وصيته بمنتهى الدقة .

كان عصر اليوم الأخير من شهر أغسطس سنة ١٩٠٩ عند ما رأيت المرحوم بلنت للمرة الأولى فى قصره العتيق الفخم واسمه « مقر المبانى الجديدة «New building place بجوار هورشام بسسكس بجنوب انجلترا الشرقى ، فقد وصلت مع

رفيقى فى السفر فى الساعه الخامسة ، بناء على دعوة من رب الدار ، فسافرنا من لندن « محطة كلابهام جنكشن » الى هورشام حيث غيرنا القطار ، وركبنا مركبة يجرها جياد الخيول العربية لمسافة ساعة تقريباً فى وسط الحقول والأحراش النضرة.

ولما بلغنا الدار استقبلنا رئيس الحشم Butler وأبلغنا تحية السيد. واعتذر لنا بأنه نام بعد الظهر ليقوى على السهر معنا ، فصعدنا الى غرفنا ، وأخبرنا أن العشاء يكون بثياب التدخين « سموكنج » .

وفى الساعة السابعة مساء دخل علينا فى غرفة الانتظار الرحبة رجل مديد القامة نحيف ذو لحية كثة ، يلبس الثياب العربية من عباءة وكوفية وعقال وقفطان ، [illegible] لى رقة العود أقرب منها الى ضخامة الهراوة ، [illegible] جمين رقيق كأنه صوت فتى فى مقتبل العمر ، وقال لنا [illegible] الثياب العربية فى منزله ، ثم جلسنا على المائدة لتناول العشاء ، وقد بهرنا ذكاء الرجل وحضور بديهته ووافر أدبه وحلو حديثه ، وكان يتكلم أثناء الطعام عن مشاهير من عرفهم من المصريين كلاما وجيزاً يدل على شديد حبه لمصر وأهلها .

وبعد العشاء انتقلنا الى قاعة الجلوس ، وهى قاعة فسيحة جداً وعالية جداً يكاد ارتفاع سقفها يكون سبعة أمتار « عشرين أو واحداً وعشرين قدماً » ، وقد زينت بأثاث قديم ، يدل على عراقة أصحاب القصر فى النبل والثروة ، ولها مدفأ من المرمر الملون ضخم جداً ، نقلوا اليه شجيرات بأسرها للإحراق ، فكان منظر تلك الشجيرات وهى تحترق وذلك الشيخ الجليل العربى الثوب والمنطق وهو يتكلم فى ضوء تلك النار ، وذكرياته القديمة الجليّة الواضحة ، الجليلة بصدقها ودقتها ، يجعلنا نتخيل أننا فى إحدى خيام أمراء العرب الكرام ، الذين مثلوا فى تاريخ الانسانية دوراً عظيماً ، وقد

عادوا الى بيوتهم ليقضوا الأيام الأخيرة من حياتهم بعد طول الجهاد فى هدوء وسلام، ويروون على أخصائهم مايذكرون من أيام الشباب والكهولة الناضجة ٠

لقد دام هذا المجلس خمس ساعات من الساعة الثامنة الى الساعة الأولى صباحا ، ولا أذكر أننى قضيت أمتع منها ، ولا أنفع ولا أكثر لذة ، وقد كان شوقى الشديد لرؤية هذا الرجل العظيم الذى كان قطعة حية من تاريخ مصر العزيزة ، وصدقه فى روايته ، وتحمسه مع شيخوخته لكل مافيه نفع لمصر من أكبر العوامل على جعل ذلك المجلس من ألذ المجالس وأمتعها وأنفعها ٠

كان الحديث عبارة عن أسئلة وأجوبتها ، أسئلة منا وأسئلة منه ، كل يريد أن يقف على الحقيقة من صاحبيه فى مسائل تحيّره وتهمه ٠ سألناه عن رأيه فى عرابى «وكان لايزال على قيد الحياة ، وقد قضى بعد ذلك بثلاث سنين » ، فقال : « لقد انقطعت المراسلات بينى وبينه من زمن طويل ، وأخر اتصالى به كان بشأن مراجعة ترجمته التى كتبها بيده ، ونقلتها الى كتاب « التاريخ السرى » وقد أرسل الىّ بعد ذلك برسائل ، لم أتمكن من الرد عليها ، لقد كان عرابى صادقاً ومخلصاً فى وطنيته حقاً ، ولكنه كان كثير الكلام قليل العمل ، وكان ذا استعداد خطابى عظيم ، ولكنه كان ضعيفاً فى السياسة والحرب He was a mediocre captain ويظهر أن لتعليمه الدينى دخلاً فى تكوين حالته هذه ، لقد كنا نود جميعاً أن يموت فى ساحة الوغى ، لأن فراره وطاعته لخادمه « ذلك الخادم دخل فى خدمة بلنت بصفة بستانى فى ضيعته بالشيخ عبيد بالقرب من المطرية ، وبقى بها الى أن مات منذ بضع سنين ، وهو فى خدمة شركة مصر الجديدة بصفة رئيس البستانيين » ٠ قد أساءت سمعته فى نظر الأجانب والمصريين معاً ، ولم يكن عرابى مطلقاً خائناً ، ولا مرتشياً ، ولا بائعاً وطنه ، ولكنه كان شديد التردد وشديد الخوف من أوربا ٠

سألناه : ماذا يجب على المصريين نحو هذا الرجل ؟

أجاب : لايجوز لهم أن يحقروه أو يمقتوه ، ولا يليق بهم أن ينصبوا له تمثالا ! بل يكفى أن يقفوا على تاريخه ويعذروه ، ومعاملته بالاحترام والتسامح أولى وأجدر .

سألناه : هل كان دخول الإنجليز مبنياً على غلطة من عرابى ، أم أنه كان أمراً محتماً من حيث الحرب والسياسة ومنطق الحوادث .

أجاب : الخطأ الوحيد الذى أدى الى دخول الجيوش البريطانية ، اقترفه عرابى بمخالفته رأى المجلس العسكرى العالى الذى عقد قبل التلّ الكبير بأيام ، وهو الذى حضره أركان حربه ، وعبد الله النديم ، وجان نينيه المؤرخ السويسرى المحب للمصريين ، فقد أجمع رأى هذا المجلس على تعطيل قناة السويس تعطيلاً مادياً يمنع الجيش الإنجليزى من الوصول الى الشاطىء الغربى لها ، فأرسل عرابى تلغرافاً الى ديلسبس يخبره بأن الإنجليز يخرقون حياد القناة ، وأنه مضطر لتعطيلها ، مادامت دخلت فى ميدان الحرب ، فرد عليه فردنان ديلسبس بتلغرافه الشهير « لاتلمس قناتى (!!؟؟) بسوء ، وأنا الكفيل لك بإنزال عسكريين فرنسويين مع كل عسكرى إنجليزى » .. فتمسك عرابى بهذا التلغراف وقال له أعضاء المجلس « إن ديلسبس هذا مجنون وكاذب ، وليس فى قدرته أن يفى بوعده وليس تحت سلطته قطّان فرنسيان فضلا عن الجنود وأنه لانفوذ له فى بلده ، وأن أعمال الهندسة شىء والحرب والسياسة شىء آخر .. فلم يعمل عرابى بنصحهم ، وقال « أنا خائف من أوربا !! » وفى الليلة التالية دخل الجيش بدسيسة بعض الضباط ، وبعض الباشوات المصريين « وهنا ذكرهم لى واحداً واحداً ، وكان أحدهم رئيسا لمجلس النواب ، وصار فيما بعد من أكبر الأغنياء ... » .

سألناه عن المرحوم مصطفى كامل ، وكان قد توفى منذ عام لنقف على رأيه فيه لأننا كنا نعلم ما بينهما من الصداقة والمعونة فى خدمة مصر فقال : « لقد كان هذا

الشاب عجيبا Miraculous وكانت له حدة ذكاء ونشاط لم أرَ مثلهما عند كبار الرجال الأوربيين . فقد كان عندى هنا فى سنة ١٩٠٦ « عام دنشواى » وكانت صحته ضعيفة ولكنه بعد الغداء ، استمر يكتب أكثر من خمسين رسالة ومكتوب لأصدقاء مصر باللغة الفرنسية التى كان يجيدها كأحد أبنائها « كان المرحوم بلنت نفسه يتقن اللغة الفرنسية حديثاً وكتابة ، وقد أنشأ بها ، وبالقلم الرصاص الخطاب الشهير الذى تلى فى مؤتمر بروكسيل فى ١٤ سبتمبر ١٩١٠ ونقلته جميع صحف العالم » وقد أسفت كثيراً لموته قبل الآوان لأنه كان يرجى على يديه لمصر خير كبير .

وتكلم عن علاقته بسمو الخديوى السابق فقال إن علاقتى به قد انقطعت منذ بضع سنين ، فقد عرض علىّ أن يزور مربط خيلى Stud فى الصيف وفى يوم الأحد ، فدعوت لفيفاً من أكبر أهل أنجلترا ، وأشرافها وساستها وأنفقت مبالغ طائلة لاستقباله، وقامت ابنتى علي ترتيب الاحتفال ، واستأجرت قطاراً خاصاً ، لأن مصلحة السكة الحديدية تمنع الأسفار على خطوط الضواحى أيام الأحد ، وفى اللحظة الأخيرة ، أرسل الىّ بتلغراف يعتذر فيه عن الحضور ... فكان مركزى حرجاً جداً أمام أضيافى الذين حضروا للاجتماع بسموه ، وقد علمت بعد ذلك ، أنه أطاع فى هذا الخلف أمر جلالة ملك الانجليز ادوار السابع الذى نهاه عن زيارتى لأسباب سياسية . فلما علمت بهذا العذر ، أرسلت لسموه الذى كان لى قبل ذلك صديقاً حميماً أقول «إن كان يطيع أمر جلالة ملك الانجليز ، وهو ليس من رعاياه فأنا بطاعة جلالته أولى مرات، لأننى حقاً من رعايا جلالة ملك بريطانيا » وقد حاول سمو الخديوى تجديد المودة بعد ذلك فلم تمكنه من ذلك الظروف ..

وتكلم عن فريد بك الذى كان على قيد الحياة فقال : إننى معجب به بوصف كونه رجلا مهذباً من أسرة شريفة Gentleman ولكنه سيء الحظ لأنه خلف زعيماً عظيماً بنفسه ، ولم تكن لديه مواهبه ، إن فريد بك رجل طيب فحسب ، وهو صادق أيضا .

وسألناه عن رأيه فى بلاد العرب : فقال إنه ينتظر للجزيرة مستقبلاً عظيماً ، ولابد أن يتحد العرب لتأسيس دولة حرة مستقلة ، وأن أخلاق العرب أعظم أخلاق فى العالم ، ولهذا فهو لايخشى عليها ضياعاً ولا استعمارا ..

ثم سألنا هو عن بنيامين موزلى وظهر لنا أنه لغاية ١٩٠٩ لم يكن يعرفه ولم يره، ولم يعلم بالدور الذى مثله موزلى فى السياسة المصرية بمعونة الخديوى وبعض رجال سياسة انجلترا ، فأفدناه مانعلمه عن الرجل وحبه مصر ورغبته فى اتفاقها مع انجلترا على قدم المساواة ، وحبه لسمو الخديو حباً شخصياً وبغضه للورد كرومر وحقده عليه ، فكتب ذلك فى مذكراته وقد مات موزلى هذا فى سنة ١٩١٧ فى مدينة نيس بجنوب فرنسا .

ثم توسط بلنت بيننا وبين مستر روتستين ليسافر مندوباً عن بعض الصحف الإنجليزية ليصف المؤتمر ويكتب عنه مايجب أن يكتب خدمة لمصر ، لوقوفه على المسألة المصرية وقوف خبير صديق . ودفع الدين الذى كان فى عنق صحف الحزب الوطنى لروتستين ، مذ كان مكاتبا لها فى لندن . وأخبرنا أن روتستين يعد كتاباً عظيما عن مصر ، وقد نشره فعلا ، واسمه خراب مصر Egypt's Ruin ودفع بلنت سائر نفقات طبعه ، وقد نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية ، واستأذنا فى نهاية المجلس مراعاة لصحته وشيخوخته وكان يطيب لنا أن نبقى معه أياماً متتالية ، ولم تغمض لنا عين بعد فراقه ، وكانت الغرفة التى نمنا بها حافلة بمؤلفات نيرون حميه فقرأنا فيها حتى الصباح .

وفى الصباح أفطرنا معه ، وزرنا بقيادته مربط أفراسه وكان يذكر لنا كل جواد باسمه ولقبه وسلسلة نسبه ووصفه العربى كقوله « هذا محجل اليمين » وهذا « الأغر » وهكذا وبينها خيول بيعت بألوف الجنيهات فى أمريكا .

وزودنا بصورته بإهدائه بخطه ، وهى تحمل تاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ ، وقد علمنا منه عرضاً أنه يعيش منفصلا عن زوجته « لادى آن بلنت حفيدة لورد بيرون » وأن ابنه البكر مات فى السابعة عشرة من عمره وأن ليس له سوى بنت واحدة ، وقد حدثت بينهما قضايا مدنية بشأن ميراث الزوجة بعد وفاتها فى سنة ١٩١٧ وقد تركت ثروة طائلة ، وهى التى كانت وهبت أرضاً للشيخ محمد عبده بنى بيته بعين شمس على جزء منها ، وباع جزءاً منها ، وكانت لها ترجمة جيدة للمعلقات السبع بالإنجليزية معتمدة فى جامعة اكسفورد وكانت سيدة قصيرة القامة ، بالغة منتهى الكبر ، كثيرة التجاعيد فى الوجه والجبين ، وعاشت فى مصر وصحبت بلنت فى أسفاره وأتقنت العربية .

وقد أصيب بلنت فى حياته بدائين من الأدواء العضالة ، الأول حمى الملاريا التى عانى منها أهوالا شداداً وصفها فى مذكراته الأخيرة (١٩٢٠) ومرض الشلل النصفى فلم يقعده عن العمل والتأليف الى ماقبل وفاته بعامين ، ولم يزر مصر بعد سنة ١٩٠٣ رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما أحسن الى مصر وأهلها بقلمه وقلبه وماله .

يعقوب صنوع « ابو نظارة »

كان يسمى نفسه شاعر الملك ويقيم فى باريس بشارع ريشيه نمرة ٤٣ ويحمل خمسة عشر وساماً فرنسوية وأجنبية ومترجم شرف وزارتى البريد والبرق بباريس ورئيس جمعيات علمية وأدبية كثيرة ويدير جريدتى « أبو نظارة ، والعالم الاسلامى » ، ويراسل جرائد الشرق . هذه الألقاب كلها كان يسجلها مطبوعة فى بطاقته .

أول اتصالى به فى مصر سنة ١٩٠١ عن طريق أعداد من جريدته أبو نظارة التى كان يحررها ويصدرها علانية ثم سراً في عهد الخديو محمد توفيق باشا ، أيام الثورة العرابية ، وكان متصلا بالثوار وينطق بلسانهم ويطعن فى أحزاب التأخر والرجعيين وحزب القصر الخديو والاحتلال ، وهو الإسرائيلى الأوحد الذى اشتغل بالسياسة المصرية وكان فى صف الوطنيين وقد أنحى على الخديو توفيق باشا باللائمة وقال له النقد المرير والسب المقذع ، وكان يرسل اليه جريدته بطرق خفية حتى بعد مصادرتها ومنعها ، فكان الخديو محمد توفيق باشا يفاجأ بأعدادها فى زجاجات الدواء وفى لفائف الصحف وفى الخبز الأفرنجي وفى جيوب ملابسه حتى ضاق به ذرعاً .

وقد عثرت على مائة عدد منها فى دولاب مهجور في منزل عزمى بك بمصر العتيقة وكان موظفاً سابقاً فى وزارة المالية وعرفته عن طريق أولاده وهو فى المعاش وأحد أولاده محمد توفيق عزمى كان رفيقى فى المدرسة الخديوية وكنا نذاكر الدروس فى فترة الامتحان فى منزل والده الواقع على شاطىء النيل مقابل حديقة المناسترلى وله شرفة مطلة على النهر وله مدخل كبير على الشارع الذى يخترقه الترام . فلما قرأت

أحد الأعداد طلبت من صاحبى أن يسمح لى بقراءة الأعداد كلها فأهدانى إياها جميعاً وكان هذا أول اتصالى بالحركة العرابية عن طريق مطبوعات مؤيدة لها كانت تنشر فى مصر وتعضد الحركة الوطنية ثم قرأت فى كتب أخرى عن تاريخ الحركة وعن الدور الذى قام به الإسرائيلى سنوا أبو نظارة ، فاحترمته ٠

وفى سنة ١٩٠٨ فى ليون وصلت الىّ أعداد جريدته التى استمر فى إصدارها بعد نفيه من مصر وأرسل الىّ كتاباً بخط يده وهو الخط الذى كان يحرر به جريدته ويطبعها على الحجر ويزينها بصور كثيرة ولا سيما صورته فى زى شيخ مصرى وعلى عينيه نظارته الزرقاء وهى جريدة سياسية هزلية سبقت جريدة النديم « الأستاذ » و«حمارة منيتى» وكانت تصل الى أيدى الشعب لأنها محررة باللغة العامية ٠ وكان لها أثر كبير ٠

ولما توجهنا الى باريس لأجل المؤتمر سنة ١٩١٠ زارنا أبو نظارة وكتب عن المؤتمر فى جريدته كما سبق له أن كتب عن مؤتمر جنيف وكانت تربطه بالمرحوم مصطفى كامل صداقة متينة وكذلك بالمرحوم محمد فريد ٠ ومازال يكتب وينشر الى أن وافته منيته بعد الحرب الكبرى الأولى فى الثمانين من عمره ٠ وقد قرأت نعيه فى جريدة الطان الفرنسية فاذا هو متصل بالقرابة والنسب بأكثر من عشرين أسرة من كبار أسر اليهود بفرنسا وله مكانة كبيرة وثروة حسنة وقد أقام فى فرنسا حوالى أربعين عاما لم ينس خلالها وطنه الأول ولم يغير زيّه ولم يفتر عن تحرير جريدته ونشرها وإرسالها هدية الى مشاهير المصريين والشرقيين ٠

وقد كتب عنه مؤرخو الأجانب الذين كتبوا عن الحركة العرابية فى كتبهم ولكن المصريين جهلوه تماما لأن جريدته كانت ممنوعة من دخول القطر المصرى فى عهد الخديو عباس أى الى سنة ١٩١٤(١) ، وإن كنت رأيت بعض أعداد مصادفة ، ولا أظن أن لها مجموعة تامة فى إحدى المكاتب العامة ماعدا مكتبة باريس الوطنية وهو اليهودى الأول والأخير الذى استحق لقب الوطنى من مصر لوفائه وإخلاصه ومثابرته واحتفاظه بشرفه وضميره واحترامه للإسلام والمسلمين حتى أسس جريدة العالم الإسلامى بالفرنسوية والعربية تأييداً لحركة المرحوم مصطفى كامل وكان ينفق على صحفه من ماله الخاص .

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الدكتورة نجوى إبراهيم فؤاد عانوس وضعت كتاباً عنوانه « مسرح يعقوب صنوع » أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤ ضمن سلسلة « دراسات أدبية » .

كما نشر الدكتور محمد يوسف نجم مسرحيات مختارة ليعقوب صنوع وقدم لها ضمن سلسلة « المسرح العربى – دراسات ونصوص ٣٠ » ، طبع دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٣ .

الفهرس

الصفحة

تقديم ١
إبراهيم دسوقى أباظة ١٠
إبراهيم طه أبو زيد (فى ترجمته كلام من اسماعيل صدقى) ١٥
إبراهيم المويلحى وولده ٢٠
أحمد إبراهيم « الشيخ » ٢٨
أحمد أبو الفتح « الشيخ » (فى ترجمته كلام عن محمود أبو الفتح صاحب جريدة المصرى) ٢٩
أحمد زكى أبو شادى ٣١
أحمد شوقى ٣٥
أحمد عبد الرحمن محرم ٥٧
أحمد محرم « الشاعر » ٦٣
أحمد منصور العزب ٦٨
إرمان بيكير ٧٣
أمين الريحانى ٧٤
أمين أنيس ٨٠
أنطون جرجس ٨٣
پالافيتيشينى ٨٤
پول بيك ٨٥

الصفحـــة

چورج أبيض ٨٨
حفنى ناصف ٩٢
حمد الباسل ١٠٥
داوود بركات « وفى هذه الترجمة كلام عن خليل ثابت وابنه
كريم ثابت » ١٠٧
زكى بدر « وفى هذه الترجمة كلام عن أحمد زكى شيخ العروبة » ١١٣
ستيفن هيلز پاركر ١٢٢
سليمان البستانى ١٢٧
صلاح الدين بايللى ١٢٩
عبد الحليم وعبد الرحمن البيلى ١٣٠
عبد العزيز إسماعيل ١٣٤
عبد العزيز الإسلامبولى ١٣٧
عبد العزيز الثعالبى ١٤١
عبد الله بكرى ١٥٨
عبد المجيد إبراهيم ١٦٢
عزيز كحيل ١٦٤
على على العزبى « شاعر دمياط » ١٦٨
على فوزى ١٧٤
على محمد الألفى « شاعر بورسعيد » ١٨١
على يوسف « الشيخ صاحب المويد » ١٩٢

الصفحة

فرح أنطون ٢١٣
كاما « وفى ترجمتها كلام عن بعض الزعماء الهنود » ٢٣٢
كامل أبو الذهب ٢٣٩
كامل وصفى أبو الذهب ٢٤٢
محمد أبو الذهب ٢٤٤
محمد أبو شادى « المحامى » ٢٤٥
محمد أبو طايله ٢٥٩
محمد إحسان ٢٦٤
محمد أسعد ٢٦٦
محمد البابلى ٢٧٠
محمد بخيت « الشيخ » ٢٧٥
محمد حمدى ٢٨١
محمد خالد باشات ٢٨٦
محمد شوقى بكير ٢٩٠
محمد صدقى « الطيّار » ٢٩٢
محمد عبد السلام « الشيخ العارف بالله » ٢٩٨
محمد عبده « الشيخ الإمام » ٣٠٧
محمد على وهبه بحراوى ٣٣٢
محمد ماضى أبو العزايم « الشيخ » ٣٣٥
محمود الأيوبى ٣٤٤

الصفحة

محمود بسيونى ٣٤٨
معروف أرناؤط ٣٤٩
موريك بران ٣٥٣
نجيب اسكندر ٣٥٥
نيقولا بالاماريس ٣٦٢
ويلفريد سكوين بلنت ٣٦٣
يعقوب صنوع ٣٧٤
الفهرس ٣٧٧

رقم الإيداع ٥٩٠٩ / ٩٨

الترقيم الدولى
977 - 232 - 139 - 4

مطبعة السلام الحديثة
١٠ش عبد السلام متسى
المتفرع من الشهيد أحمد حمدى
مدكور - فيصل
ت : ٥٨٣١٩٣٠

الأنس والسماع وبيعت الدهبية وضغط الطبيب بالطلب وتنكر للصديق بعد الألفة ، وأخيراً تفاوض مع رسول على أن يتنزل عن دِيْنه « ودينه » بكسر الدال ، إذا حصل الطلاق . وبذا أظهر أوراقه الرابحة « كما يقول المقامرون » فرفض الزوج بإباء وعوّل على أن يخوض المعركة ولو باع ثيابه . ولكن هذه الثورة النبيلة لم تكن إلا الى حين ، فإن البنت فرت الى آلاس .. « أيضا كما يقول اللاعبون » ، فلما رأى الزوج هذه الخيانة الصارخة حاول المقاضاة وطرق الأبواب فعاد بالفشل وآب بالخيبة وبعد انقضاء العدة عقد الطبيب على العروس المغتصبة وهى تكاد تكون من سن بناته . وانتقلت مجالس الأنس والسماع الى دار الطبيب وهو قصر فخم فى إحدى ضواحى القاهرة . أما ابن الكولونيل الكريم السماح المهذب الأديب ، فقد اختفى حيناً عن الانظار ثم ضعف ومرض ومات .

هذه صورة صادقة ناطقة للوالد والولد والعروس وصديق العائلة وليس لهم قريب حى .

محمد خالد باشات

صديق حميم وقاضٍ بالمحاكم اشتغل بالمحاماة عشرين عاما ثم انتخبوه للقضاء، وهو من أصل سورى « مدينة حماة » وهى موطن المرحوم توفيق نسيم باشا وكان يمت له برابطة قرابة أو نسب ولكن باشات لم يلجأ إليه فى مروءة أو خدمة وتخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٩١٧ وكان فى مدرسة باب الشعرية الابتدائية فى عهد المرحوم على فوزى بك الذى كان يسهر على تهذيب تلاميذه كما يسهر على حسن تعليمهم .

ولما شب خالد عن الطوق تجلت عليه سيما النجابة والذكاء فكان منكّتاً بارعاً لايقل عن المرحوم البابلى وإن تكن دائرته أضيق من دائرة البابلى وإنما كانت كافية لإظهار موهبته . وهو يجيد النغم ويعتبر فنّاناً بفطرته ، وكان فى المحاماة مجتهداً شغوفاً بدرس قضاياه وإتقان المرافعة فيها ولكن عنصر الطرب والمسرة كان غالباً عليه، وكانت شهرته فى الدوائر القضائية مستفيضة بحذقه فى النكتة البارعة ، فلا يكاد يقف ويبدأ الكلام حتى تشرئّب الأعناق وتتطلع الآفاق لما يقوله وتفتر الثغور عن البسمات قبل أن ينطق والكل ينتظر منه أظرف النكات وألطفها وكان هو أيضاً يبتسم قبل أن يرسل النكتة ويعقبها بضحكة خافتة ، لأنه أول من يعرف قوتها وإصابتها وحدتها وقد حاولت تسجيل بعض نكاته فى مقال فى البلاغ اليومى سنة ١٩٣٠ «سبتمبر أو أكتوبر من تلك السنة فى الصفحة الأدبية» ولكن كل تسجيل كما ذكرت فى كلمتى عن المرحوم البابلى لهذه الأشعة المضيئة وتلك الشرارات المندلعة من وهج الذكاء والبديهة يردها باهتة خافتة ، فكيف تروى ماحدث بينه وبين أحد مشاهير المحامين وكان مشهوراً برثاثة ثيابه لا فقراً ولا زهداً ولكن سوء عادة درج عليها، فقد

طلب من المحكمة تأجيل قضيته فى أحد أشهر الصيف معتذراً بعزمه على السفر للاصطياف . فسأله القاضى فى رفق : أين تصطاف ياسعادة البك . وقبل أن يستطيع الرجل الإجابة ، نطق باشات بتلك النكتة الرهيبة : سعادته يصطاف فى «التانتوريرى» .

والذى يعلم أنها محل تنظيف الثياب بالبخار وأن لها أفرعاً فى كلّ شارع ، لايسعه إلا أن يستلقى على ظهره من شدة الضحك ، وقد حدثت ضجة واغرورقت أعين بعض الحاضرين من شدة الضحك واضطرت المحكمة أن ترفع الجلسة بضع دقائق للاستراحة . أضف الى هذا وجه البيك وتغيره وذهوله وعجزه عن الرد وهدوء باشات وسكينته ونظرته المطمئنة بعد هذه النكتة الصائبة ، ولأجل أن يقدرها الأديب قدرها عليه أن يعرف الشخصيتين وأن يدرك جو المحكمة القاتم وسكونها المصطنع وانشغال الخواطر بالقضايا والمنازعات وانصراف الأذهان عن النكتة . ثم تنفجر هذه القنبلة الضاحكة فلا يخلو أحد من شظاياها وترغم المحكمة على مشاركة السامعين فى الضحكة حتى تتغلب القهقهة على وقار العدالة فى ساحة المحكمة . ويفرج الناس عن أنفسهم بعض كروبهم ثم تعود الجلسة الى الانعقاد فيبحثون عن البيك المحامى «النظيف» فلا يجدونه ، لأنه انتهز فرصة الاستراحة وزاغ وتخلّى عن القضية فناب عنه فى الحضور صديقه الأستاذ باشات وتعهد بإبلاغه تاريخ الجلسة المقبلة بعد الراحة القضائية ، فأثار موقفه عاصفة أخرى من الضحك لأن فى ظهوره اعترافاً بأن المسافر الذي عجل بالسفر كان ضحيته .

وإنى أسألك هل ترى فى هذا مايغضب أو يجرح الكرامة أو يسىء الى المحامى الشيخ أو يكدّر صفوه أو يحقد قلبه على الناقد الرقيق الحاذق ؟

نعم قد يفحش المنكت وإن يكن لبقاً أو حذراً أحياناً كالذى اشتهر عن نكتة «الصيدلية المفتوحة طول الليل» . ولكن هذا نادر ولايقع إلا فى كل عام مرة .

ولايفوتنى أن باشات فى قضائه رجل فى أعلى درجات النزاهة والعلم والأدب ، وله كرامة خاصة به ومظهر يدعو الى الاحترام ، وسألته مايصنع إن « حزقته » نكته أثناء النظر فى القضايا فهل يطلقها أو يكتمها فقال لى وهو يبتسم ابتسامة أعرف سرها : إنى أمتنع لأن الوسط الريفى لايلائم وأخشى أن يشهر عنى التنكيت فى القضاء وهو يذهب الكرامة . ولكن أقول لك الحق إنى أحياناً لا أطيق الصبر فأرسلها ... فقلت له خيراً لك أن تقيدها وتكتبها أو تبقيها الى النطق بالحكم فضحك وقال « هى حيثيات والا إيه ؟ » ..

ولخالد بك صاحب أو نديم اسمه عبد العزيز السوسى مغربى الأصل ضخم الجسم أهوج عصبى المزاج وآخر محام اسمه م.م يزعم باشات أنه أشبه الناس بحوذى نقل « عربجى كارو » ولايمكن لخالد أن ينطلق ويتجلى إلا إذا كان أحدهما موجوداً ويسميه « عدة الشغل » أى الهدف الذى يوجه إليه نكاته اللاذعة ، فإن منظر أحدهما أو كليهما إذا اجتمعا يلهمه ويوحى إليه فيتخيل ماشاء ويرسل النكات تترى متتالية منتظمة كالجندى الشجاع فى المعركة . وقد بحثت فى أصل هذه الموهبة عند صديقى فقيل إن للوراثة دخلا فإن أباه الذى مايزال على قيد الحياة كان فى شبابه وكهولته من مشاهير المنكِّتين ثم خبا بحكم السن وتحمل هموم الحياة ولكن فى ظنى أن باشات الوالد مهما حذق وذكا فلم يكن يبلغ شأو باشات الولد . وقد ذكرته عرضاً فى كلمتى عن الأستاذ الأديب عبدالله بكرى .

وإنى أحب النكتة الرقيقه البارعة وإن كنت لا أتقنها وأطرب لها وإن لم ترد على لسانى فكفى سماعها والتلذذ بها وتقدير أصحابها ، وفى انجلترا يسمون صاحبها Testeu ، وليست النكتة الانجليزية فاترة أو باردة كما يظن الناس لبرود طبع الإنجليز وفتورهم وطول صمتهم ، فقد اشتهر منهم فى القديم الدكتور چونسون وسجلها له بزويل ودافيد جاريك الممثل الشهير ، وفى العهد الأخير أوسكار وايلد فكان

ملك النكتة فى عصره وهم يفضلون أن يتخذوها وسيلة النجاح فى كتبهم فلا تضيع هباء فى المجالس ٠ وإنى أحبها ولو فى مجلس القضاء المعتم لأنها دواء الخمول والجمود وضياء الظلام المخيم على الخواطر والأفئدة فتشحذ الكليل وتنعش العليل وتبعث الوسنان وتيقظ الهاجع ولا يأباها البليد والأحمق ولايغضب منها إلا المغرور وضيق الصدر ٠

وإن صديقىّ العزيزين باشات وبكرى بجانب هذه الموهبة الجميلة يتلطفان فى القول ويخرجان من اللوم بأحسن العذر إذا اعتذرا ويجعلان من الكلام مصايد للقلوب ويعمران المجالس إن جدا أو هزلا ويبلغان الإرادة بأخف مؤونة ويستولى كل منهما على الأمد وهو وادع ويلحق الطريدة ثانياً من عنانه ويمشى رويداً ويكون أولاً ، لأن الغريزة مواتية والطبيعة قابلة جزاهما الله خيراً عن الأدب والأدباء والظرف والظرفاء فإنهما ذخيرة ثمينة وتحفة غالية وأطال عمرهما فهيهات أن يجود الزمان بمثلهما وإنى مهما أطنبت فى الإعجاب بهما أو تعريف قدرهما لمن لم يحظ بعشرة أحدهما واستيعاب مواهبه أكون فى حقهما مقصراً ٠

محمد شوقى بكير

كان أستاذ عام النبات فى مدرسة الزراعة العليا « قبل أن تصير كلية » وعرفته عن طريق إبراهيم رشاد « التعاون » وعن صاحبه المرحوم طاهر العمرى لأنهم كانوا يقيمون فى حلوان فى منازل فخمة ذات حدائق وأنهار ومنابع ماء وظل ظليل وخير عميم.

وكان شوقى من أصل چركسى وتعلم علومه فى انجلترا وتزوج من امرأة من جنسه وكان فى ظاهر الأمور سعيداً فى حياته مجداً فى عمله ولم يؤخذ عليه شىء إلا أنه كان يبيع كتبه فى علم النبات « وكانت تطبع وتباع لحسابه الخاص » بأثمان مرتفعة تثير ضجيج الطلاب .

ولما أردت أن أشترى أحدها لدراستى الخاصة دفعت غالياً ولم أشأ أن أطلب منه نسخة فقد درج بعض الأساتذة فى جميع درجات التعليم الابتدائى والثانوى والعالى على بيع مؤلفاتهم بمثل هذه الأثمان وأن يجبروا التلاميذ والطلاب على اقتنائها لأن أسئلة الامتحان تستخرج منها بحسب اتفاقية أو مؤامرة واسعة النطاق بين الموظفين فى الوزارة ولجان اختيار الكتب ووضع المناهج وبين مطبعة المعارف وقد أثرى كل من كانت له علاقة بهذا العمل الذى وضع أساسه أحمد حشمت باشا فى الفترة التى ولى فيها وزارة المعارف حتى صارت سنّة تتبع .

ثم ثار بعض الموظفين والأساتذة الذين لم يكن لهم نصيب فى هذه الغنائم التى كانت تدور على ابتزاز أموال التلاميذ بتكليفهم بشراء كتب غالية الثمن ثم لايلبث أن تلغى ويقرر غيرها وابتزاز أموال وزارة المعارف نفسها ، وحوربت هذه الطريقة من

خصومها ولكن بعد أن أحصيت وحصرت عشرات ألوف الجنيهات بل مئاتها التى دخلت جيوب المنتفعين بهذه الخطة وتعطل طبع الكتب ماعدا المدرسية .

وكان أصحاب المكتبات إذا عرضت عليهم كتاباً يسألونك هل هو مقرر فى الوزارة أو أن لك أمل فى تقريره ، فإن كان الجواب سلباً أعرضوا عنك ؛ ولو كنت ابن المقفع أو ابن سينا بلاغة وحكمة . فنفقت سوق الأدب وازدهرت دولة النهب والسلب ببيع هذه الكتب ، وسرت العدوى من المدارس الابتدائية والثانوية الى كليات الجامعة وهذا أحد الأسباب القوية فى انحطاط مستوى التعليم وفشل نتائج الامتحانات وانحصار مجهود الأساتذة فى كسب الأموال ببيع كتبهم لطلابهم وأشياء كثيرة أخرى رأيتها ووقفت عليها وعرفتها وهى ماتزال جارية ولايحرك أحد ساكناً .

وقد ساقنى الى هذا الاستطراد ذكر المرحوم محمد شوقى بكير بمناسبة غلاء كتبه ، فإن الكتاب الذى لايتكلف قرشين أو ثلاثة كان يباع بثلاثين أو أربعين قرشاً يدفعها الطالب ، وليته كتاب واحد أو اثنان أو ثلاثة ولكنها عدة كتب فى كل علم وفن .

وكانت حياة الأستاذ فى قصره بحلوان محاطا بأهله وأصدقائه حياة سعيدة فى ظاهرها ولكن عوامل كثيرة خفية كانت تعمل على هدم هذه السعادة . وفجأة توفى هذا الأستاذ الفاضل فى مقتبل العمر وقيل فى أسباب هذه الوفاة أشياء كثيرة .

ومما استعذبته منه زيارتى متحفه فى داره وقد جمع معادن ونباتات مختلفة وأحجاراً وآثاراً للتاريخ الطبيعى كان يجمعها من الجبال والأودية المحيطة بحلوان ومن وادى هوف الذى كان يجهز اليه رحلات متعاقبة مع أسرته وأصدقائه ، وهو من مواليد القرن الرابع عشر الهجرى وقد مات ولم يتجاوز الأربعين بعلة إنسانية يتحمل آلامها كثير مما لايقيمون للمروة وزناً ، وخلف والدة شيخة وبنتا صغيرة رحمه الله رحمة واسعة ، أما زوجته الشابة الجركسية فلا أدرى ماصنع الله بها .

محمد صدقى الطيّار

توفى فجأة بسكتة قلبية عقيب ذبحة صدرية فى عصر يوم الجمعة ٢٣ يونيه سنة ١٩٤٤ وشيعت جنازته فى عصر السبت من داره بشارع رمسيس بمصر الجديدة . وسنه سبع وأربعون سنة تقريباً .

ولد بمصر فى عهد الخديو عباس حلمى لوالد كان مشهوراً بالشمم والإباء والاعتداد بالنفس فأنشأه نشأة حسنة ولكنه لم يتم دراسته لاسباب طرأت على حياة أبيه بسبب انفصاله عن وظيفته بالقصر الخديو لدواع لاتمس شرفه بل تزيده احتراماً وكان طول حياته رافع الرأس . فلما شب الصبى محمد صدقى مارس كثيراً من الأعمال الحرة ولم يوفق التوفيق كله وكانت آخر حرفة مارسها تجارية وهى توريد بضائع من أوروبا ، ثم هاجر الى ألمانيا حوالى سنة ١٩٢٥ عقيب الحرب العالمية الأولى بقصد التعليم فوقع اختياره على الطيران ، وكان جلداً شديد التحمل طموحاً شجاعاً وفى أخلاقه لين العريكة وحسن العشرة والتودد وهدوء الطبع ، فتعلم اللغة الألمانية وأحسنها ولما حصل على شهادة الطيران صمم على أن يعُود الى مصر وطنه طائراً بمفرده على طائرة ضئيلة الحجم رخيصة الثمن يستعملها الهواة للرياضة ، لا الطيران البعيد المدى ، وقد نصحه الفنيون أن لايخاطر بنفسه ونهاه أصدقاؤه عن تجشم هذه المخاطرة فلم يُجد نصحهم ولانهيهم ولم يكن يملك ثمن طائرة أكبر أو أقوى .

وتلك الطائرة تشبه تمام الشبه أختها نينيت التى وصل اليها سنة ١٩١٣ قبيل الحرب العظمى الطيار الفرنسى قدرين قادماً من باريس الى اصطامبول فآسيا

الصغرى فجبال طرسوس فالشام ، فمصر ، وقد رأيناها فى جوار فندق مينا هاوس فى تلك السنة ، وهى لعبة طفل بالنسبة لأصغر طائرة حربية أو مدنية مما نرى الآن .

ولما نما خبر عزم صدقى تحمس له المصريون تحمساً شديداً ولكن لم يفكر أحد فى معونته بالمال ، بل اكتفوا بأن لهجوا باسمه ، ماعدا المرحوم عبد القادر حمزة الذى كانت تربطه بالمرحوم والد صدقى معرفة سابقه فكتب عنه ودعا له دعاية حسنة وأعّد الأفكار لحسن استقباله وتشجيعه وحصل منه على امتياز بمقالات للبلاغ يصف فيها رحلته الجوية ، وأخذت أخباره تجىء الى مصر بالبرق وقد عانى معاناة شديدة من شوامخ الجبال والضباب ومضائق السحاب وتكبد مشقات جمة وكأنه كان يزداد عناداً كلما زادت مصاعبه شأن الرجل الشهم ذى العزيمة الصادقة .

وأخيراً وصل مطار منشية البكرى وهو سابق لمطار الماظه فى الإنشاء فى عصر يوم من أيام الشتاء سنة ١٩٣٠ ، وتجمع له من الناس لاستقباله فى المطار والعباسية وشوارع القاهرة بقدر ماجمعوا يوم عودة سعد زغلول سنة ١٩٢١ ، وفى الساعة الرابعة بعد الظهر بعد طول الترقب والانتظار بدت طائرته فى الأفق صغيرة كالحدأة بجناحين (مونوبلان) صفراء داكنة كظبية الوادى غير أنها ذات نحول وهزال وعلا الضجيج والهتاف وتحمس الكبير والصغير تحمساً نادر المثال ، فبدأ الطيار الهمام بتحية المطار بالطواف حوله ثم هبط بحذق ومهارة وكاد المستقبلون يزهقون روحه ضماً وعناقاً وتقبيلاً ومصافحة ، وفى لحظة عين أصبح صدقى بطل الساعة ورجل مصر الأوحد فى هذا الفن العظيم ، ودخل القاهرة دخول الفاتح ، وقد أحصينا أكثر من ألف سيارة تتبعه وكان الزحام بميدان باب الحديد مما لم يسبق له مثيل ، وحضرنا جلسة البرلمان التى منحته أثناءها جائزة موقتة قدرها ألف جنيه ، وكان حاضرها ووالده وبعض أقاربه ومنحه الملك فؤاد نوط الجدارة ووهبه هبة مالية واستقبله وحيّاه وهنأه وشكره وشجعه .

وكان صدقي يحمل معه فى الطائرة تمساحاً رضيعاً يعتبره تعويذة (وباروكه) وبادرت شركة بنك مصر بتأليف شركة مساهمة هى شركة مصر للطيران لتشجيع هذا الفن واستثمار مواهب صدقي وخطت خطوطاً للطيران داخل القطر وخارجه وكان صدقي عماد هذه الحركة وأسست مدرسة للطيران وأسس مطار الماظة للطيران المدنى.

وأخذ صدقي يطير على طائرته وغيرها الى الحجاز والعراق والشام وينقل الركاب والمسافرين من ١٩٣٠ الى ١٩٤٣ وقطع ثلاثة ملايين كيلو متر وهو رقم قياسى يندر أن يجتمع لطيار فى حياته الفنية ، ولكن الأقدار قضت أن يهوى هذا النسر بعد أن حلق بمصر وأحلها محلاً حسناً فى عالم الطيران فله الفضل الأعظم على هذا الوطن ، فإنه لم يقلده الرجال وحسب بل العذارى الطائرات مثيلات لطفية النادى التى أتقنت الطيران على يديه .

ويمكن القول بحق أنه رجل أنشأ فناً فى بلد محروم منه ، وقد دعوت فى سنتى ٢٩ ، ٣٠ فى جريدة البلاغ اليومى الى إيجاد الطيران فى مصر(١) بعد أن شهدت حفلات أقيمت فى مطار منشية البكرى الإنجليزى الحربى لمعونة أرامل الطيارين وأيتامهم من الإنجليز ودهشت من مهارتهم وعلمت أن الانجليز يحرمون الطيران على المصريين لأنه سلاح حديث ولأن جو مصر يصلح للطيران طول العام ويعد خير مدرسة لتعليم الطيران فاستأثر به القوم ومنعوا المصريين من ممارسته ولم يسمحوا بدخوله فى الجيش المصرى .

---

(١) كتب لطفى جمعه أيضاً مقالاً نشر بجريدة المساء فى ١١ ابريل سنة ١٩٣١ تحت عنوان « موسم الطيران المصرى » .

وحدث أن طياراً مصرياً « عبد الرحيم مصطفى » زميلى ورفيقى فى دراسة الحقوق بفرنسا أخفق فى علم الحقوق وحذق فن الطيران وعاد بطائرة اشتراها بماله ، فلما وصل ثغر الاسكندرية عائداً من أوروبا حجزوها فى الجمرك ولم يسمحوا بدخولها ولم يسمحوا له بالطيران فى جو مصر ٠ تصور أن المصرى المتعلم ابن عم رئيس الوزارة محمد محمود باشا لم يتمكن من الطيران فى جو مصرى بينما تعج سماؤها بالطائرات الإنجليزية الحربية والمدنية فى البر والنهر والجو ، فكتبت انتقد وأتألم وأشكو وأتظلم ولا حياة لمن تنادى ٠

فحدث أن أيكنر الألمانى عزم على زيارة مصر بمنطاده ، فتردد الإنجليز فى السماح له ، وعّز عليهم أن يدخل الرجل باختراعه « وهو قديما منسوب الى كونت زبلين ، وهو ألمانى » جو مصر قبل أن يصنعوا هم منطاداً مثله ، ولكن ترددهم لم يطل وسمحوا له ٠ وكان آية فى الجمال والعجب ٠ فلما جاء صدقى وطار من أوروبا الى مصر وتحمست البلاد له خجل من يستطيع أن يخجل فسمحوا بتعليم لفيف من الشبان فى انجلترا وأنشأوا سلاح الطيران ، ولكن الأقدار حاربت مصر فكان عدد ضحايا الطيران من الضباط المصريين أكثر من الاحياء مع أنهم لم يشتركوا فى معركة جوية ولم يظهروا كفاية ولم يحوزوا فخراً ، وقد جاءت أيام فى سنتى ٤٣ و ٤٤ كان لايمضى خلالها أسبوع دون أن نقرأ عن مصرع طيار أو طيارين ٠

وقد كتب الحظ لصدقى أن يكون أقل الطيارين خطأ وأدومهم وأثبتهم وأقواهم قوادم وخوافى وأرشقهم جناحاً وأبرعهم صعوداً وهبوطاً وقد عينته الحكومة منذ خمسة أشهر مفتشاً للطيران بعد أن كان موظفا بالشركة ٠

كما أتاحت له الأقدار أن يحقق حلم عباس بن فرناس العربى الأندلسى وقد حياه شوقى أمير الشعراء عند وصوله بقصيده رنانة ٠ وربح شهرة ومالاً وأثلج قلب أبيه قبل موته وأثبت أن الأمم المغلوبة على أمرها ينبغ فى غمارها أفراد يؤيدون

حياتها ويؤكدون طموحها ٠

كان صدقى طويل القامة أسمر اللون عريض الصدر يمشى مكباً بعض الإكباب، بارز الأنف حاد البصر كالنسر الضخم وكان هادئاً هدوء النسر طويل الصمت خافت الصوت مجتمع الأكتاف كأنه لاينفك مصمما على التحفز للصعود ٠

وقد لقيته وقضيت معه وقتاً طويلاً عند عبد القادر حمزة بمناسبة مقالاته الخمس أو الست التى كتبها عن رحلته الجوية وكانت جيدة الموضوع ذات أسلوب خاص كأنها مكتوبة بلغة أجنبية منقولة عنها الى العربية وليس مطلوباً من مثله أن يكون كاتباً عربياً ، وكفاه أن يقيد خواطره وأن يصف مخاطره ، وهذه المقالات اتخذت بوفاته صفة الوثائق الانسانية ولكنى لا أظن أحداً سوف يعنى بتدوين تاريخ حياته وتسجيل هذه الفترة المجيدة الأولى من أعماله ٠

وكان صدقى متأهلاً بسيدة ألمانية مرزوقاً منها بغلام سماه « أسامة » وهو اسم بطل عربى قديم ولما شرب من ماء النيل رأى أن يبنى بسيدة مصرية رزق منها ببنتين ورأت أم أسامة أن تبقى بجوار ولدها ٠

وعن وفاته روى لى الأستاذ مصطفى علوى مدير الحركة فى المطار « وليس طياراً» ابن عم كمال علوى بك نجل المرحوم علوى باشا الرمدى الشهير أنه كان مع صدقى قبيل وفاته وقد خرج مع أسرته فى نزهة خلوية بالسيارة وهو يقودها ثم شعر بتعب فترجل وقصد الى مكان بناد رياضى ليستريح فزاد وجعه فى صدره وذراعه وضاق نفسه واستنجد طبيبا فلما بلغه كان قد قضى نحبه وصعدت روحه الى بارئها فى طريق السماء ٠

قال مصطفى بك العجيب أن الكومسيون الطبى وهو خرافة حكومية «من عندنا» كشف عليه وفحصه وأقر صلاحيته الصحية من أسبوعين فقط ٠ والذبحة الصدرية تزمن ولها أعراض ٠ فلو أنه كان طائراً وفى عهدته مسافرون ووافته منيته فى بضع

دقائق لهوى ، وهوت طائرته معه ، وقيل إن الطائرة سقطت لخلل فى آلتها أو عطب أصابها ولكن الله سلّم - وهذا لنعلم أن حياة البشر معلقه بخيط أوهى من خيط العنكبوت ولكن أكثر الناس لايعلمون ولايدركون ويخطئون ولا يصيبون .

وعلمت أن المرحوم لم يخلف ثروة ولا مالاً كثيراً أو قليلاً وأن أولى الحل والعقد يدبرون لأسرته معاشاً يليق بحالهم وبماضى بطل الطيران المصرى وسابق جهاده .

وقال لى المرحوم إن عقدة الطيران فى الهبوط ومعظم الحوادث تقع أثناءه وأن الطائرة أسهل فى قيادتها من السيارة ومثله من يقول ويعتمد على قوله .

وقد دل ببعد نظره فى تعليمه على أن اختار حرفة سوف يكون لها أعظم مستقبل فى العالم وعاش حتى رأى شأنها فى الحرب بين الأمة التى تعلم عندها وبين بقية أمم العالم . رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

محمد عبد السلام(*)

كتب العالم الطبيعى ألبرت أينشتين ، صاحب نظرية النسبية التى قيل إنها قلبت العلوم الطبيعية رأسا على عقب ، مبحثاً فلسفيا فى العلم والدين جاء فيه « إن الشعور والشوق ، هما العاملان القويان اللذان يدفعان بالإنسان إلى السعى والإنتاج النافع ، وأن الشوق والتطلع نحو المعونة والمحبة والاسترشاد يخلقان فى نفس الإنسان صورة لله يتجلى فيها القانون الخلقى والمبدأ الأدبى الاجتماعى » .

وإذا أنت لاحظت الألفاظ التى استعملها أينشتين زعيم علماء الطبيعة فى هذا العصر المادى نجد ألفاظاً ومعانى تخصّصت للتصوف ، فالشوق والتطلع والمحبة والاسترشاد والتجلى وصورة الله كلها ألفاظ يكتبها المتصوفون ، وقد لجأ اليها العالم الطبيعى لأن معانيها كانت تجول فى نفسه وهو لم يجد غير تلك الألفاظ للتعبيربها عما يخالج ضميره .

ثم تراه يترقى فى بحثه فيقول : « إن بعض الأشخاص المتمايزين فى الشعوب التى بلغت مراتب عالية من المدنية يرتقون بفكرتهم الدينية الى درجة الاختبار الدينى Exprience Religieuse الذى أدعوه « هذا أينشتين الذى يتكلم! » « الشعور الدينى

(*) نثبت هنا مقالا للطفى جمعه نشر فى جريدة البلاغ بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣١ تحت عنوان «التصوف الإسلامى الحديث» . وتجدر الإشارة هنا الى أن هناك رسالة أخرى صغيرة وضعها لطفى جمعه عن الشيخ محمد عبد السلام عنوانها « تذكار الأربعين لوفاة العارف بالله شيخنا السيد محمد عبدالسلام الذى لبّى نداء ربه صباح الأربعاء ١٦ ذى القعده سنة ١٣٤٥هـ » . وتقع هذه الرسالة فى ١٤ صفحة من القطع الصغيرة وماجاء بها لايكاد يخرج عما جاء بالمقال .

الكونى » . وهذا الشعور الدينى الكونى ، ليس باليسير تفسيره لمن لايشعر به ، لأنه لاينطوى على تشبيه مادى للذات الإلهية ولايشمل صورة بشرية للخالق سبحانه ! وإنما من يشعر بهذا « الشعور الدينى الكونى » يدرك أربعة أشياء :

(١) بطلان الرغبات الزائلة والأغراض الانسانية الصغيرة .

(٢) نبالة النظام المدهش الذى يتكشف لنا فى عالمى الطبيعة والفكر وجلاله .

(٣) أن مصير الانسان مقيد بهذا النظام العجيب السائد على الكون .

(٤) ضرورة اختبار ذلك الوجود الكونى بوصفه وحدة مشبعة بأعلى المعانى وأغلاها .

هذه هى المبادىء الصوفية التى وصل اليها أنيشتين بطريق البحث العلمى ومعانيها لاتحتاج الى بيان .

وقبل اينشتين قال برجسون أشهر فلاسفة فرنسا إن الانسان يصل الى العلم الصحيح بطريقة الانفطار Intuition أو إشراف النفس ، وقد ألف فى مذهبه كتباً كثيرة ، وأيده فى أمريكا وليم جيمس .

وظهرت نظرية فرويد المبنية على التحليل النفسى « بسيكواناليز » ، وكتب علماء إنجليز عديدون فى العقل الباطن ، وعللوا به علم الغيب والإنباء بالمستقبل . وألف الأستاذ ارتور آدمجون العالم الفلكى الطبيعى الأشهر كتابه « ماهية العالم الطبيعى » جاء فى ص ٣٢٠ منه مايأتى فى الكلام على قوى النفس :

« إن فى الانسان ، فى عقله ونفسه ناحيات وجهات لاتخضع لقوانين الطبيعة وغير مقيدة بأى قيد . فمن ذلك خفاء معنى الكون وخلقه ، ومايحيط بنا من أسرار الوجود ، ووسائل النطق بالفنون وتفسير معانى الحياة بالموسيقا والتصوير والنزوع الى الجمال والطموح الى الله . فى هذا كله تعلو النفس وتطمح متتبعة خواص الشوق المودعة فيها ، وتسمو الى العلى لتحقق أمانيها الكامنة فى ثناياها . وتفسير هذا الطموح أمر باطنى ، هو شعاع من نور مودع فينا وهو سعى واجتهاد من العقل

الظاهر والإدراك الحقيقى لنصل الى معرفة مالا نرى ، أو لتتصل نفسنا بما هو أعظم منها ٠ هو شعور النفس بقوة أعظم من قوتها ، وسلوكها للوصول الى تلك القوة التى هى مكمن الأسرار ومستودع القوة العليا ، فالباحث والفيلسوف والمحقق والعالم الطبيعى والأديب والشاعر والمتفنن الذين يعمل كل منهم فى فرعه إنما يسعون الى الاستزادة الفكرية من العلم والفن ليقربوا من ذلك الضياء الذى يجذبهم رغم أنوفهم كما لو كانوا مسوقين بقوة قاهرة يشعرون بها ولايعرفون كنهها » ٠

هل هذا كلام عالم طبيعى فلكى إنجليزى أم كلام فيلسوف متصوف شرقى ؟

الجواب إنه كلام الاثنين معا ٠ وقد قرب العلم الصحيح مسافة الخلف بين العلم و« المعرفة » ٠

وكل قراء العربية يعرفون من هو رومان رولان ٠ فهو أعظم كتاب فرنسا الأحياء، ولكنه مغضوب عليه وغضبان ٠ فقد ألف قصة جان كريستوف فى عشرة مجلدات وترجمت إلى كل لغات العالم ٠ ماعدا اللغة العربية ، وألف « الروح المسحور » فى أربعة مجلدات ، وترجم لعظماء العالم أمثال تولستوى وميكائيل أنجلو ومهاتما غاندى، ودرس رجال الموسيقا المشهورين أمثال لولى وسكارلاتى وهندل وبيتهوفن ، ونال جائزة نوبل ٠

أما سبب غضبه وخروجه من فرنسا وطنه واستقراره بإحدى قرى سويسرا على شاطىء البحيرة « نيوفيل » ، فهو مقاومته للحرب إبان اشتعالها فى العالم وقد ألف رسالة صغيرة عنوانها « فوق جو المعركة » ، فعدها أبناء وطنه خروجاً على الاجماع ، ونكوصاً إلى الوراء عن فكرة الدفاع القومى ، فقاطعوه وشنعوا به ، واتهموه بممالأة الأعداء ، كعادة الفرنسيين فى أوقات طيشهم وغليانهم لايسمعون من أحد كلمة الحق ، حتى تدقّ أعناقهم أو تحطم رؤوسهم بالجدار ٠

هذا هو رومان رولان الذى وقف بضع سنين من عمره على تأليف كتاب « حياة راما كريشنا وفيفيكنندا » وهو « مبحث فى الصوفية الفعالة فى الهند الحية » فى ثلاثة أجزاء .

وقد سرد فى هذه الأجزاء الثلاثة ترجمة اثنين من أعظم رجال الهند بل أعظم رجال العالم ، أولهما راما كريشنا المتصوف البرهمى العجيب الذى « وصل » عن طريق الإلهة كالى ، وقد وصف نشأته وتهذيبه وسلوكه وملازمته لعتبة الآلهة ، وأسهب فى وصف حالته فى وقت « تطوره » و« جذبه » الذى يسمى بالهندى « سمادهى » وكيف كانت تتجلى له الرؤى ، وخبر الرجل الذى « أوصله » بشق جبينه بقطعة من الزجاج ، وما أصابه من صنوف « البلاء » .

ثم انتقل الى ترجمة مريده المفضل على غيره وهو فيفيكنندا ، وكيف كان اجتذابه ، مع أن فيفيكنندا من طبقة الأشراف والأعيان ، وكان على أعظم جانب من الجمال والقوة والذكاء وأن راما كريشنا جذبه ، وأعطاه حاله ، وأنذره بما سيقع له ، فلزمه فيفيكنندا بضع سنين وخدمه ومرضه فى مرض الموت ، وعنى به العناية كلها . وجاء الوقت الأخير فألبسه حاله وقال له « اسمع يافيفيكنندا ، لقد صرت أنت الآن كل شىء ، وأنا لا شىء » .

ولما توفى الشيخ ، خرج « الدرويش فى سياحته الأرضية » الأولى فطاف بلاد الهند على قدميه كأفقر « الدراويش » يتوسد الأحجار ، ويتظلل بالأشجار ، ويأكل بالصدقة ، ويخوض غمار المستنقعات ، ويستغنى بثوب واحد ، وهو مع حالة فقره يزداد رفعة وكمالاً ، وأخيراً سافر الى أمريكا وحضر مؤتمر الأديان الذى كان منعقدا فى واشنطون سنة ١٨٩٣ ، فخطب فيه وأخذ بألباب زعمائه المجتمعين به من كل حدب وصوب ، وقد انتخبوه رئيساً عليهم ، فأفاض على علماء أوربا وأمريكا من العلم اللدنى بما أدهشهم « كل هذا ملخص أقوال رومان رولان أعظم كتاب فرنسا الأحياء » .

فعرضوا عليه الأموال والمناصب فأبى ، ووصل الى انجلترا حيث خطب وكتب وكان له من الشأن أضعاف ماكان له فى امريكا . ثم سافر الى باريس وأخيراً عاد الى وطنه، وقد مات فى الرابعة والثلاثين من عمره .

أما علاقة هذين الرجلين بنهضة الهند الحديثة ، وتسلسل الحركة الوطنية واليقظة القومية من الحركة الصوفية ومن حياة هذين الرجلين بالذات فهذا مانتركه الى وقت أخر لنوفيه حقه من البحث والدرس .

ولما اطلع أحد أصدقائنا المصريين(١) على كتب رومان رولان وقرأ حياة هذين المتصوفين لاحظ أنه رأى متصوفاً مصرياً ينطبق كثير من أحواله على أحوالهما فدرسها ودوّنها وكتب الى رومان رولان يعرضها عليه فأجابه بقبولها على شرط إفراغها فى قالب فرنسى ، وقد رأينا الخطاب الذى ورد على صديقنا من رومان رولان وهو : فيلنيف (فو) فيلا أولغا ٦ مايو سنة ١٩٣٠ .. سيدى العزيز .. أشكرك على كتابك ، إننى أهتم كثيرا بمعرفة المتصوف المصرى الذى كتبت لى عنه ، ولما كنت سأتغيب فترة الصيف بضعة أشهر أرجو أن تبعث إلىّ بمبحثك الطريف أثناء الخريف لأتفرغ لقراءته ودرسه فى أحسن الظروف وأكثرها ملاءمة وتفضل ياسيدى بقبول فائق تحياتى « رومان رولان » .

وقد انقطع مابينى وبين صديقى لسفره إلى مدينة الأسكندرية فلا أدرى عن مؤلفه فى حياة المتصوف المصرى شيئاً . ولا أعلم هل نقله الى الفرنسية وأرسله الى المؤلف الشهير أم لا ، ولكننى كنت قد حصلت منه على معلومات أولية ألخصها للقراء وإليك ذلك : « توفى ذلك المتصوف فى أواخر العقد السادس من عمره فى يوم الأربعاء ١٦ ذى القعده ١٣٤٥ الموافق ١٨ مايو سنة ١٩٢٧ ، وقد ولد بالقاهرة وكان أبوه من علماء

---

(١) يرمز لطفى جمعه بذلك الى نفسه .

فن تجويد القرآن وكان إماما لإحدى الزوايا بالقاهرة ، وينتسب هذا البيت إلى الشريف الرضى وأصل نشأتهم فى العراق العربى وهم من حيث الإقامة بالقطر المصرى ، ينسبون إلى قرية سرسنا إحدى قرى مديرية المنوفية .

ولما نشأ ذلك الصبى « الذى صار فيما بعد محمد عبد السلام المتصوف » أقرأه أبوه القرآن الشريف فأتقنه حفظاً وتجويداً ، ثم التحق مجاوراً بالأزهر حيث قضى تسع سنين فى طلب العلم وكان أساتذته الشيخ راضى وكان يعتبره الطالب الأول المميز على أقرانه فإذا لم يجده يوماً فى الحلقة عدل عن الإلقاء وذهب الى داره يسأل عنه ويواسيه .

وروى الثقات من عارفيه عن حياته أثناء الطلب أنه كان يلبس ثياباً بسيطا لطيفة للغاية وأنه كان ثابتاً وقورا كثير الصمت قليل الكلام .

وكان فى مستهل العقد السادس متوسط الجسم ، ليس بديناً وليس نحيلا وهو أسمر الوجه جدا جميل الطلعة مقسم التقاطيع ، ما أخذت العين برأس أكمل فى تكوينه الطبيعى من رأسه ، فكان الناظر إلى جمجمته البيضاوية الشكل وجبينه العالى وجبهته العريضة وحاجبيه الدقيقين وأنفه الصغير المستقيم وعينيه النبيلتين وجفونهما الأقرب إلى الضيق منهما إلى الاتساع ، وفمه الجميل المتوسط وشفتيه الرقيقتين فى حسن استدارة وذقنه المتوسط فى الحجم مع تمام المناسبة بينهما وبين فكه الذى لا بروز فيه . وإلى ذلك أذنان جميلتان دقيقتان مرهفتان ، كأنهما أداتان من أدوات التلقى اللاسلكى . من نظر إلى هذه الصورة فى مجموعها وتأمل حجم رأسه بالنسبة الى بدنه وكيفية جمال الوضع مع الانسجام ، أيقن أن هذا الرأس وهذا الدماغ وهذا الوجه انما هو رأس حكيم عاقل عالم قد صنعها الخالق سبحانه وتعالى وأبدع فى صنعها وصبّها فى القالب الذى أفرغت فيه رؤوس أكابر الحكماء ، فى سائر الأمم القديمة والحديثة .

وكان أول ظهور حاله منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً فهجر حلقات الدرس تدريجاً ثم أخذ يتردد على آخر مسجد حضر فيه الدروس وهو مسجد الحلوجى ، فيقابل فيه أساتذته ورفاقه ثم انقطع بتاتاً ولزم داره ، وكانت له مكتبة عظيمة أنفق فى تكوينها مالاً طائلاً . فلما أدركته الحال أحرق مكتبته عن آخرها . وتزوج من فتاة ريفية اسمها « شلبية » وأقام معها شهراً فطلقها عنه أبوه وهى لاتزال على قيد الحياة ، ولم تتزوج ، ثم تجرد الشيخ من حاجات الدنيا ومطالبها وزهد فى شهواتها ورغائبها وأعرض عن زهوها وغرورها فآلى على نفسه القوية الأبية أن لاتملك شيئاً بعد أن تبصّرت ونظرت بعين اليقين فى عالم الحقيقة . فكان لايملك ثوباً ولا عمامة ولا قميصاً ولا منديلا ولا قميصاً ولا فراشاً ولا مالاً منقولا ولا ثابتا ولا يتقيد بمكان ولا زمان من حيث المنام أو الطعام أو الشراب .

وكان اذا دخل خلوته خلع ثوبه الوحيد المستعار سواء أكان جلبابا أم عباءة أم رداء وبقى عارى الجسد .

وقد رؤى فى سنة ١٩١٢ قبيل حروب البلقان يدخل مخازن الثياب الإفرنجية وهو بثيابه الشرقية ومعه رهط من مريديه وأحبابه فيشترى قبعات مختلفة الأشكال والألوان ويلبسها ويسير بها ، وفى تلك الفترة وقعت تلك الحروب المهولة التى تألبت فيها دول البلقان على تركيا .

وكان من عادته أن يحلق لحيته وشاربه وشعر رأسه حيناً من الزمن وأن يرسل ذلك حينا آخر ، وقد رأيناه لأول مرة حليقاً وانتقل الى رحمة الله وهو على أجمل مايكون منظراً وقد أرسل لحيته وشعر رأسه .

وكان من عادته أن يجلس فى خلوته وهى غرفة صغيرة داخلية تطل بنافذتين صغيرتين على حارة تؤدى الى ضريح الشيخ معروف ، على دكة من الخشب عليها وسادة وأمامه موقدان من الحديد أحدهما صغير والآخر كبير وبجوارهما سلة مملوءة

فحماً مصرياً وتكون النار موقدة فى الموقدين أو أحدهما فى معظم الأحيان ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاء وكان بجواره صندوق يضع فيه أعواد الثقاب بمقادير كبيرة ، وكان ورده المعروف « أجزر عينه ! جزر عينه فناه – قتله ، رماه ! ٠٠ » ٠

وكانت من أدواته مرآة ومروحة فيطيل نظره الى المرآة فى الطريق أو فى الخلوة ، أما المروحة المصنوعة من الريش فكان يروح بها هو أو أحد مريديه على النار ٠

وكانت سياحته اليومية تبدأ من باب الخلق فى صحبة مريد أو أكثر الى شارع تحت الربع فباب المتولى فالغورية فالأزهر فباب النصر أو الحسينية أو المشهد الحسينى أو باب الشعرية ، وقد تستغرق تلك السياحة ساعة أو ساعتين أو نصف يو أو ليلة بطولها ويزور كثيراً من الأماكن العامة كالقهوات والأفران والمطاعم ويغشى المآتم والأفراح ليسمع القرآن ٠ وكان يحب أن يصغى إلى سورة القصص فى آخر أيامه ويستعيدها مرات عدة ٠

وكانت عادته أن يستلقى على ظهره بعض اليوم ويندر أن تغمض عيناه أو يستغرق فى النوم ويسهر طول الليل جالساً ، ولم يكن البرد الشديد أو القيظ الشديد يؤثران فى بدنه مطلقاً وقد رأيناه وهو يتصبّب عرقاً بعد جلوسه أمام الموقد ساعات يخرج فى المسهك « تيار الهواء » ويدخل الى محل الماء ويطلق نافورة الماء البارد على بدنه ثم يعود الى حاله مرات متكررة ٠

وكان يطلب من مريديه نقوداً كثيرة أو قليلة يشترى بها فحما أو حلوى أو صابوناً أو كبريتاً أو مناديل جديدة وكان فصيح اللسان بليغ العبارة وكان أيام الطلب حجة فى علوم اللغة والفقه والأدب والموسيقا والمنطق والفلسفة ، وكان يحفظ الشىء الكثير من الأمثال والحكم والشعر القديم والحديث وغرائب اللغة ، وإذا سئل عن آية من القرآن الشريف دل على موضعها من سورتها بسرعة فائقة ٠ وهو يحفظ أسماء مشايخه ومشايخهم ومؤلفات كل منهم بالتفصيل والدقة ٠

. ولم ير أهل القاهرة رجلاً أعم محبة عند جميع الطبقات من هذا الشيخ وقد رأينا في حضرته علماء أعلاماً من أهل الشريعة وأكابر المتصوفة وكلهم مجمعون على تبجيله وتمجيده والتقرب إليه ، وهو يكرم الجميع ويحسن وفادتهم ويجود عليهم بما وهبه الله ويمنحهم من خيره وفضله بما يستحقه كل واحد على قدر نصيبه .

فإقرار علماء الشريعة بفضله دليل على معرفتهم بقدره ، والتفاف المتصوفين حوله اشارة على إدراكهم حقيقة أمره . وكان اذا سار في الطريق فجراً أو ليلا أو ظهراً هرع الناس من أماكنهم ودنوا منه للسلام عليه . فكان يقبل على معظمهم ويعرض عن بعضهم . وكانت علامة إكرامه لهم أن يطلب إلى أحدهم أن يسقيه ماء فإذا عاد بالإناء أمسكه الشيخ مدة ثم ناوله إياه دون أن يشرب أو يتناول عمامته أو طاقيته أو طربوشه ويبقيها في يده هنيهة ثم يردها اليه .

وكان في أول حاله يكثر من ذكر الحلاج ويشبّه نفسه به .

وأخبرنا المرحوم مصطفى بك نصر المدرس بمدرسة الحقوق سابقاً أنه سمع من والده أنه جاءته البشرى قبل مولده بأن رأى فيما يرى النائم أنه وقعت في حجره فسقية صغيرة من الفضة من شجرة باذخة في ليلة مقمرة وعقيب تلك الرؤيا ولد له صاحب الترجمة .

كما ولد لوالده ولدان صالحان فاضلان من أرباب الأحوال ومكارم الأخلاق هما الشيخ سيد عبد السلام والشيخ محمود عبد السلام وقد شربا من البحر الزاخر الذي شرب منه أخوهما الأكبر ووالدهما الموقر الذي كان كالشجرة الطيبة التي تهدي أعظم الثمار .

هذا ولم أقف من صديقي على تفصيل ماكتبه عن الشيخ من أنواع الكرامات أو الإنباء بالمستقبل أو الأسرار التي أفضى بها اليه . ولعله اذا اطلع على هذه العجالة لايبخل على قراء العربية بنتف صالحة من تاريخ حياة الشيخ محمد عبد السلام .

الشيخ محمد عبده(*)

وصلت الى يدنا حديثاً رسالة التوحيد تأليف المرحوم الشيخ محمد عبده منقولة الى اللغة الفرنسية ، وقد اشترك فى ذلك العمل الجليل النافع الأستاذ ب. ميشيل والشيخ مصطفى عبدالرازق فصدراها بترجمته ، ويلوح لنا أنهما أخطآ فى نسبة الشيخ الى الجنسية المصرية ، ولم يحققا نقطة ذات شأن ، فقد كان أبوه واسمه الشيخ خير الله كردياً ، وكل ماجاء على لسان الأستاذ الإمام فى وصف أبيه من إبائه الظلم وفراره من بيته فى أواخر عهد محمد على وعودته اليه فى عهد عباس الأول ، وإتقانه ركوب الخيل وحسن الرماية ، وما كان يبدو على سيماه من دلائل الكبرياء والوقار يدل على انحداره من جنس شرقى أجنبى عن مصر ، ولعل هذه الجنسية هى سبب الصداقة المتينة التى كانت تربط الشيخ بالمرحوم قاسم أمين الذى كان كردياً صميماً، وهى التى جعلته يبادر الى التلقى عن جمال الدين الأفغانى ، فكان أحب تلاميذه إليه ، وكان رفيقه فى حله وترحاله وشريكه فى تأليف كتبه ورسائله وتحرير مجلته ، ولعل الشيخ محمد عبده أكثر المصريين إفادة من جمال الدين .

وإن فى نفور محمد عبده من التعليم النظامى ، والخروج على قيوده ، وحبه ركوب الخيل وحياة الطبيعة الحرة الطليقة ، وانتحاله فكرة الثورة وصيرورته روحها ومرشدها ، وفى اتجاهه الى التصوف فى بداية أمره ثم عدوله ، واكتفائه من الدين بالعبادة المفروضة والمستنة ، ثم ظهوره بفكرة الإصلاح فى مجلس الشورى وفى الأزهر

(*) مقال نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٠ يوليه سنة ١٩٢٩ تحت عنوان « الشيخ محمد عبده ، وصف مجلسه وأحاديثه وبعض آرائه » .

وفى القضاء وفى الأدب ، فى ذلك كله أدلة على امتزاج الأصل الأجنبى الشرقى بالعنصر المصرى الكريم الفلاحى ، فإننا لاننازع فى مصرية أمه ، التى كانت فضلى الأمهات .

كان الشيخ محمد عبده الذى أدركته عام ١٩٠٣ « ربعة » بين الرجال أسمر اللون ، أبيض الشعر ، حديد البصر ، ليس نحيفاً وليس بادناً ، وكانت تقاسيم وجهه تحببه إلى من يلقاه ، دع عنك خفة الروح والجاذبية القوية التى كانت تشع عنه دأب كل عالم وعظيم ، وكان صوته هادئاً جميلا ، يتكلم بتؤدة وبساطة ويتأنى فى حديثه ، مع استمرار النظر الى المخاطب كأنه يحاول غرس أقواله فى أعماق نفس محدثه ، وقد تعرفتُ الى الشيخ بغير واسطة فكتبت إليه خطاباً ثم زرته وتكررت زيارتى له مرات ، وكان مجلسه يحفل بكبراء مصر وأدبائها وبعض الأجانب ، كما كان بيته فى عين الشمس ملجأ الكثيرين من ذوى الحاجات وطلاب المقاصد الشريفة . وكانت بين الشيخ وبين المرحوم ويلفريد سكوين بلنت أواصر مودة قوية ، وكان بلنت يقيم فى قصر فخم ذى حديقة غناء فى « الشيخ عبيد » على مقربة من عين شمس ، وهو الذى أقطع الشيخ الأرض التى بنى عليها بيته بالطوب « الآجر الذى لم تنضجه النار » وكان يزور الشيخ لابساً عباءة وعقالا ، ومعظم حديثهما بالفرنسية ، وكان الأستاذ يدعو بعض نجباء المصريين ويجمعهم لدى بلنت ليأنس اليهم ومنهم محمد المويلحى وعلى يوسف وحافظ إبراهيم ، وكان بلنت يقيد أحاديثهم وكثيراً ما أمد الجمعية الخيرية الإسلامية بماله خفية لوجه الله .

وكان الشيخ محمد عبده فى أيامه الأخيرة مريضاً بسرطان فى الكبد متبرماً بالحياة ضجراً من الذى عاناه فى حياته التى كانت سلسلة جهاد وكفاح ، ومما سمعته منه ودّونته قوله :

« لايوجد فى الوقت الحاضر رجل أشقى حظاً من الرجل المتميز المنور فى مصر

اذا كان مصرى الجنس ، لأنه مقصوص الجناح مقلم الأظفار فى سائر الناحيات التى يمكن أن يكون بها نافعاً ٠ فإن عناصر الخيبة والفشل و وعدد المحاربة الموجهة اليه من الأوساط المختلفة ، لا تمكن مقاومتها مطلقاً ٠ والأدهى والأمر من هذا أن الفوضى الضاربة أطنابها فى جميع مظاهر الحياة المصرية تنقلب نظاماً عجيباً محكماً لدى حشد جيوش المقاومة للرجل النافع أو الرجل العظيم ، وتعمل ضده قوى من قوى الظلام التى تبدو للغير الخبير لا شىء ، وهى فى الحقيقة قوى عظيمة خفية غامضة ، كأنها شيطانية أو سحرية ، وكأن بين جميع الأفراد والجماعات تفاهماً سرياً على الوصول الى نتيجة واحدة وهى تخييب جميع مساعى الفرد النافع ، فى كل اتجاه يقصده !! وقد تصل المحاربات المذكورة الى درجة تجعل حياة الشخص وعقله وكيانه المعنوى فى خطر ولكن الحياة تنجو باتفاقات القضاء والقدر ، وعقله ينجو مصداقاً للنظرية القائلة « بأن العقل السليم لايتهدم أمام الحوادث مهما عظمت ، وإن كان يعتريه ألم أو اضطراب ، ولكنه لايفقد مطلقاً توازنه ولايتأثر جوهره » كذلك كيانه المعنوى يحتفظ بقوة إرادته ٠

«ومهما يكن الرجل نابغاً أو موهوباً ، ذا صفات فعالة فى عالم الماديات أو الأدبيات فلن يجد ميداناً لأعماله ولن يجد متسعاً لجهاده ، بل سوف يجد سخرية ممن هم أجدر الناس بتشجيعه وأحوجهم الى جهوده ، وسوف يجد تثبيطاً من قرنائه وأصدقائه وأحبابه وأهله ، وسوف يجد النكران والمعاداة والمصادمة من الذين كان ينظر اليهم بعين الرجاء والعشم ، وسيمر به الأشخاص مرور المحبين للاستطلاع كأنه بعض عجائب المخلوقات وسيشيرون اليه بالبنان كما يشيرون الى الكائنات الشاذة ، وهم يعلمون تميزه وظهوره ولكنهم يحاولون قهره وإذلاله والتقليل من قدره لقتل عظمته فى مهدها ، لغيرة خفية فى نفوسهم ، وإن كانوا يعلمون أنهم لن يبلغوا شأوه ولحقد طويت عليه ضمائرهم لايمكنهم تعليله أو تفسيره ، ولعله من بين الرذائل الموروثة ٠ وهم

بالجملة ينظرون الى ذلك الرجل المتميز نظرهم الى إنسان غريب عنهم ، وعن أخلاقهم، بعيد عن إحساسهم وعن طبيعتهم .

«ومن غرائب الظواهر التى ظهرت أخيراً فى مصر وصارت واضحة فاضحة بعد الحوادث العرابية بعشرين عاماً أن كل واحد من الزعانف والصعاليك والمقززين «ترجمة صحيحة للفظ Snobs » والإمّعات أصبح يزاحم بالمناكب أرباب الخصال الحميدة والمواهب الظاهرة والفضائل المحمودة ويقول « لماذا يكون فلان أفضل منى أو أعقل أو أكرم ؟ إننا فى زمن المساواة ! » ولعمرك ماهذا القول إلا دليلا على تردّى قائله فى مهاوى الجهل ، لأن الأمم التى سادت لديها نظريات المساواة والتى نحكيها تقليداً، هى أعظم الجماعات تكبيراً للعظماء وتقديراً لفضلهم وخضوعاً لإرادتهم وتسليماً بمواهبهم واستسلاماً لهم بضمائر خالصة ، وهذه الأمم تساعدهم وتعضدهم وتأخذ بأيديهم وترفعهم على رؤوسها وتعطيهم حقوقهم وتملكهم قيادها ، فعلة سقوط الشرق محاربة شعوبه لعظمائه والتواطؤ على هلاكهم « انتهى كلام الأستاذ الإمام » .

وكان الاستاذ الامام يتكلم متدفعاً كالسيل ولكن فى هوادة ورقة ، ولئن شعر السامع بقوة الحديث وكلامه وتدفقه فإنما يشعر أيضاً بأنه ماء السيل عذب سلسبيل ، تزينها نبرات الصوت المطربة.

وكان الشيخ عدا أحاديثه فى المسائل العامة على هذا الأسلوب الشائق يتفكه أحياناً ويروى ملحاً يطلق عليها اسم « لطائف » ومعظمها مقتبس من الآداب الأجنبية، ومما نذكره ملحة أطلق عليها اسم « لطيفة فارسية » قال رحمه الله : « مر رجل فارسى بآخر كردى جالساً الى جدار وبجواره جراب ممتلىء ، وأمامه كلب مريض يتلوى ويتضور ، والكردى ينظر الى الكلب العليل الذى يعوى عواء النزع بألم ظاهر ويقلب فيه أجفانه بلوعة ظاهرة ويشفق عليه بألفاظ رقيقة ، فاستوقف هذا المنظر العجيب ذلك الفارسى فحيّا الكردى فى رفق وسأله عن الكلب ماذا تكون حاله ؟

فأجاب الكردى : إنه كما ترى كلب يموت !

الفارسى : ومم يموت ياسيدى ؟

الكردى : من الجوع ..

الفارسى : ولمن يكون هذا الكلب المسكين ؟

الكردى : هو بلا ريب كلبى ...

الفارسى : وما هذا الجراب الذى بجوارك ياسيدى ؟

الكردى : هو جرابى الذى أنقل فيه أمتعتى

الفارسى : أراه منتفخاً فما به ؟

الكردى : مآكل ومطاعم وأقوات وزاد وذخيرة

الفارسى : الحمد لله ! اذا كان الكلب كلبك والجراب بما فيه ملكك ، وأنت مشفق على هذا الحيوان الأعجم الذى يجود بنفسه جوعاً ، ولديك ما يسدّ رمقه فلماذا لاتعطيه فتحييه ؟

الكردى : لم تصل بيننا المودة الى هذا الحد !! » .

وكان الشيخ رحمه الله يضحك لدى الفراغ من روايته هذه اللطيفة ، وهو يستخرج مغزاها بنظراته وإيمائه اللطيف ، ويستدرج السامع ليستنتج بنفسه جمال المعنى وحسن تطبيقه على بعض أمم الشرق التى تجود بالأقوال الفياضة والعواطف المتدفقة وتضن بالمال والفعال ، فهم ذوو دين ووطنية يملآن القلوب ولكنها لاتصل الى الجيوب .

وكان الشيخ رحمه الله يتمثل أحياناً ببعض الشعر ، ومما دونته عنه قول شاعر لا أذكره :

ذرنى وأشياء فى نفسى مخبأة
لألبسنَّ لها درعاً وجلبابا

والله لو ظفرت نفسى بطلبتها
ماكنت عن ضرب أعناق الورى آبى
حتى أطهّر هذا الكون من دنس
وأوجب الحق للسادات إيجابا
وأملأ الأرض عدلا بعد ماملئت
ظلماً وأفتح للخيرات أبوابا

وكان يفسر « السادات » بأنهم أرباب النفوس السامية والمواهب العليا ومن يقصدهم الفرنسيون بقولهم Les âmés bien nées

ودخل عليه مرة المرحوم حموده عبده شقيقه وقاطعه ليخاطبه فى شأن جماعة جاءوا لشراء قطعة من الأرض مما كان يملكه الشيخ من أصل هبة بلغت إياه ، فغضب الشيخ وتهاون فى فرار فرصة تلك الصفقة دون قطع حديثه ، وغضب حمودة لذلك واحتدّ ، فلم يأبه الشيخ لغضبه واستمر فى حديثه متمثلا ببيتين للنمربن تولب :

أعاذل إن يصبح صداى بقفرة
بعيداً فأتى صاحبى وقريبى
ترى أن ما أبقيت لم أك ربّه
وأن الذى أنفقت كان نصيبى

واتصل بالشيخ الإمام أن أميراً شرقياً كبيراً تخلى عن زعيم سياسى كان يصادقه ويساعده ويعضده ، وقد وقف الزعيم جهوده على الدفاع عن ذلك الأمير وصيانته ، وكان سبب التخلى وشاية شيخ صحفى ، لمسألة زوجية شهيرة حدثت فى أوائل القرن العشرين ، فأسف الأستاذ لما حدث بين الأمير والزعيم وقال يحق لفلان باشا « وذكر اسم الزعيم الشاب » أن يتمثل بقول الشاعر :

وأنت الذى أخلفتنى ماوعدتنى
وأشمتَّ بى من كان فيك يلوم
وأبرزتنى للناس ثم تركتنى
لهم هدفاً أرمى وأنت سليم
ولو أن قولا يكلم الجسم ، قد غدا
بجسمى ، من قول الوشاة ، كلوم

وكان لهذه الأبيات وقع شديد فى نفوس سامعيها لدقة ظروف التمثيل بها ، وصدق المناسبات التى تذكر فيها حتى يخيل إلينا أن الشيخ رحمه الله هو ناظمها(١).

ومن أعجب ماعلمنا من الصحف أن أرملة الشيخ عاشت أكثر من عشرين عاماً بمرتب شهرى قيمته مائة وخمسون قرشاً صاغا ، ولكن ليس فى مصر شىء عجيب لأنها بلد العجائب !

* * * *

تشرفت بمعرفة الأستاذ الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٣(٢) ، وكان لسبب تعرفى به مطالعتى مقالاته التى كتبها رداً على كتاب «ابن رشد وفلسفته» الذى ألفه صديقى المرحوم فرح انطون ، فكتبت الى الأستاذ الإمام أطلب التشرف

---

(١) يشير لطفى جمعه الى الخلاف الذى وقع بين الخديو عباس والزعيم مصطفى كامل بسبب قضية الشيخ على يوسف المعروفة بقضية الزوجية ، فاتخذ مصطفى كامل هذه القضية فرصة للنيل من الشيخ على يوسف ، فى حين نصر الخديو عباس صاحب المؤيد الذى كان خادمه الأمين ولسان حاله وعينه وأذنه ، وكان أعظم من عاداهم الشيخ على يوسف بسبب هذه القضية الشيخ محمد عبده لأنه اعتقد ان الشيخ محمد عبده يكيد له « راجع فى تفصيل ذلك كتاب « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الاعلام » تأليف رابح لطفى جمعه ، ص ١٥٥ ، سنة ١٩٩١ .

(٢) ابتداء من هذه الفقره نثبت هنا مقال لطفى جمعه الذى نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٣٠ إبريل سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « كيف حرمت من تأبين المرحوم ، الشيخ محمد عبده فى *القاهرة* وكيف وصلت إلى غايتى فى مدينة الإسكندرية » .

بمقابلته ، فدعاني الى منزله ، وشملني بعطفه ولم تنقطع زيارتي له في صحته ولا في مرضه ، ولما اعتزمت الرحيل الى سوريا لطلب العلم في كلية الأمريكان كتب اليّ مكاتيب توصية الى لفيف من أعيان المدينة ومن بينهم صهره المرحوم السيد محيي الدين حماده الذي كان وكيل شركة البواخر الخديوية ، ولم تنقطع مراسلتي للشيخ ، ولما عدت كان أول رجل زرته هو ذلك الأستاذ العظيم ، وهذه حقائق يعرفها كثيرون من الأحياء والمعاصرين أمثال السيد رشيد رضا ، الذي لاتزال في عهدته مجموعة من مكاتيبي الى الشيخ ، والأستاذ محمد بك حافظ إبراهيم وغيرهما ٠٠٠ وكان آخر لقاء بيني وبينه في رمل الاسكندرية قبيل وفاته بأيام ، وكنت أول شخص قرأ له حافظ إبراهيم الأبيات الأولى من مرثاته البليغة التائية :

سلام على الإسلام بعد محمد
سلام على أيامه النضرات

ولما توفي الشيخ كتبت بضع مقالات في الصحف في تاريخ حياته وأعماله ، وعقدت اجتماعات كثيرة لتأبينه وتشرّفت بالتكلم فيها عن مناقبه ٠ ولا عجب فقد حضرت بعض دروس الأستاذ وغذيت نفسي بكثير من مقالاته ومؤلفاته وتمتعت بحديثه العذب وأخلاقه الكريمة وانتفعت بتوصيته في سوريا فكان طبيعياً بعد هذا كله ، عندما أعلن لفيف من كبراء الأمة عزمهم على إحياء ذكراه بعد سبعة عشر عاماً لموته ، وألّفوا لجنة لذلك وطلبوا من الخطباء والشعراء أن يعلنوا رغبتهم في الاشتراك في تأبينه ، أقول ليس عجيباً ولا مستغرباً أن أبادر حينئذ « شهر يونيو سنة ١٩٢٢ » الى مراسلة اللجنة وطلبي منها أن تتيح لي فرصة للتعبير عن عواطف احترامي وتقديري وإعجابي بأستاذي المرحوم ، وقد كنت أقرب إليه بالفكر والعقيدة والمبادىء من كثيرين ممن دعوا الى هذه الحفلة ٠

ومهما يكن الخلاف السياسى بينى وبين فريق من السادة الأمجاد الذين قاموا بهذه الحركة ، بعد أن نبههم اليها أديب فاضل من قراء الصحف ، فلم أكن أظن أنهم يفكرون فى حرمانى أنا وغيرى من مريدى الأستاذ وتلاميذه من إظهار عواطفنا نحوه فى تلك الذكرى ٠ ولأجل هذا بادرت فى يوم ٨ يوليو سنة ١٩٢٢ بالكتابة الى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت أخبره بعزمى على تأبين الأستاذ وأعرض عليه نص الكلمة التى سألقيها كما هى العادة فتفضل ذلك العالم الفاضل وأجابنى بالكتاب الآتى :

الخرنفش فى ١١ يوليو سنة ١٩٢٢ « هذا تاريخ طابع البريد على الغلاف » ..
بعد إهداء السلام لقد استلمت خطابك بيد السرور وعلمت مافيه وإنى لا أرى مانعاً من أن تكون بين الخطباء خصوصاً لما أعلمه من أنك مجيد عظيم غير أن مدة الحفلة ستكون ساعتين فقط فأرجوك أن تقابل الشيخ مصطفى عبد الرازق لكى تقسموا هذا الوقت على الخطباء (كذا) ومع ذلك يمكنك أن تلقى كلمة وجيزة بقدر الإمكان وفيّة الكلام وإنى ممنون ومتشكر لهذه الصداقة التى جعلتك تخاطبنى ، فإنى أود أن تدوم العلاقة بينى وبين أولادنا النجباء أمثالك واقبلوا فائق الاحترام ٠٠ محمد بخيت

فقرأت هذا الكتاب بسرور عظيم وشكرت لفضيلة الأستاذ كرم أخلاقه وسمو آدابه وعطفه على الضعفاء ، وسرنى جداً قوله « لكى تقسموا هذا الوقت على الخطباء » أى أنه جعل لى وهو رئيس اللجنة مشاركة فى تقسيم الوقت وترتيب الخطباء ٠٠ وكان صاحب الفضيلة مصمماً فى كل حال حتى ولو ضاق الوقت ، على أن « ألقى كلمة وجيزة » فبادرت بالكتابة الى صديقى الفاضل صاحب الفضيلة السيد مصطفى عبدالرازق وأرسلت اليه صورة من خطاب فضيلة الشيخ بخيت ونص كلمتى ، وكانت لاتستغرق أكثر من عشر دقائق لأننى أعتقد أن الخطيب الذى لايستطيع أن يقول فى عشر دقائق مايجب أن يقال فخير له أن لايقول ٠٠

وانتظرت النتيجة أى رد فضيلة السيد مصطفى عبدالرازق على خطابى ، وبعد أيام ورد إلى الجواب الآتى :

حضرة الأستاذ لطفى جمعه

قررت لجنة الاحتفال بإحياء ذكرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن تشكر لحضرتكم ماتفضلتم به من إظهار الرغبة فى إلقاء كلمة بالحفلة . ولقد كانت اللجنة حريصة على أن تجيب رغبتكم النبيلة لولا أن اضطرها ضيق الوقت الى الاقتصار على عدد من الخطباء محدود جداً لم يتّسع لكثير من أصدقاء الإمام وتلاميذه وأنصاره الذين كانوا يودون أن تمكنهم الفرص من إلقاء شيء فى الاحتفال واللجنة مع اعتذارها لحضرتكم ترجو أن لايحرم الجمهور من تلاوة مقالكم فى المجموعة التى ستنشر متضمنة مايلقى فى الحفلة ومايختار من المقالات والقصائد التى ترد الى اللجنة .

وتفضلوا بقبول تحياتى الخالصة واحترامى ... مصطفى عبد الرازق

وأنا واثق من صداقة السيد مصطفى وإخلاصه ، ولا أوجه اليه عتاباً بعد أن وقفت على الحقيقة ، فإنما كان السيد الفاضل سكرتير اللجنة ، كما كان فضيلة الشيخ بخيت رئيسها ، ولكن كما هو العادة كانت هناك أوامر معينة أو خطة مرسومة أو مايسميه الفرنسيون : mot d'ordre أن لايخطب فى هذا الاحتفال أى إنسان لايتفق مع شخص خفى فى السياسة والمبدأ ، ولكنه لم يكن ليجاهر بهذا اللجنة وفيها رجال أشراف مستقلو الرأى أمثال الشيخ بخيت والشيخ مصطفى ، إنما كان يحصل الرفض بطريقة التنهد وتحويل الوجه ، والشخص الخفى أحول النظرات وبطيء فى الكلمات ويقلد أحياناً ألفاظ الفلاحين تجملا وتظرفاً مع بعده الشاسع عن الجمال والظرافة ، وقد حاولت الوقوف على اسمه لأذكره للقراء فلم أتمكن للأسف الشديد فإذا

ورد أمامه اسم شخص معين لايحبه هو أو لايريد خطابته ، يفعل الحركات التى ذكرتها آنفا ثم يقول فى رزانة وتصنع :

– ما علينا ياشيخ بجا « بقى » إحنا جاعدين « قاعدين » علشان نظهر خطباهم على خطبانا ..

وقد علمت أن هذا هو الذى حدث فى حالتى ، وطبعاً بعض أعضاء اللجنة يضطرون للمجاملة والملاطفة ، فيضحون علاقتى بهم وخطبتى إكراماً لحول عينى ذلك الانسان ، الذى قيل لى بعد ذلك إنه صار من أعدى أعداء المرحوم سعد باشا بعد أن كان من أتباعه وتلاميذه ، والمدهش أنَّ سبب علاقته بالشيخ عبده ترجع الى تحككه بالمرحوم سعد باشا ، فبعد إظهار خصومته للمرحوم سعد باشا استمر يتحكك بالمفتى المتوفى ، فانظر الى هذه المعقولية العجيبة التى لاتنجلى ولا تقبل ولا يسكت عليها إلا فى مصر .

فلما وصل إلىّ خطاب السيد مصطفى عبدالرازق عجبت كثيراً ، ولم أجد مجالاً لمراجعة الشيخ بخيت ، فأين المسافة من « قسّموا الوقت بين الخطباء » وبين « اللجنة تشكركم وتعتذر » فعلمت أن الرجلين بريئان من هذه الدسيسة وأن صاحبها هو ذلك الشخص الذى وصفه محدثى بأنه « محراك الشر » فى كل زمان ومكان ، وقال لى أيضا إن الحوادث أيدت صدق رأيه فيه .

والأعجب من كل ماتقدم أننى انتظرت أن تصل الىّ رقعة الدعوة الى الاحتفال فخاب ظنى ، ولم تفكر اللجنة التى تشكرنى وتعتذر فى دعوتى دعوة بسيطة كما دعت مئات الأشخاص من كل الطبقات ، ومع ذلك قد حضرت الاحتفال غير مدعو ، واستقبلنى بالباب أفندى من الخطباء ، ونظر الىّ شزراً وكان يعلم الحديث كله من البداية الى النهاية ، وكان يعلم أننى غير مدعو ، وهمَّ يسألنى عن تذكرة الدعوة أو ينفينى ثم خجل .

وقد سمعنا فى تلك الحفلة المعجب والمطرب ، فقد خطب أحدهم وقال « إن الشيخ محمد عبده كان عظيماً جدا رجل عظيم (كذا) وأننى لم أره ولم أحادثه فى حياتى ، لأننى كنت فى المدرسة ، ولكننى كنت أسير مرة مع بعض أصدقائى ورأينا رجلا عظيما يدخل من باب وزارة الحقانية ، فرأينا ظهره .. وقيل لنا إنه الشيخ محمد عبده إنه كان رجلا عظيماً جداً » .

وخطب الشيخ الزنكلونى ، فضيّقوا عليه الخناق ومنع من التكلم فى السياسة وعدم التفوه بذكرى سعد والسعديين ، ومن العجب أن الشيخ محمد عبده لم يصل الى شهرته إلا بالسياسة ، لأنه لولا اشتغاله بالحركة العرابية ومشاركته فيها وتحريره فى الصحف وانتخابه عضواً فى المجالس التشريعية لم يكن ليعرفه أحد بأكثر من كونه عالماً مصلحاً مضطهداً ، ومع ذلك قد حرموا الكلام فى السياسة لأنهم يخافون من ذكر سعد ولايرغبون فى تكدير صفو الوزارة الثروتية .

وبعد نهاية الحفلة أرسلت الخطاب الآتى الى أحد أصدقائى من رجال اللجنة ولا أريد التصريح باسمه الآن(١) .

سيدى الاستاذ الجليل صاحب الفضيلة والكمال فلان حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تسلمت بيد السرور خطاب فضيلتكم المؤرخ ٩ يوليو سنة ١٩٢٢ فاشكر لكم تنازلكم وتفضلكم بالرد وقد علمت منه أن لجنة الاحتفال بإحياء ذكرى الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده تفضلت لطفاً منها وكرماً بشكرى على إظهار رغبتى فى إلقاء كلمة بالحفلة ولكنها فى الوقت ذاته تعتذر عن إجابة ملتمسى لضيق الوقت الذى اضطرها الى الاقتصار على عدد محدود جداً من الخطباء . وإننى ياسيدى الأستاذ الكامل أنتهز هذه الفرصة لأكرر الثناء على اللجنة

---

(١) هو الشيخ مصطفى عبد الرازق .

على عملها الجليل وأشكرها على أنها أنقذتنى من مأزق ولم ترض لى الموقف الحرج . فإنه على الرغم من أننى لم أدع الى الحفلة برقعة كغيرى من خلق الله حتى كدت أنشد مع الشاعر القديم :

ما الذى ضر مدير الجام لو جاملنا

فإن حبى لإحياء ذكرى الأستاذ الإمام دفعنى الى حضور الحفلة بغير دعوة فاعذر ياسيدى الاستاذ الأجل هذا الاندفاع منى فى سبيل العلم والأدب ، وكان من حسن بختى أن حظيت بسماع الخطباء لاسيما .. فحمدت الله الذى ألهمكم ياسيدى فكرة عدم إجابة رغبتى الأولى الطائشة ، فأين كان يذهب الضعيف كاتب هذه الأسطر بين هؤلاء الفطاحل الذين اعتلوا منبر الخطابة وفى أية سوق كنت أعرض بضاعتى الضئيلة وقد جعلتم من الحفلة عكاظاً أخرى أحق بالثناء وأحرى ، بل ما أبعد أمثالى «العلمانيين» Profane عن هذا الهيكل المقدس والمقام الأسنى والمجال الأعلى ، ولو علمت وحقك ياسيدى الأستاذ أن فلانا هو خطيب الحفلة وسيحف به من رأيت وسمعت من الخطباء والمتكلمين والعلماء الأعلام والأساتذة الكرام ماحدثتنى نفسى أن أتطفل على تلك المائدة بغير فائدة . لأننى أؤكد لسيدى الأستاذ أننى حقا استفدت أولاً وطربت ثانياً وحمدت الله وأثنيت على اللجنة ثالثا ورابعاً فقد كان الوقت من تبر وعسجد ، وكان كل خطيب كالعلم المفرد ولكل قول ألقى علينا لذة تتجدد . هذا وإننى ياسيدى الأستاذ أقسم لك بقبر الاستاذ الامام الأبرّ أننى لم أظهر رغبتى فى الخطابة حباً بها أو سعياً وراء شهرة أستفيدها أو استشفاء من داء الكلام Maladie de la chair الذى أصيب به بعض الناس فى هذه الأيام ، ولكن كان ذلك قياماً بواجب واعترافاً بجميل ، فقد تشرفت بمعرفة الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٣ ولدىّ منه رسائل شتى وكان مرشدى و معينى فى التعليم فى بيروت فى سنه ١٩٠٢ ويعلم ذلك جيداً كل من السيد محيى الدين حمادة والشيخ رشيد رضا ورثيته يوم ١٥

يوليو سنة ١٩٠٥ فى محفل كبير ماسونى وفى جمعية النشأة الحديثة بالقاهرة وبعد أن شاركت فى تشييع الجنازة فى الثغر وفى مصر ، وحفلة التأبين المذكورة مثبتة فى الصحف - فانظر ياسيدى إلى عجائب الدهر التى جعلتنى فى العشرين من عمرى كفوءاً لتأبين هذا الرجل العظيم والاشتراك فى تكريمه وحرمتنى هذه النعمه إذ شارفت على الأربعين، حقاً إن فى ذلك لعبرة لمن يتأمل ، ولعل الناس فى أوائل هذا الجيل كانوا من البساطة بحيث أباحوا لى تكريم العظماء وكان من الأجدر بهم أن يحتكروه تعظيماً لقدره ورفعة شأنه وأن يقصروا الاشتراك فى إحياء ذكره على كل عالم عظيم أو نبيل جليل أوسرى كريم ، واعلم سيدى الأستاذ فى الختام أننى لم أجرؤ على الكتابة السالفه إلى مقامك إلا بعد أن ورد لى خطاب من حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت بخط يده الكريمة جاء فيه « ومع ذلك فيمكنك أن تلقى كلمة وجيزة بقدر الإمكان وإنى ممنون .. الخ » وبقيت بعد ذلك أفكر فى « تنظيم الاضطهاد » الذى أتقنه جماعة المصريين أو Clique أى شلة معينة سواء أكان ذلك فى السياسة أم فى الأدب ، وإننى أعتبر هذا العمل مضراً بالمجتمع ضرراً بالغاً ، فقد ظهر أن الخطباء الذين خطبوا فى الحفلة ، ماعدا صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق المؤرخ الفاضل والكاتب البليغ والمفكر الصادق ، كانوا كلهم خطباء ضرورة ، تغتم نفس الشيخ محمد عبده لو سمعهم حياً أو ميتاً . ولاسيما ذلك المطربش الذى قال إنه عرف الشيخ من ظهره ، وقيل له إنه الشيخ محمد عبده !

إذن لم يكن منعي لتقديم فطاحل الخطباء ولا لتفضيل علماء مصر على غيرهم ، ولكن لمجرد عدم انتمائى لهذه « الشله » سياسياً ولاعقلياً ولاأخلاقياً .

ولاحظ جيداً أن رجالاً أمثال الشيخ بخيت والشيخ مصطفى عبد الرازق هم أنفسهم ضحايا لهذة الشلة ، لأنهم يتخذونهم ستاراً لما اشتهروا به من العلم والفضل وكرم الأخلاق وسعة الصدر فتعمل تلك الشله وراء اسميهما وهذا من أغرب الأمور ،

وطبعاً هذه « الشلة» قد انفضحت الآن تماماً وظهر أنهم جماعة من الوصوليين ودعاة الهزيمة والاندحار وفريق من المغامرين فى السياسة والعلم والآدب وقد أنقذ الله من مخالبها بعض رجالنا الصادقين الذين كانوا على وشك الذهاب ضحية لها أمثال صديقى العزيز الفاضل الأستاذ الدكتور منصور بك فهمى ، فانه كان فى فترة ما مسحوراً بأقوالهم الخلابة ومخادعتهم البراقه حتى استبان النور من الظلام ونجا بعلمه وخلقه وعقله وقلبه والحمد لله .

نرجع إلى تأبين الشيخ فى الاسكندرية ، فقد علمت أن اللجنة قد تألفت فى الثغر لهذا الغرض فبادرت بالكتابة اليها وبادرت اللجنة بدعوتى ، لانه لم يكن بين أعضائها دساسون ولا مراءون ولا متنطعون مدّعون كصاحبنا الأحول المرذول الذى يقلد أقوال الفلاحين تظرفاً وهو أبرد وأسخف خلق الله إنساناً .

وأرسل إلىّ الصديق الدكتور الاستاذ مرسى محمود المحامى الخطاب الآتى :

الاسكندريه فى ١٢ يوليو

عزيزى لطفى

سلاماً وشوقاً ، وبعد فقد وزعت لجنة الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده المواضيع على الخطباء وخصتكم بموضوع دقيق ألا وهو التكلم عن الأستاذ الإمام كمصلح للقضاء وهو موضوع يتناول البحث فى المشروعات الإصلاحية كالمحاكم الشرعية وماذا كان يريد بها الفقيد رحمه الله وكيف أنه فى الواقع لامس مسألة من أدق المسائل الحيوية ، ولو تم كل أو أكثر ما فكر فيه لما شكا الناس هذه الشكوى التى نسمعها كل يوم ، واللجنة ترجوك أن تتفضل بالحضور للاسكندرية قبل الاحتفال بيوم أو يومين لتشاركها النظر فيما هولازم ، سيكون الاحتفال بتياترو الحمراء يوم الاثنين ١٧ يوليو سنه ١٩٢٢ الساعة الخامسه مساء وإليك تحيتى وحبى .

وكان مرسح الاحتفال فخماً. وبين أعضاء اللجنة كرسى المغفور له صاحب الدولة محمد سعيد باشا وعرفان باشا وسليمان بك يسرى وكل قضاة البلد الأهليين والشرعيين ومحاميها وأساتذتها وبعض رجال النيابة ٠

وقد حدث فى هذه الحفلة حادث غريب وهو أن إبراهيم الهلباوى بك حاول الخطابة ، فحدث أن فريقاً كبيراً من السيدات عارضن فى ذلك ، ونطقن بعبارات تاريخية وذكرن اسم إحدى قرى الفلاحين إشارة الى بعض الحوادث(١) وعطلن الاحتفال بكل ما فيهن من قوة على الصراخ والصياح « وهى عظيمة » ، وعلى الرغم من قوة إرادة الهلباوى بك وشدة شكيمته غلبه اجتماع الأصوات ٠ ولكن بعض أعضاء اللجنة صمم على أن يخطب الهلباوى وأن يسود السكون ، وعندئذ انضم الرجال الى النساء وعلت أصوات الجميع على أصوات الأمواج وأصبح مسرح الحفل كأنه سوق عظيمه هائجة ٠ وأخيراً وقعت القرعة على شخص معروف أن يخطب ذلك الجمهور الهائج المكون من جنسين ، فتقدم وألقى كلمة وجيزة وأثر فى آذانهم بحجة قوية واستدرجهم بنادرة لطيفة ، وما زال بهم حتى أدخل السرور على أنفسهم فابتسموا ثم ضحكوا ٠٠٠٠٠ ثم تسامحوا ، لأن الضحك ينزع سلاح الغضبان ٠ فرجاهم فى أن يسمحوا للأستاذ الهلباوى بك بالكلام ، فسمحوا وتكلم الرجل ودفع دينه لصديقه ، وأظن أن حضرة صاحب العزة الهلباوى بك يذكر هذة الحادثة وأشخاصها وإن كان قد مضى عليها ثمان سنوات ٠وانتهت الحفلة فى الساعة التاسعة بعدأن دامت أربع ساعات ، وقضيت وقتاً سعيداً فى بيت صديقى سليمان يسرى بك وعدت الى القاهرة فى قطار الصباح بعد أن أديت دينى للأستاذ الراحل ٠

---

(١) يشير لطفى جمعه الى موقف إبراهيم الهلباوى من تمثيل الاتهام فى حادثة دنشواى حتى أن الشيخ عبد العزيز جاويش أطلق عليه وصف « جلاد دنشواى » ، ووجه اليه الشاعر حافظ إبراهيم قصيدته الدالية التى يقول فيها :

أيها المدعى العمومى مهلاً بعض هذا فقد بلغت المرادا
إيه يا مدره القضاء ويامن ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

يقال فى الكتب العربية القديمة ، تبعا لحديث محمدى شريف « إن الله يبعث على رأس كل قرن رجلا يجدد حياة هذه الأمة »(١) .

وقد أجمع العلماء والمؤرخون فى كل الأقطار الشرقية أن رجل الإحياء والنهضة فى القرن الرابع عشر الهجرى كان المغفور له محمد عبده بن خير الله المولود فى قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة سنة ١٢٦٥ هجرية والمتوفى برمل الاسكندرية فى يوليو سنة ١٩٠٥ – سنة ١٣٢٣ هجرية .

وقد نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة فى القرى المصرية وتعلم القراءة فى بيت والده ودخل المكتب « كتاب البلدة » ، ولما نما وترعرع قصد بأمر والده الى مدينة طنطا ليدرس العلم فى الجامع الأحمدى الشهير ، ولكنه فر على ظهر جواده إلى بلدة أورين ليلهو بالفروسية واللعب بالسلاح . فحزن والداه لأنهما أراداه على أن يتلقى العلم . فأطاعهما ولوى عنان فرسه نحو القاهرة والأزهر واجتمع للمرة الأولى بالسيد جمال الدين الأفغانى الذى كان له أكبر الأثر فى حياته فى سنة ١٢٨٦ ، بعد التحاقه بالجامعة الأزهرية خمس سنوات ، فلازمه من أول لقاء وأخلص له الحب ، إلى أن فرق الدهر بينهما فى باريس بعد ذلك بعشر سنوات .

واشتغل الأستاذ الإمام يدرس الفلسفة وتعلم اللغة الفرنسية واجتمع بمستر ويلفريد سكاوين بلنت ليعلمه اللغة العربية فأعجب به الأديب الانجليزى ولفت نظره إلى الشئون السياسية .

وحاز الشيخ شهادة العالمية من الدرجة الثانية لأن بعض المتحنين نفسوا عليه ذكاءه الخارق وحقدوا عليه لاتصاله بالحكيم الأفغانى . فلما نجح بدأ بالتدريس

---

(١) ابتداء من هذه الفقرة نثبت هنا مقال لطفى جمعه الذى نشر بمجلة اللطائف المصورة فى ١٤/٧/١٩٤١ تحت عنوان « الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مؤسس الإصلاح الدينى والاجتماعى والقضائى فى مصر ، بمناسبة انقضاء ست وثلاثين سنة على وفاته » .

والإصلاح فى الأزهر وهو فى ريعان الشباب ، ولما ظهر نبوغه فى حلقات التدريس اختارته نظارة المعارف مدرساً فى بعض مدارس الحكومة ، ثم عينوه فى إدارة المطبوعات وكلفوه بالتحرير فى الجريدة الرسمية فلم يصل الثلاثين من عمره إلا وتقلب فى التعليم طالباً فأستاذاً فطالب فلسفة فسياسيا فمصلحاً فموظفاً فمحرراً فى الجريدة الوحيدة التى كانت تصدرها الحكومة ، يكتب فيها فطاحل الرجال ٠

وفى سنة ١٨٨٠ ظهرت بوادر الثورة العرابية « وأسبابها المباشرة استدانة مصر المبالغ الطائلة ومسالك بعض حكامها وحلول الفوضى فى الجيش محل النظام ونفوذ الأجانب ووزارة رياض باشا » ٠

وقد ثبت بأحدث المعلوم والمكتوب من تاريخه أن الأستاذ الإمام لم يكن راضياً كل الرضى عن أعمال العرابيين ، كما جاء على لسان مستر برودلى محامى عرابى فى دفاعه وقد قال هذا المحامى الانجليزى نفسه « إن مصر لاتستغنى عن مثله إذا قدر لها الاستقلال » ٠

ولكن على الرغم من هذا فقد قبض على الشيخ وسجن وحكم عليه بالنفى فى مصر ، وأثناء سجنه خانه نفر من الذين كان يثق بهم ويظهرون له الصداقة نفاقاً ٠ فانتقل إلى بيروت منفياً ٠ فلم يركن إلى الراحة بل عمل فى تدريس اللغة العربية ببعض مدارس الأجانب وأتقن اللغة الفرنسية وشرح كتابين من أهم الكتب العربية وهما « نهج البلاغة » للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه و« مقامات بديع الزمان الهمذانى » وأشرف على طبعهما ونشرهما ٠

وكان دائم الاتصال بالأفغانى سواء أكان هذا الحكيم بتركيا أم بالهند أم بأوروبا ٠

وانتقل الأستاذ الإمام من بيروت إلى باريس فأسس بمعونة السيد الحكيم «جمعية العروة الوثقى» ونشرا معا مجلة بهذا الاسم لم يصدر منها إلا ثمانية أعداد ٠

وكان فى خدمتهما فى ذلك الوقت رجل إسرائيلى مخلص اسمه يعقوب سنوا (صنوع)(١) صاحب جريدة « أبو نضاره زرقا » السياسية الهزلية .

واهتمت الحكومات بمجلة العروة الوثقى فصادرتها ومنعت دخولها إلى بعض البلاد الشرقية لخطورة المقالات التى كانت تنشر فيها .

وسافر الشيخان الأفغانى ومحمد عبده الى لندن واتصلا برجال السياسة وتوثقت العلاقات بينهما وبين بعض ساسة الانجليز مثل ويلفريد سكاوين بلنت ، وفكرا فى إصلاح الدولة العثمانية فسعى الإمام لإقناع حكومة السلطان عبد الحميد بإصلاح التعليم والتربية بلائحة « مشروع قانون » أرسلها الى شيخ الإسلام فى استامبول بيّن فيها الأخطار على الدول من فساد التربية والتعليم الرسمى وحلول التعليم الاجنبى محله .

وفى نوفمبر سنة ١٨٩٢ أمر الخديو توفيق بمشورة حكومة انجلترا بالعفو عن المتهمين بالثورة العرابية فعاد الشيخ الى مصر فتنكر له فريق من أصدقائه الأقدمين ولم يبق على مودته إلا المرحوم سعد زغلول وإبراهيم اللقانى .

وسعى ليكون معلماً فى دار العلوم فلم يقبل الخديو توفيق سعيه لأن الوشاة مشوا بينهما . فعينته الحكومة المصرية قاضياً فى المحاكم الأهلية وجعلوا مقره محكمة عابدين ، فاظهر نبوغاً كبيراً واستعان بعلمه الفقهى وذكائه الفطرى واللغة التى تعلمها على فهم القانون الفرنسى وصار يحكم باجتهاده أحكاماً موفقة جدا ونفذ أحكامه على الأجانب ولم يعترض عليه أحد واعتنى فى قضائه بالأخلاق وإصلاح ذات البين بين العائلات وتشدد أحياناً فى عقاب الفاجرات من النساء ، وبرع فى تحقيق القضايا وصدقت فراسته فى أمور كثيرة أدهشت القضاة والمتقاضين ، ولما سمع ناظر

---

(١) انظر ترجمة يعقوب صنوع صفحة ٣٧٤ من كتاب .

الحقانية ببعض حوادثه قال « اتقوا فراسة المؤمن » ، ولما اقتنع ولاة الأمور بجدارته وعلو كعبه رقوه الى منصب المستشار بالإستئناف الأعلى ٠

وفى أواخر سنة ١٨٩٤ والشيخ فى أوائل العقد الخامس ، وقد مضى عامان على حكم الخديوى عباس ، وقد رأى الأستاذ الإمام جرأته وجهاده للأخذ بناصية الأمور وإنهاض البلاد ، مال اليه وتقرب منه بواسطة المرحوم محمد ماهر باشا ، فاستقبله عباس بترحاب وعطف وأحبه لما آنسه فيه من صدق الوطنية وأصالة الرأى فاجتمعا مرات عديدة فى قصور الخديو الثلاثة وتحدثا فيما يمكن عمله لخدمة الوطن وتحقيق أمانيه ، فاقترح الشيخ عليه ثلاث طرائق للإصلاح وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ٠

وأشار الأستاذ على الخديو عباس بأن يبدأ بإصلاح الأزهر وقدم الشيخ له مذكرة بما يراه ٠ وفى يناير سنة ١٨٩٥ أمر الخديو بكتابة الأمر الى نوبار باشا بتأليف المجلس الأعلى للأزهر فصدر فى شهر يونيو من تلك السنة ٠

وبعد ذلك بعامين اختاره الأمير لمنصب الإفتاء ، وطلب الأستاذ أن يحتفظ بمركزه فى محكمة الاستئناف ٠ فلم توافق الحكومة بإيعاز من بعض خصومه وحاسديه فدسوا له بأن محافظته على زيه الشرقى وعمامته لا يلتئم والعصر الحديث وإن كان لايقل عن أحد من المستشارين الأجانب الذين اكتظت بهم محكمة الاستئناف من كل جنس وملة ٠

وفى سنة ١٩٠٤ استجدت ظروف سيئة بين الخديو والأستاذ محمد عبده لعبت فيها الدسائس دورها ، وكان لصاحب المؤيد يد قوية فيما حدث من الفتور فى العلاقات فصمم عباس على إقصاء الشيخ عن الأزهر ٠ فجمع العلماء فى قصر عابدين « مارس سنة ١٩٠٤ » فى حفلة ظاهرها الإنعام على الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخ الأزهر بخلعة سنية « كسوة تشريفة » وباطنها التعريض بالمفتى وإرغامه على الاستقالة من

مجلس الأزهر . وألقى الخديو خطبة مشهورة نشرت فى المؤيد ، وجعلها فى إطار مزين بالنقوش ، لإظهار أهميتها ، وإفهام غايتها للعامة . وقد جاء فيها على لسان الأمير «وقد جريت منذ أثنتى عشرة سنة على هذه القاعدة وهى أن أقبل استقالة كل من يستقيلنى من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالة الشيخ البيلاوى « ثم نظر الى الشيخ محمد عبده واسترسل فى خطبته » ومن يستقيلنى من وظيفته سواه ، فأنا مستعد أن أقبل استقالته جرياً على العادة التى اتبعتها فى ذلك »(١) .

وأضاف سموه أنه لايريد فلاسفة فى الأزهر ولايريد شغباً من أى نوع كان «مشيراً الى حادثة رواق المغاربة » وقد أدرك كل من كان سامعاً وشاهداً – والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم – أنه هو المقصود بطلب الاستقالة ، فخرج من القصر وقدم الاستقالة ، وكانت قبل ذلك قضية الزوجية الشهيرة والمصاهرة بين صاحب المؤيد وشيخ السادات . وتفصيل هذه القضية أن الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد عقد زواجه على كريمة المرحوم السيد عبد الخالق السادات فى قصر المرحوم السيد توفيق البكرى زوج شقيقتها بدون إذن والدها ، وأخرجها الى بيته فرفع والدها عليه قضية شرعية طلب فيها فسخ العقد لعدم الكفاءة بين الزوجين فحكم القاضى الشرعى بعد مرافعة الشيخ عثمان الفندى عن الوالد ، أولا بالحيلولة بينهما الى أن يتم النظر فى القضية « ولكن هذا الحكم لم ينفذ » وآخراً ببطلان العقد ، فاشتغلت الأمة بهذه القضية التى حكم فيها المرحوم الشيخ محمد أبو خطوة وكان صديقاً حميماً للشيخ محمد عبده وكان الخديو ميالا للشيخ على يوسف لأن جريدته كانت لسان حال سموه فاتهموا المفتى بأنه عون للسادات .

وكانت هذه القضية أيضاً سبباً فى الجفاء بين الخديو ومصطفى كامل وأدت به الى كتابة خطاب التقاطع بينه وبين الأمير(٢) .

---

(١) ، (٢) راجع صفحة ١٩٨ من هذا الكتاب

وحدث أثناء ذلك حادثة رواق المغاربة وهى نزاع بين الطلاب وشيخهم والحكومة المصرية وسفير فرنسا انتهت بذبح شيخ الرواق فى المسجد أثناء صلاة الجمعه بيد أفراد من بنى وطنه ٠

وقد استمع الخديو لأقوال الوشاة والدسّاسين من أن إصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة فيه أدى الى الشغب والفوضى ولكن العامل الأول كان قضية الزوجية ٠

فلما استقال الشيخ محمد عبده من مجلس الأزهر الأعلى اضطربت عقول المسلمين فى سائر بقاع الأرض ووجمت نفوسهم لهذا النبأ فى كل قطر ووردت احتجاجات من السودان وسوريا وبلاد المغرب والمشرق ، وكتب علماء فارس وأمراء الهند ولاسيما الكاتب الأشهر النواب محسن الملك عميد جامعة عليكرة ٠

ولكن هذه الاستقالة لم تزد الشيخ إلا سمواً واحتراماً فى نظر الأمة لوقوفهم على الحقيقة ٠ وكان المفتى قد أصدر بعض الفتاوى توافق الشريعة وروح العصر الحديث كإباحة لبس القبعة فى بلاد الترنسفال للمسلم وأكل ذبائح غير المسلمين للضرورة ، وكلها مؤيدة بكتب الفقه ، ولكن خصومه زعموا أنه أباح ماحرم الله كذباً وبهتاناً ، ومنها أن المفتى أراد أن يتم منهاج الإصلاح الذى اتفق عليه والخديو فى الأوقاف والمحاكم الشرعية ٠ فتم إصلاح المحاكم الشرعية وتعطل إصلاح الأوقاف لأسباب كثيرة لايتسع المقام لتفصيلها ، ولكن المفتى رحمه الله كان متشدداً فى هذه الناحية ، ويروى ثقة أن المرحوم خليل باشا حماده « وكان صهر المفتى » وقد تولى إدارة الأوقاف العامة فى مصر ثم وزارة الأوقاف فى الأستانه ، دعا الشيخ الى العشاء عنده وقال له على المائدة « ياسيدى الأستاذ أبوس إيدك والله إن إطلاق الحرية لك فى إصلاح الأزهر خير لك وللإسلام والمسلمين فى الدنيا والآخرة من كل ماتوفره من مال الأوقاف لديوانها » فقال الشيخ : « أنا أعلم هذا ولكن وجدانى ومراقبتى لله تعالى لاتمكننى من إقرار مالا يبيحه الشرع والباطل لايكون وسيلة الى الحق » ٠

ويروى بعض مؤرخى الشيخ وتلاميذه أنه كان ضعيفاً فى هذه الناحية ، فالمصالح العامة تبنى على قاعدة ارتكاب أخف الضررين وتقديم أرجح المصلحتين . ويتفق هذا مع مذهب الإمام مالك رحمه الله الذى نشأ الأستاذ عليه . هذا هو السبب الأول وعلة العلل لتحول قلب رجل عظيم عن هذا المفتى المصلح الذى كان يجب أن يجعله عمدته فيما يصلح شعبه وبلاده . ولما تنكر قلبه تجددت عنده أسباب أخرى للكراهية تنحصر فى ثلاثة :

الأول – ماكان يراه من عزة نفس المفتى على ضد مايراه من غيره من الذلة له ، بل لم يكن يرى من الأمراء ولا من الوزراء مايراه من المفتى من الشمم والإباء ، وكانت آداب الشيخ مع « الرجل العظيم » تحجب عنه كبر نفسه فى طور رضائه عنه ، فلما سخط عليه صار يراه بمنظار أسود مكبر حتى صار يقول « إنه يدخل علىّ كأنه فرعون » ولما بلغ الشيخ هذا القول من أحد أصدقائه قال « جزاه الله .... أنا لست فرعوناً بل أحد الرعية » .

الثانى – اتهام بعض الوشاة النمامين للشيخ بأنه غير مخلص «للرجل العظيم» ولا راض عنه وأنه يعاكسه ويقاومه .

الثالث – ماكان من حسن العلاقة بين الشيخ ولورد كرومر ، فقد كان اللورد يجله ويقدره ويستشيره فى بعض المسائل الحكومية المهمة ويتحاشى أن يهيج وجدانه ، ووجدان حزبه الراقى . وكان الأستاذ يداريه لعلمه بأنه لايستطيع البقاء فى مصر بدون هذه المداراة . وكان المفسدون والنماون يتهمون الشيخ فى إخلاصه لوطنه مع أن حاكم البلاد فى ذلك الوقت الخديو عباس لم يكن يشك فى وطنية الأستاذ الامام محمد عبده ولايرتاب فى ترفع فضيلته عن التقرب الى اللورد بمساعته ، فإن لم يكن هذا الترفع للإخلاص لأميره فهو لكرامة نفسه وإبائها .

كان المفتى يشغل منصب الإفتاء منذ منتصف سنة ١٨٩٩ وكان الأمير هو الذى اختاره لذلك عقب حادثة قاضى مصر وفصل الشيخ النواوى من الإفتاء ومشيخة الأزهر . وقال الأمير لمستشار الحقانية « الآن أوجدت لك مفتياً تستطيع أن تفهم منه ويفهم منك بلا واسطة ولا ترجمة » ، وقد هيأت له هذه الوظيفة إصلاح المحاكم الشرعية فصار زعيم الإصلاح الدينى والقضائى فى مصر كما صار زعيم الاصلاح الاجتماعى .

وكان الاستاذ على كثرة أعماله وامتلاء وقته بالواجبات ، يلقى دروساً فى التفسير ، فى الأزهر الشريف بالرواق العباسى صارت مع الزمن دروساً دولية يحضرها العلماء من كل جنس وملة كالمستشرقين الأوربيين من ألمان وإنجليز وفرنسيين وغيرهم .

وكان يكتب مقالات فى مجلة المنار لصاحبها المرحوم السيد محمد رشيد رضا . كما أسس بعد عودته من المنفى الجمعية الخيرية الإسلامية واتخذ لها مركزاً فى « قبة الغورى » وشجع الأدب والأدباء . فكان شاعره المختار المرحوم محمد حافظ إبراهيم بك الذى أهدى اليه ترجمته لكتاب البؤساء ورثاه بعد وفاته بقصيدة عامرة أولها :

سلام على الاسلام بعد محمد   سلام على أيامه النضرات

وترجم كتاب سبنسر فى التربية ورد على هانوتو بالعربية والفرنسية وأفحم مجلة الجامعة فى بحثها عن الفلسفة فى الإسلام ، واتصل به كبار رجال الدين الذين حاولوا توحيد العقائد أمثال لوازون الفرنسى واسحق طيلر الانجليزى وخريستوف جباره السورى ، وسافر الى أوروبا مراراً وقابل البابا ليون الثالث عشر برومه وإلى تونس والجزائر . واجتمع بالفيلسوف سبنسر . ومن أقواله فى هذا « إن الحق عند أهل أوربا للقوة ولا قيمة له بذاته وإن الأفكار المادية محقت الفضيلة وأنه لا علاج لأوروبا إلا بالتدين » .

ومرض الشيخ بالسرطان فى الكبد وعانى آلاما شديدة ، وكان يقصد السفر الى أوربا فى يونيو سنة ١٩٠٥ ولكن منيته وافته فى بيت صهره بالرمل فنقل الى القاهرة ودفن بالمجاورين وحزن عليه كل إنسان عرفه وسمع عنه أو قرأ كتبه ودروسه ، وأقيمت فى عرض البلاد وطولها حفلات التأبين وألفت عليه الكتب العربية والأفرنجية ونقلت بعض مؤلفاته الى اللغة الفرنسية ولاسيما رسالة التوحيد . وكتب عنه فى دائرة المعارف الاسلامية بكل الألسنة وشهد فى حقه أصدق الشهادات وأشرفها لورد كرومر – إدوارد براون – مختار باشا الغازى – عبد الله جودت الكاتب التركى – ذكاء الملك الإيرانى – طاهر بن عاشور المفتى التونسى – الأستاذ الكواكبى – الزهراوى – كرد على – الكاظمى – جورج زيدان – رياض باشا – اليازجى – سعد زغلول – فتحى زغلول – قاسم أمين – الأميرة نازلى – على يوسف – أسرة عبد الرازق – حسن عاصم باشا .... إلخ .

واحتفل أول مرة فى سنة ١٩١٧ بالجامعة المصرية بمرور اثنتى عشرة سنة على وفاته وأقيم له حفلة فى الإسكندرية فى السنة نفسها ، وقد مضى الآن ست وثلاثون يزداد فضله أثناءها انتشاراً ويعلو فيها اسمه اشتهاراً وتجمع العامة والخاصة على تعظيمه وتقديره وتعترف بأنه المقصود بالحديث الشريف وهو أن الله يبعث على رأس مائة كل سنة رجلا يصلح من أمر هذه الأمة . رحمه الله رحمة واسعة .

محمد على وهبة بحراوى

أحد أهل بحرا قرية بين جدة ومكة وكان موظفاً بجمرك جدة واتخذه الملك حسين أميناً على أمواله ، ونزح الى السويس وقيل إنه مولود بها وهاجر الى الحجاز ثم عاد منه الى السويس بثروة طائلة وأسس وبنى واشترى واستحدث بيوتاً ومتاجر ومخازن وتعاطى التجارة فى دكان له ليشغل نفسه بالبيع والشراء وإن لم تكن به حاجة اليه ٠ وقد عرفته سنة ١٩٣٠ فى قضية جنائية كبيرة وطال أمدها وانتهت لصالحه ٠ وهو رجل يتكلم بلهجة أهل الحجاز ويطيل تدخين النارجيلة شديد الحرص على ماله كمن تعب فى تحصيله ، ولندرة المشاهير فى السويس تراه فى مقدمة المعروفين فى البلد ، ويتبرأ من الفعل ثم يفعله ويبدو حسن النية وهو شديد المكر ولا يهمه إلا نفسه ٠

وقد عرفتُ أثناء اتصالى به رجلاً فاضلاً هو الشيخ إسماعيل إسماعيل الباز أحد أولياء السويس تمت على يده كرامات يعرفها ذووها ممن رأوها وهو مقصود بالتحية والإكرام والمطالب من كل فج حتى الأجانب والروم يحيونه ويرجونه فى أمور ، وقد كتبت عنه فى أوراق مبعثرة كثيراً من أخباره ٠ وهو يملك أرضاً وبيتاً فى السويس وكان يتجر فى الحليب وفى عربات الركوب وعلف الخيل وله أولاد وكان فى أول أمره حداداً ثم جعل لنفسه مطعماً فى القاهرة أثناء الحرب الكبرى الأولى ثم استقر فى وطنه، وكان البحراوى أثناء قضيته يلازمه ويلتمس بركته ويدعوه الى داره ويجلس إليه فى كل يوم وليلة ٠ فلما قضى له وربح تنحى عن مودته وتخلى عن صحبته فدل بذلك على حقيقة خلقه ، فإنه لم يستبق المحبة التى أسسها على مصلحته حتى قضيت عاد الى ماكان عليه من منافرة الخلق وفى مقدمتهم شيخه الذى كان يقبل يده صباح مساء

ولا يتذوق طعاماً إلا بصحبته ، وللشيخ إسماعيل عندى مكانة رفيعة ومحبة عميقة واحترام وتقدير فقد رأيت من إخلاصه وصدقه ورجولته ماحببه اليّ .

وللبحراوى جانب مشرق ولكنه ليس فى السويس ولكنه فى جدة وهو ابنه وهبة البحراوى الذى ورد اسمه فى القضية كثيراً « حكم فيها فى سنة ١٩٣٤ » ، والذى رأيته أثناء عودتى من الحج سنة ١٩٤١ « ١٣٥٩ هجرية » فقد انتهز فرصة مرورى بجدة واحتفى بى وخاطبنى كأنه يعرفنى معرفة قديمة وجدد شكره لى على ماكان منى فى قضية والده ، فأخبرته أنه كان سبباً فى نجاته بخطابه الذى حرره الى أحد الشركاء .

ووهبة يختلف عن أبيه صحة ومظهراً وخلقاً فهو لين العريكة طيب الأخلاق صادق الود وفىّ لأهله وأصحابه وهو لحسن نيته يظن أن أباه بعد قضيته لاينقطع عن زيارتى أو السؤال عنى لأنه كان المتهم الوحيد الذى نجا من الأحكام الشديدة التى وقعت على بقية المتهمين وعددهم تسعة ، فكان خليقاً به أن يعرف لى هذه المكرمة وأن يواظب على مودتى فقلت له « لو هبة » نعم إنه مواظب « جبراً لخاطره » وأنه لايزور القاهرة دون أن يزورنى ويسأل عنى عدا عن كتبه ورسائله ، وخجلت أن أخبره أننى لم أر وجه أبيه منذ الحكم ببراءته ، لأن الولد لا ذنب له وهو وإن يكن مظلوماً بعد وفاة أمه وتيتمه وتأهل أبيه بأخرى ، إلا أنه كثير الاحترام له ولعل من دواعى هذا الاحترام بعد المسافة بينهما بعداً يمنع الاحتكاك ، ولم يرزق الوالد غير هذا الابن النجيب ، ولكن وهبة مرزوق طائفة من الأولاد والبنات كالأقمار عجبت للجد كيف يطيق البعد عنهم وقد رآهم فى أسفاره الى الحجاز ذاهباً الى جدة وعائداً منه ، فكيف لم يتعلق قلبه بهم أو بأحدهم ولم يتفرغ من عمره عاماً لإتقان ذلك الفن الذى ذكره فكتور هيجو فن الجدودة l'art d'etre grand pére وأحياه فى الشرق أحمد شوقى ، وقد سألت الأطفال فى جدة « أتحبون جدكم » فقالوا نعم ونحب أن نراه ونحبّ أن نذهب الى

السويس ، وأحببت أن أنقل هذه الصورة الجميلة الى ذهن محمد على وهبة بحراوى عند عودتى فلم ينتظرنى على الباخرة كما وعد فكتبت إليه ولم يصلنى منه رد ، كتبت لأشكر ابنه فى شخصه وكان نجله طلب الىّ أن أبلغه رسالة أو رسالتين . ولو أن هذا الشخص ترك للأقدار فى قضيته لحدث له مالا تحمد عاقبته .

نعم إن أعمال المحامى والطبيب والمعلم مأجورة ، ولكن شتان بين من يقوم بعمل مأجور لأنه مأجور لايبالى بنتيجته وبين من يبذل جهوداً ليحصل على ثمرة حلوة وغاية نبيلة ، ولكن فى مصر يقولون « كله عند العرب صابون» ، ولا تظن أن واحداً من هؤلاء يرد لك جميلا أو يذكر لك جميلا أو يقابلك بمثل فعلك فى الخير ، كما هى طبيعة البشر فى انتظار الإثابة . ولكننى وطدت نفسى من قديم على احتقار الجزاء أو الشكر ولو باللسان لعلمى أنه ضد طبيعة الإنسان . وأنهم أثناء حاجتهم إليك لو شئت لاشتريتهم وبعتهم رقيقاً حتى إذا بلغوا مآربهم هيهات أن يبذلوا لك التحية ، وهذا وإن يكن مأثوراً عن بنى آدم عامة وعن الشرق أيضاً إلا أنه أظهر مايكون فى مصر وبين المسلمين ، فإن المعاملات تنقلب هاهنا مغامرات وأحابيل ومحايلات ولصوصية وأطماع وليس المدهش أن الأمر كذلك ولكن المدهش أن الأمور تظهر بمظهر السير بانتظام كأننا فى مدينة فاضلة أو عادلة مع أننا فى مدينة خاطئة فاسقة جاهلة خائنة ينتهز أشرارها الفرص لاغتيال حقوق الأخيار والانتقام منهم والوقيعة بهم فلا حول ولا قوة إلا بالله .

محمد ماضى أبو العزايم

شيخ طريقة صوفية معروفة باسمه توفى فى آخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى بالقاهرة وقد رأيته بضع مرات قبل وفاته ، كان رجلاً طويل القامة ضخم الجسم أبيض اللون أبيض الشعر فى الرأس واللحية ، فصيح اللسان جداً شديد الذكاء وكان يقيم ببيت يملكه فى سكة مسكة أو زقاق مسكة بجوار درب الجماميز .

عرفت أخباره من والدى وبعض أقاربى ومن رجال عاشروه وأول حاله أنه كان مدرساً للغة العربية بالسودان ثم أسس هذه الطريقة وأطلق عليها اسمه ، وقد ألف كتباً كثيرة فى التصوف أهدى الىَّ معظمها ، وكان ينشىء مجلة باسم المدينة المنورة قرأت معظم أعدادها . واتخذ من بيته مقراً لطريقته فكان يرد عليه أتباعه ومريدوه بالهدايا والتحف والنذور والمال الكثير من سائر أنحاء القطر المصرى ، وكان له دعاة يرسلهم فى المديريات يجمعون له « العادة » وهى نذور من الحبوب والنقود ويسافر بنفسه وحاشيته ويقيم أشهراً وأسابيع فى القرى فيكون موضع الضيافة والإكرام ممن ينزل ببلادهم .

ورأيت بعض أتباعه يقبّلون قدمه وبعضهم يدلّك أعضاء بدنه وهو شديد الحفظ قوى الذاكرة فيتكلم بفصاحة وسرعة ويرتجل الخطب البليغة المنمقة المرصعة بآيات القرآن والأحاديث والشعر الصوفى . وكان فى حلقات الذكر يرتجل الشعر للسماع ، وكان كاتب يده وأمين سره الشيخ مفتاح وهو رجل صالح جداً يكاد يعبده ويجلس نهارا وليلا تحت أقدامه ويدون فى كناشات أقواله المنثورة والمنظومة ووحى الخاطر والقصائد المرتجلة ثم يجمع هذه المقولات وتطبع فى المجلة أو فى كتب على حدتها فى

مطبعة المدينة المنورة الملحقة بمنزله ، وقد تخرج من بيته المدعو عبد الظاهر السمالوطى الذى صار أشهر شاهد ملك فى القضايا السياسية فى سنة ١٩١٩ و ١٩٢٠ ولقى كثيرون من الشبان حتفهم بشهادة السمالوطى هذا الذى اختفى بعد ذلك وقيل إنه نزح الى السودان لينجو بجلده من انتقام الأبرياء وقيل إنه تعين فى وظيفة حكومية مكافأةً له على شهاداته التى أوقع فيها بالكثيرين ٠

وكان الشيخ بجانب تصوفه يشتغل بالأمور العامه والسياسية ، ولذا كان بيته يعج أثناء الحركات الوطنية بالجواسيس ٠ وله مكاتبات مع ملوك العرب على طريقة الشيخ رشيد رضا وأظهر اهتماماً بمسألة الخلافة دون أن يعرف حقيقة كنهها ولكنه كان يستمد نفوذاً من الاشتغال بها ٠

أما علاقته بالحكومة المصرية فكانت مبهمة ولكن له أولاداً يزيدون على الستة يطلقون أقدامهم فى الدواوين ويتصلون بالوزراء ويقضون المصالح باسم الشيخ ولا سيما فى وزارة الأوقاف ويهتمون بتأليف الوزارات الجديدة ويفرحون كلما جاء فى بعض مناصب الحكم رجال مشهورون بالميول الإسلامية ٠ وبعضهم يمارس التجارة وقد خلفه على طريقته ابنه أحمد وكان يلبس ثياب الأفندية ثم خلعها ولبس ثياب المشيخة بعد وفاة أبيه ٠

وقد روى لى بعض من أثق به عن كرامات تتم على يد الشيخ وخصوصاً فى عقوبة النساء والرجال الذين يرتابون فى أمره كأن يسقطون من حالق ، ويأتى المريد الذى له قريب أو صديق أصيب بحادث ويحكى فى مجلس الشيخ أن الله انتقم من قريبه لأنه نهاه عن الشيخ ثم يروى آخرون مثل قصته كنوع من الدعاية والشيخ يبش لهم ويفرح بأخبارهم ٠

ونظر مرة الى القاعة الكبرى التى فيها مجلسه أو عرشه وكان بها ثلاثة أو أربعة أشخاص وقال كان يجلس ها هنا مئتا شخص قبل مرضى ٠ وبيان ذلك أنه حوالى

سنة ١٩٢٦ أو ١٩٢٧ أصيب بفالج ولكنه عولج علاجاً حسناً واتبع أوامر الأطباء بدقة وكان فى بداية مرضه ينزل الى الحلقة ثم اعتكف بأعلى الدار •

وكانت له زوجة صبّية رزقت منه أطفالاً صغاراً يداعبهم أثناء مرضه ويطعمهم ده على مائدته التى تجمع أصناف الخضر والفاكهة منذ حرمت عليه اللحوم بسبب مرضه • ولكنه كان واعياً يقظاً يخطب وينظم الشعر ويملى الحكم على خادمه المطيع الشيخ مفتاح •

وكان ذا فراسة فى الأشخاص مستقاة من الكتب • وأهم أتباعه محمد عبد ربه أحد المقاولين بالإسكندرية أعد له بيتاً فى سيدى جابر برمل الاسكندرية يصطاف فيه كل عام الى أن أفسدت بينهما امرأة كانت معلمة فى مدارس البنات بالإسكندرية جمع الشيخ بينهما فى الحلال وعقد لهما وهو يعلم أن عبد ربه متزوج وله أولاد وزوجته الأولى على قيد الحياة ، فلما نزعت هذه الزوجة ملك زوجها حرمت على الشيخ النزول بالبيت بسيدى جابر وامتنعت عن الشيخ هدايا عبد ربه لارتباك أحواله الذى نشأ من استيلاء الزوجة المعلمة على ثروته • وفترت العلاقات بين الشيخ ومريده •

وكان يحيى ليلة الإسراء بخطب طويلة وسهرات وولائم الى ماقبل وفاته بقليل وقبلت الحكومة بعد وفاته أن يدفن فى بيته وجعل له ضريح ووافقت الحكومة على إحياء مولد له ثلاثة أيام فى آخر رجب وآخرها فى سنة ١٩٦١(١) بشرط الاكتفاء بإحياء الشعائر فى المسجد الملحق بالمقبرة ، وكان له أخ « توفى قبله » اسمه محمود أبو العزائم خرج عليه فى حياته واتخذ طريقة جديدة ذكر لى الشيخ محمد أن فيها إباحية وإلحاداً وانتقد أخاه انتقاداً مراً ودعا عليه كان الأخ يقيم فى إحدى مدن الصعيد وله أتباع كثيرون ولا أعلم من أمره أكثر مما رواه لى أخوه الأكبر، غير أنه فى سنة ١٩٣٤

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها سنة ١٣٦١ هـ •

حضر إلىَّ جماعة قالوا إنهم من أتباع محمود ماضى أبو العزائم جاءوا القاهرة خصيصاً ليسألونى عن مؤلفات الخلاج بمناسبة كتابتى عنه فى فصول متتابعة بعنوان « التصوف المصرى الحديث » بجريدة البلاغ ، وفهمت من حديثهم ورسالتهم أن شيخهم لم يسمع قبل الآن بهذا الولى العظيم « الحلاج » فدللتهم على المطبوع من كتب الحلاج كالطواسين وبعض المراجع الأخرى .

وقال لى الشيخ محمد أبو العزائم مرة : لك عندى أمانة ولكن كيف أقدمها لك أو أوصى لك بها مادمت لم تكسنى ثوباً من الشاهى أو قفطاناً من القطن ، وكان أحد أقاربى يعتقد به اعتقاداً ثم عاد فانقلب عليه وقد حققت هذه المسألة أن أصل النزاع بينهما أمور دنيوية أهمها سعى الشيخ فى زواج محمد عبد ربه ألصق أتباعه من المعلمة أو ناظرة المدرسة الدمياطية وقد عاد هذا الزواج بضرر بليغ علي الزوجة القديمة وأولادها من عبد ربه وهى تمت الى قريبى بصلة الرحم فغاظه هذا الأمر وانقلب على الشيخ وصار ينال منه بعد أن كان يقدسه ويبكى فى حضرته ، ولابد أنه قبَّل أقدامه مرات عدة .

وقد حققت مسألة الزواج فعلمت أن للشيخ اليد الطولى فى تمامه ، وكان يأمره بأن يصحبها فى سيارته ليوصلها الى منزلها ثم قال له فى إحدى الليالى « خذ زوجتك وقم » ولم أعرف ماهية العقد الذي تم على يديه إن كان فى داره فى هذه الليلة أو قبلها .

وله تدخل فى بعض أمور النساء ، من ذلك أنه لما أراد الحج واصطحب كاتب يده الشيخ مفتاح أمره بطلاق زوجته المرزوقة منه أولاداً فعارض مفتاح أولاً ثم أطاع وطلق ، ولما عاد من الحجاز رد زوجته الى عصمته . ولعل الشيخ أراد امتحانه بهذه المسألة لأن مفتاحا لم يعصه فيها . ولكن بعد وفاة الشيخ وتقسيم التركة وتنظيم أحوال الأرملة الفتية وشراء عقار لها بنصيبها ونصيب أولادها تنمر أولاد الشيخ

لمفتاح وطالبوه بمؤلفات والدهم واتهموه بإخفائها ، حتى كان يخرج ويترك زوجته وأولاده ويسافر الى الصعيد ويقيم أشهراً طويلة . فكان مظلوماً محسوراً .

وكان الأثر الذى تركته مقابلة الشيخ لايشعرنى بتصديقه فى أكثر من أنه رجل ذكى عالم ، وقد حاول تفسير القرآن فى مجلته تفسيراً عادياً منقولاً من التفاسير القديمة ولكن أولاده وأتباعه طنطنوا به طنطنة كبيرة ، ومات الشيخ دون أن يتمه . وكذلك كان يشرح الأحاديث وكانت له نزاعات طويلة على البيت الكبير الذى سكنه ثم امتلكه ، فإنه دخله مستأجراً من مالكيه من عائلة الفريق ثم وضع يده عليه وانتهى بشرائه بطريقة مبهمة وهو ذو مساحة واسعة ولكنه متهدم .

وكان من عادته أن يستهوى الأشخاص الذين يتوسم فيهم النجابة أو الشهرة ويبذل جهداً كبيراً فى استمالتهم اليه ليعترفوا به أو يقبلوا يده ويتخذ لكل واحد منهم الخطة التى تؤدى الى استمالته كبذل المنافع والاشادة بالذكر ، وحسن اللقاء أو اطلاعهم على بعض مايظنونه أسراراً أو دعوات .... إلخ .

وعدتُه مريضاً ورأيته يتيمَّم وقت الصلاة ويؤدى الفريضة جالساً ، وكان أسلوبه فى كتابته عادياً فيه بعض الإبهام وله كتاب حسن فى وصف شعائر الحج قد أغرب فيه وأطنب وأبهم أموراً من شأنها الوضوح والجلاء فذهب ببهجة الموضوع وخلط بين الشرع والتصوف خلطاً شديداً . ولم أحضر وفاته ولا دفنه .

وكان له سائق سيارة رومى الأصل وأسلم من الفقر أو التقوى فأطلق عليه اسم صهيب كالصحابى الذي كان يحمل هذا الاسم فى صدر الإسلام وقد غاظنى ذلك لأن فيه تشبهاً بالرسول وليس هو كالرسول وليس السائق الرومى كصهيب .

وكان كثير الشكوى من أولاده شديد الأسف من مخالفتهم وكلهم متزوجون وكل منهم ينفق مايصل الى يده فى مصلحة زوجته وأولاده وكل منهم يعنى بأمره الخاص ولايلتفت الى مصلحة الجماعة أى الشيخ وأسرته الجديدة والأتباع المقيمين فى المنزل

بعائلاتهم كالشيخ مفتاح وصهيب ، وتشتد هذه التهمة بالعقوق كلما أنس من الضيف احتراماً له أو تقديراً . وكل أولاده أقوياء فحول فى مقتبل العمر مندفعون يستمدون سلطة دينية من أبيهم لجلب المنافع لأنفسهم .

وعلى كل حال فطريقة آل العزائم طريقة فيها حب الدنيا وتبادل المنفعه وتمجيد الشيخ والخضوع له الى درجة العبادة ومنها تقبيل أقدام الشيخ وطاعته طاعة مطلقة وقد ماتت الطريقة فى حياة مؤسسها وتفرعت عنها حركة مذمومة وهى حركة أخيه المخالف له محمود ماضى أبو العزائم .

وعلى الرغم من شهرته المستفيضة فى السودان والصعيد والقاهرة والاسكندرية وكثرة كتبه ومجلاته وخطبه وقصائده وخواطره التى سلخ مفتاح حياته فى تسويدها وتبييضها ، لم يستطع الشيخ أن ينفخ فى أتباعه روحاً معنوية أو دينية تمكنهم من الاستمرار بعد موته أو تمنعهم عن التخلى عنه فى حياته ، ولم يبث فيهم مبادىء دينية ولا اجتماعية تجعل منهم هيأة تكون أهلا للبقاء والاستمرار ، ولم يخرج تلميذاً واحداً نابغاً أو خليفة يحمل أعباء الطريقة بعده . وكان الكل فى الكل أثناء حياته فى صحته ومرضه وقد تركزت فيه السلطة والنفوذ ، ولم يعيّن بعده خليفة ولو أرادوا الحق لاختاروا الشيخ مفتاح لأنه كان أكثرهم صحبة له ، ولكن ابنه أحمد وثب عليها ولم يفلح فى شىء أبعد من لبس العمامة والقفطان بعد السترة والسراويلات والطربوش وصادف أول أمره تعيين أحمد مراد البكرى خليفة لأبيه فتقرب اليه أبو العزائم الثانى وأقام له الحفلات والولائم وكان يخاطبه بالانجليزية ، زيادة فى الاتصال به ، ثم انشق عليه مع عشرة مشايخ طرق من أنحاء القطر ، فأصدر البكرى الجديد أمراً صوفياً بعزلهم جميعاً وحرمانهم من حقوق المشيخة ، وهكذا تطورت المسألة الى صورة هزلية توافق العصر الحديث ، وقد قيل لى إن الشيخ محمد ماضى لم يتصل طول حياته بالمرحوم عبدالحميد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفيه لا استصغاراً لشأنه ولكن اعتزازاً

بمكانته فى العواصم والريف ولاسيما الاسكندرية عندما كان يصطاف اصطياف الأمراء فى بيت مريده محمد عبد ربه ٠ وقد توفى فى الثمانين من عمره ولابد أنه ولد فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى ١٢٧٠ - ١٣٥٠ رحمه الله وغفر له ٠

من أفضل كتبه - ولعله أفضلها - كتاب النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين ألفه فى زمان شبابه ونشره سنة ١٣٣٢هـ بمصر فى أكثر من مائتى صفحة وقال فيه إن غرضه إرشاد المؤمنين الى طريق النجاة وهى الاقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام وأن نيل السعادتين « فى الدنيا والآخرة » لايكون إلا بالإسلام ، وأوصى فيه باليقظة من الغفلة وبالوفاء والصبر ونصح المسلم بالتفكير فيما يحيط به فى قالب قصيدة من القصائد التى كان يرتجلها فى تجلى السهرات ويمليه على الشيخ مفتاح ، وباح فيها ببعض الأسرار الصوفية ومنه التفكر فى النفس وأفعالها وتأثيرها ، وبعد أن تكلم فى الرسول عليه الصلاة والسلام انتقل الى الإمام العادل ووجوب طاعته٠ ويظهر لنا أن هذا الكتاب من تأليفه أراد أن يودعه آراءه فى الدين والدنيا ولكن تفكيره وخطته بدائية ينطبقان على حالة أتباعه وبيئة الدراويش الذين ألفه لهم ، ولكن اجتهاده ملحوظ فيه ورغبته فى أن يكون كتاباً متداولاً بأيدى الكافة لا مقصوراً على تلاميذه ٠

وكانت سنة ١٣٣٢هـ ٠ توافق سنة ١٩١٤م التى أعلنت فيها الحرب وكان الشيخ فى ذلك العهد مقصودا من عدد كبير من الأعيان والخاصة من قرى الصعيد والوجه البحرى ومجالسهُ آهلة بالذاكرين والمنتفعين والمتبركين من كل فج فكانت فترة عصره الذهبى وقد استمرت هذه الفترة نحواً من عشر سنوات فترت بعدها شهرة الشيخ لسببين الأول ، ظهور بعض الجواسيس فى حاشيته أمثال عبد الظاهر السمالوطى وكانت له شهرة فظيعة فى القضايا السياسية العسكرية وظهر أن الشيخ

لايتحرى فى اختيار أتباعه حتى رمى الشبان بهذا الفحل الصعيدى الذى لا ضمير له ولا شرف ، فشهد الزور فى المحاكم شهادات أدت الى ضياع أعمار عدد كبير من الشبان . والأمر الثانى انشقاق أخيه المرحوم الشيخ محمود أبو العزائم وظهوره فى أحد بلدان الصعيد بمذهب لايقره الشيخ ولا يوافق عليه فكان ذلك سبباً فى غضبه وحزنه ، وبمناسبة ذكر هذا الأخ الذى كان طالحاً فى نظر أخيه الشيخ الكبير نذكر أخاً آخر صالحاً هو أصل ظهور هذه الأسرة وواضع أساس شهرتها ومنشىء كيانها وهو المرحوم الشيخ أحمد ماضى أبو العزم (كذا) ويظهر أن هذا أصل هذه الكنية قبل أن يجعلها الشيخ محمد بصيغة الجمع فيصير أبا العزائم .

وهذا الرجل الفاضل السيد أحمد أبو العزم الموصوف فى كتابه الذى نشر بعد وفاته بأنه « شيخ الصحافيين والعالم الكاتب الصحافى الشهير» كان فعلا شيخ صحافة عصره لأنه ورّث الشيخ على يوسف هذه الصناعة وشاركه فى نشر جريدة الآداب التى صارت بعد ذلك جريدة المؤيد الشهيرة . وكانت إدارة الجريدتين فى نفس البناء الذى صار « دار المؤيد » بعد ذلك بعشر سنوات .

ولكن اتجاه السيد أحمد أبو العزم كان دينياً وأدبياً ، فألف قبل موته كتاب وسائل إظهار الحق الذى نشره فى سنة ١٣٣٢هـ شقيقه محمود أبو العزائم الذى خرج بعد ذلك على أخيه وهو فى مقدمته يقول « يقول المسكين محمود أبو العزائم أن سيدى ومرشدى شقيقى السيد محمد ماضى أبو العزائم أشار علىّ هو وأخوه السيد محمود أحمد بطبع تلك الرسالة التى تركها السيد أحمد وديوان شعر وبعض سوانح أدبية» ، ولم يشر بكلمة الى تاريخ أخيه المتوفى الصحافى وترك هذا البيان للمؤلف المتوفى نفسه الذى قال « دعانى الشوق الى تعليم لغات أجنبية (كذا) حتى اشتغلت بالسياسة وأسست وصديقى الشيخ على يوسف جريدة المؤيد وتحملت أهم أعمالها فكنت مديراً ومحرراً لها فى زمن كان الوطن العزيز .... إلخ » ، وقد توفى الشيخ على يوسف قبل

نشر هذا الكتاب بعام « أكتوبر سنة ١٩١٣ » ٠

أما كتاب إظهار وسائل الحق فهو نقض للديانة المسيحية وتقليل من قدر الحضارة الحديثة وتمجيد للاسلام وفيه تعرض لأمور لايعرفها المؤلف كدعوى « أخذ القانون الرومانى من أحكام الإسلام » وهذه دعوى باهتة لأن روما تأسست سنة ٥٣ ق٠م وعاشت قبل الإسلام أربعة عشر قرنا ، ولما ظهر الإسلام كان نذير زوالها وهلاك دولتها بعد أن ملكت العالم ، ولايعقل بالبديهة أن دولة كهذه انتظرت هذه المدة لتأخذ قانونها من دولة جديدة ، هذا بالبديهة لمن يعلم تواريخ السنين ، فأما الذى يعلم علم التاريخ وتاريخ الرومان ونشوء قوانينهم يضرب بهذا القول عرض الحائط ولايراه معظما لشأن الإسلام فى شىء ٠ فكان تعلم اللغات الأجنبية والاشتغال بالسياسة والإدارة والصحافة لم يغن الشيخ رحمه الله شيئاً ٠

وأعجب من هذه الدعوى معالجتها فإن المؤلف اكتفى فى بيانها بسطرين قال ص ٩١ «إن الرومان ترجموا تلك القوانين (؟؟؟) من كتب مذهب الإمام مالك ولما خافوا أن تأبى الأمة الرومانية قبوله قالوا إنه قانون قديم للرومان فقبله القوم » رحمه الله وغفر له٠

فأية فكرة كانت لديه عن رومه ونظمها السياسية ومجلس شيوخها وآراء علمائها وبحوث مخترعيها – وهو لو عرف شيئاً من ذلك لعرف أن دول العالم انتحلت القانون الرومانى وجعلته قانونها ٠ وكل الذين قرأوا كتابى إهرنج ومومسن الألمانيين فى تاريخ رومه وتشريعها يتحسرون على تورط أمثال هذا الرجل الطيب فيما لا علم له به ٠

وعلى كل حال فنحن نعتبره مجتهداً فى دينه ووطنيته وعلمه وأدبه وللمجتهد إن أخطأ أجر لايفوته ٠ ولا نعد هذا عيباً عليه فقد نشأ نشأة أزهرية منذ ستين عاماً ولم تكن العلوم الحديثة أو الثقافة العصرية قد احتلت مكانتها التى تحتلها الآن ٠ ويكفى هذا الشيخ فخراً أنه كان صحفياً شريفاً طاهر اليد لم يلوث ضميره ولا نفسه بأقذار الحياة التى استجدت بعده بفترة قصيرة واستمرت واستفاضت حتى أغرقت الخير والفضيلة ٠ فأين لنا الآن صحفى متصوف وأزهرى ميّال الى الخير يخدم وطنه لينبه أبناءه ويوقظهم من سباتهم ٠

محمود الأيوبى

طبيب أسنان نجل صلاح الدين الأيوبى المحامى بطنطا فى أوائل القرن العشرين ، وعمه الأستاذ إلياس الأيوبى المؤرخ لمصر الإسلامية وحاز جائزة ملكية فى تاريخ الخديو إسماعيل ، وشقيقته الآنسه نعيمه الأيوبى . وقد تعلم طب الأسنان فى ألمانيا فى فترة الحرب الكبرى الأولى . وقد عرفت أباه وكان رجلاً شهماً ذا غيرة على الدين والأخلاق ، أما عمه « إلياس الأيوبى » فكان بين بين وقد انتحل الإسلام وتزوج بسيدة مسلمة وتوظف بالمحكمة المختلطة ثم انتقل الى القصر الملكى بعد تأليف تاريخ إسماعيل وتوفى فى صيف سنة ١٩٣١ فى إحدى قرى الشام وهى مسقط رأسه فتنازع جثته المسلمون والنصارى مرات عدة وانتهى الأمر بدفنه فى قبور المسيحيين مع ثبوت إسلامه .

وقد ذكر فى تاريخ إسماعيل عبارات أليمة كقوله إن مارييت باشا كان يضحك فى سقارة كلما رأى غضب المسلمين من استحمام حلوفه « حلوف مارييت » فى الميضأة التى أعدها عمال التنقيب فى سقارة للوضوء ، وكان الأيوبى يشارك مارييت الضحك هازئاً بهذه الشعائر المقدسة . وكذلك كتاب مصر الإسلامية قد حشده بالنقد المرير والتحامل على العرب والإسلام مما دلّ قراءه على أنه انتحل الاسلام لمأرب .

أما أخوه صلاح الدين فكان صادق الإيمان منزها عن الأطماع وكان رجلا مهيب الطلعة قصير القامة سريع الغضب للشرف والاستقامة عدواً لكل اعوجاج فى الأخلاق ، وأما محمود الأيوبى طبيب الأسنان فقد جمعتنى به مأدبة فى دهبية نيلية يملكها من يدعى أحمد بهجت نجل أحد القضاة وخاله مصطفى الشوربجى من أعيان

القاهرة وكان مقره بباب الخلق ٠

فتكلم عن تعليمه فى ألمانيا ثم انحدر الى الكلام عن المستشرقين ففتح أحد الحاضرين الحديث فى السيرة النبوية ٠ فانبرى محمود الأيوبى « الدكتور » وهو ذو فهاهة ولثغة وقال إنه عندما كان بألمانيا سمع أو قرأ أن المستشرقين يقولون إن الرسول ليس له والد معروف ولذا سمى ابن عبد الله وهذه عادة كل ولد مجهول النسب، ثم توسع فى هذه المسألة توسعاً عجيباً وكان أحد المدعوين صامتاً صابراً حتى انتهى الأيوبى من قصته فقال له : هل تعرف على التحقيق من هو المستشرق الذى كتب هذا وفى أى كتاب من كتبه وفى أى صفحة من صفحاته ٠

فقال : لا أتذكر

قال المعترض : إذا سلمنا جدلا بأن مسألة على هذا الجانب من الخطورة يصح الاستشهاد فيها بكلام طيّار على لسان مسلم متعلم فهل تظن محمداً لو كان كما زعمت أو زعم المستشرق المجهول كانت قريش تسكت عنه وهى التى كانت تتلمس مواطن الضعف فى ماله أو دعوته حتى سبوه ونسبوا اليه السحر والجنون ومعاشرة الفقراء والأراذل مما ذكره القرآن ولم يخفه ٠ حتى عتاب الله فى حديث ابن أم مكتوم « عبس وتولى » ٠

قال : لا اظن

قال المعترض : ولو فرضنا والده مجهولا فهل كان يتطوع اثنان من أشراف قريش وهما عبد المطلب وأبو طالب ليتكفلاه ويكون أحدهما جده والآخر عمه ٠ وهل كان أبو لهب وهو ألد أعدائه يكتم هذا الأمر ويقول « ابن أخى » وهل كان يوفد جاريته ثويبة لترضعه ثم يعتقها لأنها بشرته بمولد محمد ٠ واذا كان مستشرق واحد قد قال هذا فهل صدق وكذب مئات المستشرقين الذين أقرو بنسبه ٠

فنهض المعترض عن المائدة وقال : إن لم تغادر هذه الدهبية فإننى أغادرها فالجلوس مع مثلك والطعام معك حرام لا لأجل الدين أو شرف الرسول ولكن لجهل واستهتارك .

ولا أدرى ماحدث بعد هذه الضجة . ولكن هذا الحادث ولّد الرعب فى قلب الأيوبى فلم يذكر النبى بشر بعد ذلك(١) .

أما شقيقته فقد سافرت فى بعثة الى بلجيكا وعادت بأستاذ شاب من بروكسي وحتمت على الحكومة أن تسمح لها بالزواج منه ، وقيل بعد ذلك إنه أسلم ووافق الحكومة المصرية على تعيينه أستاذاً فى الجامعة المصرية فحظى بالمنصب والعرو والإسلام ولو ظاهرا . وهى فتاة متعلمة حازت إجازة الحقوق ونالت شرف الانتساب الى المحاماة فكانت أولى الفتيات المصريات اللواتى قيد اسمهن فى جدول المحامين ث خلعت رداء الدفاع وتقلدت وظيفة فى وزارة المعارف ثم ارتدت ثياب الزفاف وهى الآ من دائرة السيدة هدى هانم شعراوى تلازم مجالسها وتحضر محاضراتها وتعينها ف الإصلاح الاجتماعى لأنها متحررة الفكر الى أبعد مدى وتلبس القبعة والفستا القصير وتتخذ زينتها عند كل محفل . وهى على النقيض من أخيها محمود فإنه سمي قصير مبهم التقاطيع ذو لكنة ولثغة ولا أعرف مهارته فى طب الأسنان وربما كان تثبت من فنه كتثبته من أنساب الأنبياء .

---

(١) الواضح أن المعترض هو لطفى جمعه نفسه .

ولا يفوتنى أن أذكر أن إلياس الأيوبى بذل لى جميلا فى مصاحبتى ليلة ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٢ بالاسكندرية بعد حفلة المرحوم الشيخ محمد عبده فقد خطبت فيها ومرضت فرافقنى الى دار صديقى وصديقه القاضى سليمان يسرى بك رئيس جمعية العروة الوثقى ٠ وقضينا سهرة الى أن آن موعد سفر قطار نصف الليل الى القاهرة من محطة سيدى جابر ، وقد وقفت على أمر مهم فى تلك الليلة وهو أن يسرى بك اقتنى كل مطبوع عن تاريخ مصر فى مكتبة جميلة وأباحها للأيوبى فكانت فيها سائر المراجع التى استعان بها فى وضع تاريخ إسماعيل فى جزئين ضخمين وهو لايساوى ثمن الورق الذى طبع عليه ٠

محمود بسيونى

رجل فاضل بحبوح محبوب من جميع من عرفه من زملائه وعملائه ، وكان منذ شبابه وطنياً مخلصاً ومن أنصار مصطفى كامل وترافع عن الوردانى وجملة من مشاهير المحامين أمثال الهلباوى وعلوبه باشا . ثم اتصل بالوفد فى أول حركته وكان وزيراً للأوقاف ورئيساً لمجلس الشيوخ ورئيس الوفد الذى سافر إلى الهند لرد زيارة البانديت نهرو وأمير الحج فى سنة ١٩٣٨ أو سنة ١٩٣٩ ونقيباً للمحامين مرات متتالية وبالجملة نال بإخلاصه وثباته ووفائه وحسن نيته كل ماتصبو إليه نفوس الرجال عن جدارة واستحقاق ولم ينل شيئا محاباة أو مجاملة .

وله كعب عالية فى المحاماة وقدرة ماهرة فى المرافعة واختار أسيوط مقراً لعمله منذ نشأته فحصل على ثروة جيدة فى العقار والمنقول وربّى أولاده تربية حسنة وبوأهم المناصب العالية فى حياته .

وهو رجل بسيط المظهر طيب القلب لاتعرف العداوة طريقاً الى فؤاده ولايتخذ من الحزبية وسيلة للبغضاء أو التقاطع ، ولايعتبر الخصومة السياسية سبباً للتنافر ويعتبر كل الوطنيين مخلصين وإن اختلفت مشاربهم ووسائل عملهم .

ويظهر لى أن سبب السكوت عليه من الزعماء أنه هو نفسه زعيم ورجل كبير وذو مكانة وحرمة غير منكورة، ولما كان مسلكه هو الصحيح والواجب الاتباع ومذهبه هو الأحق بالتقدير فلم يعرض له أحد بالنقد وهو مستقل اقتصادياً فلا يحتاج إلى أحد وإن كان يخدم كل محتاج ويحمي كل ضعيف فإنه إن عرض له أحد بنقد فلا يؤثر منصبه على حريته ولايبيع شهرته بالأفق الضيق ، مهما دفع له فيه من ثمن . وقد مرض مدة طويلة وتعطل عن حضور مجلس الشيوخ وكان زعيم المعارضة فيه قبل يوسف الجندى ومايزال ملازماً داره وهو عضو فى ذلك المجلس الى أن يمن الله عليه بالشفاء .

معروف ارناؤط

معروف أرناؤط أديب دمشقى وصحفى يدير جريدة ألف باء ، حضر الى مصر بمناسبة وفاة المرحوم أحمد شوقى أمير الشعراء « أكتوبر ١٩٣٢ »وأقام بها شهرا وعرفته مع زملائه ونسيبه نبيه شيخ الأرض وصديقه الأستاذ شفيق جبرى أستاذ الأدب العربى بجامعة دمشق ٠

وأرناؤط كهل قصير سمين حسن الخلق متساهل يميل الى المرح والمزاح ٠ أهدى الىّ كتابه سيد قريش فى ثلاثة أجزاء وهو فخور به وإن يكن معظمه فى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية وتاريخ تيودورا بنت الأمبراطور وأخبار عشقها فخلط عملا صالح بآخر سىء ٠ ولغة الكتاب ضعيفة ومراجعه ضئيلة وهو على نسق روايات الهلا الإسلامية وإن يكن جورجى زيدان قد قصر كتبه على أخبار الخلفاء ولم يتقدم الى تاريخ الرسول فى رواية ٠ ولعله لو فعل ذلك كان كتابه يكون أفضل من سيد قريش ٠ ومعظم أوصاف الرجال وأهم الحوادث من نسيج خيال معروف ، واكتفى بذكر بعض المراجع فى أقدام الصفحات ٠ وله أسلوب غريب فى تكوين الأفعال والأسماء على طريقة تخالف قواعد اللغة العربية ٠ وفى وصف مكة يجعل كل أبطاله مقيمين فى قصور عالية مشرفة على المسجد الحرام ويضع على ألسنتهم أقوالاً لم ترد ببال أحدهم ولاسيما عند وصفه موت ورقة بن نوفل ٠ فقد جعله فى هيأة بطريق المدينة والقبيلة وزعيمها وعالمها وكاهنها وهو لم يكن شيئاً من ذلك ، وتخيل صورة شاذة لسطيح وبالغ فى احتشاد القبائل فى استقباله وتلقى أنبائه وأخباره على طريقة القصاصين ٠

وبالجملة فإن الكتاب لايعد ذا قيمة من الوجهة الإسلامية وهو الى تمجيد النصرانية أقرب ، ولذا قال لى وهو فى غير وعى إن إقبال نصارى الشام عليه أكثر من إقبال المسلمين ، وعلى حسب العادة المتبعة استكتب خليل مطران الشاعر مقدمة الكتاب ، وعندى أن شاعر القطرين (؟؟) لم يقرأ منه كثيراً ولا قليلا ٠

وقد قرأت بعد ذلك أن معروفاً « عفا الله عنه » وضع كتباً أخرى فى تاريخ بعض الخلفاء الراشدين ، ولو أنه بذل جهده فى تحسين كتابه الأول لكان أجدى عليه وعلى القراء ولاسيما لو أنه حذف الخرافات الوثنية والمسيحية التى أفعم بها هذه السيرة الخيالية ٠

وقد وجه اليه بعضهم نقداً فى وضع العنوان ، فقال له ليس محمد سيد قريش بل سيد العالمين لأنه أرسل رحمة إليهم ولم يقتصر عمله على هداية قريش ، بل امتدت دعوته الى أنحاء العالم ونجحت فى جزيرة العرب كلها ثم انتشرت فى الشرق والغرب٠

وعلى كل حال فإن إسلام معروف فاتر وحميته الدينية محدودة وتحمسه مصطنع٠ وليته لم يتعرض لهذا الموضوع واكتفى بقصة هيرقل وتيودورا وسطيح ٠ على أن هذا الرأى لايطعن فى أدب الرجل الخلقى ٠ ولكن أعتقد أن تاريخ الأنبياء لايتخذ للتجارة بالأدب ولايجوز لرجل غير متحمس لشخص النبى تحمساً عالياً مجدياً وعالماً علماً صحيحاً بسيرته أن يمد يده لتاريخ حياته ، فإن أمثال هذه التراجم الخالية من حرارة الإيمان ومن صدق العقيدة فى بطولة النبى تضر أكثر مما تنفع وتسىء ولا تحسن ولأجل هذا فطن قراء الشام من غير المسلمين الى هذه الناحية فاقبلوا على الكتاب ٠

وقد روى لى معروف أثناء إقامته ، تاريخ الجناية الفظيعة التى جنتها زوجة المرحوم فوزى الغزى أحد أبطال الدستور السورى وكيف دست السمّ فى الدواء وتآمرت عليه مع بعض أقاربه ودبروا القتل وسرقة المال والفرار الى إيران . وقال لى فى وصفها إنها فتاة بلهاء لثغة فى السين تنطقها تاء وأنها طائشة قد لعب الأدنياء بعقلها وسيطروا عليها حتى قضت على حياة زوجها العظيم الذى كان يعيبه شدة تعلقه بها على مابينهما من الفرق فى السن .

وكان بعض رفاق معروف أثناء روايته عن جريمة المرأة يظهرون التأفف ويظنون فى سرد وقائعها الأليمة حطة فى قدر السوريين ، فقال معروف : إن أخبار هذه الجريمة منشورة فى الصحف وفى كل الممالك خونة وقتلة وفسقة وربما كانت هذه المرأة آلة فى يد من هم أقوى منها للقضاء على هذا الرجل فلا مساس بشرف سوريا ودمشق . وهذا هو التاريخ إن لم نروه نحن فلابد أن يرويه سوانا فنحن أعلم به وأقدر على روايته . وقال أديب آخر إن الأستاذ فيلكس فارس الشاعر الأديب اللبنانى والموظف الآن (١٩٣٢) بالمجلس البلدى بالإسكندرية قد كتب مقالات طويلة مفصلة عن هذه الجريمة . وقد عرفها المصريون معرفة تامة .

وقد التقيت بهذا الأديب « فيلكس » فى سنة ١٩٣٣ فى حفلة تأبين المرحوم محمد حافظ إبراهيم بدار الأوبرا وقضيت معه فترة قصيرة من الوقت وسرد علىّ تفاصيل جناية امرأة الغزى . وطلبت من الأرناؤطى أن يوافينى بما يحدث فى المحاكمة فقال إن المحكمة اكتفت بعقوبة السجن المؤبد بدل الإعدام نظراً لحملها وقت المحاكمة وكانت اللعنة عليها عامة فى دمشق لأن جريمتها اقترنت بالزنا والخيانة وهى زوجة

رجل عظيم ، ومايزال قتل الأزواج بالسم سلاح المرأة فى كل زمان ومكان فى الشرق والغرب وأذكر قضية السموم Affaire des poisons وقضية مدام لافارج « فى فرنسا » وجرائم الانجليز بالسم لأجل الحصول على أموال التأمين والتخلص من الأزواج مشهورة .

ورأيت معروف الأرناؤطى مرة ثانية فروى لى نوادر مضحكة عن الدكتور محجوب ثابت أثناء إقامته فى دمشق والشام عند فراره من تهمة كاذبة كادت تلصق به فى قضية القنابل وكان هذه المرة ضيفاً على الدكتور عبد الرحمن شهبندر وهو خال زوجته على ما علمت .

موريـك بـران

أستاذ فرنسى فى كلية الآداب بالجامعة المصرية أسس جماعة إحياء الثقافة الفرنسية بالقاء المحاضرات فى إحدى قاعات فندق كونتننتال يدعو إليها الأدباء من كل جنس ودين ويدعو إليها كبار الأساتذة والخطباء ويظهر لى أنه من جنوب فرنسا أو شرقها ، وأصل معرفتى به عن طريق أحمد رشاد صاحب مجلة « الوهّاج » فلامبو وتوطدت بيننا المحبة وعمل على ترجمة شعر شوقى الى الفرنسية وترشيحه لجائزة نوبل، وينشر مجلة أدبية بلغتم القومية ودعانى الى إلقاء محاضرة فى الفولكلور المصرى فألقيتها فى إحدى صالات الكونتننتال وهى التى أقيم فيها معرض التصاوير والتماثيل فى ربيع ١٩٤٢(١) وحضرها شوقى بك وسرّ بها .

وأراد بران أن يقف على حالة الأدب فى مصر بعد سنة ١٩٣٠ وبعد وفاة شوقى وحافظ فى سنة ١٩٣٢ وسمع مصادفة عن مقالاتى فى المرحوم أحمد العاصى الذى انتحر فى سنة ١٩٣٠ فحملت ديوانه وكتبه ومخطوطاته « التى أودعها عندى قبل وفاته» وتعاونت وبران على نقلها الى اللغة الفرنسوية وكان ينوى نشرها فى مجلة واشتغلنا يومين شغل الجد فى بيته ثم انقطعنا لأسباب شتى كبعد المسافة وكثرة المشاغل .

ومايزال بران دائباً علي عمله فى نشر الثقافة الفرنسية ، ولكن أظن هذه الثقافة لن يكون لها أى شأن بعد تدهور فرنسا وانهيارها فإن آداب الأمم لاتنتعش ولا تنتشر إلا بعاملين الأول كثرة القارئين « كما هى الحال بالنسبة للأمة الأنجليزية المنتشرة فى

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها سنة ١٩٣٢ .

الجزر البريطانية وفى أمريكا واستراليا وآسيا وافريقيا » والعامل الثانى ظهور الحضارة فى الأمة ، وكلا الأمرين قد قصرت فيهما فرنسا ، فعدد أهلها آخذ فى الانحطاط وظلها تقلص من البلاد الأجنبية وسيبقى أدبها تذكاراً أثرياً للمثقفين والمنقطعين لدراسة الآداب الميتة كاليونانية واللاتينية القديمتين ، ولاسيما أن كتابهم انقطعوا للقصة الغرامية وتحايل النساء وهذا شىء فرغ العالم منه وزهد فيه . نعم إن قانونها قوى والمؤلفات فيه قيمة ولكن أثره كالقانون الرومانى وما وقع لفرنسا الآن قد وقع للعرب والإسلام بعد انهيار دولهم .

وستبقى تلك اللغة والآداب لمصلحة الأساتذة الذين يتعيشون منها فى هذا الجيل، ومن محاسن بران أنه محب لمصر ويلبس الطربوش ولا يتخلى عنه .

نجيب اسكندر

طبيب عالم ومحلل قدير وصديق لمرضاه مخلص فى عمله مجد فى علمه ، ولد سنة ١٨٨٥ فى مدينة القاهرة وكان أبوه إسكندر مسيحة بك وكيل البطريركية القبطية الأرثوذكسية ، وهو شاب حسن الصورة شديد الوفاء محب لوطنه كان يعمل فى وظيفة كبيرة فى معامل الصحة ثم اشتغل بالحركة الوطنية من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٤٢، وانضم الى الوفد المصرى واجتمعنا معا فى عيادته للنظر فى كثير من أعمال الحركة الثورية التى كانت سرية واجتمع معنا كثير ممن صاروا بعد ذلك وزراء ورؤساء وزارات. ولكنه كان مستقيم الأخلاق لايعرف التفريط فى مبادئه وأخلاقه وقد عرض نفسه لأخطار كثيرة وتهم خطيرة فى سبيل وطنه ولم يربح شيئاً غير النيابة ، ولو أنه بقى فى منصبه بالحكومة لوصل الى منصب وكالة الوزارة على الأقل فقد وصل إليه من كانوا أقل منه بمراحل فى العلم ومن لم يبذلوا دانقاً ولا تعب ساعة فى خدمة وطنهم ٠

وقد وضحت لذهنه هذه المسألة فكان يصوغها فى القالب الآتى يقول « لقد رأيت الحركة المصرية وراقبتها عن كثب من عهد المرحوم مصطفى كامل الى الآن فرأيت أفضل الرجال وأخلصهم يُهضمون وتبلع حقوقهم وينساهم الشعب الذى خدموه وأن الكسالى والعاطلين والأنانيين هم الذين يجنون ثمرات هؤلاء المجاهدين ويستولون على المناصب والمنافع ٠ ورأيت أن سبب ذلك راجع إلى حياء الفضلاء وأدبهم وعفتهم فى بلد وفى زمن لايفلح فيه إلا المنافقون والأوغاد والهجامون والمغامرون الذين يشبهون بنات آوى والذئاب والثعالب التى تتبع الأسد لتأكل فريسته ٠ والفرق أن الأسود فى مصر لايمسّون الغنيمة ويتركونها للذئاب والثعالب وبنات آوى ٠ وقد رأيت النجاح فى

وقد استبان الدكتور نجيب هذه الحقيقة أثناء حياة سعد وبعد وفاته ولكنه صبر الصبر الجميل الى سنة ١٩٣٢ ٠ فوقعت قضية القنابل واتهم بتحريض العمال على صنع القنابل وإطلاق الرصاص واغتيال رجال حكومة إسماعيل صدقى باشا الذى وثب الى الحكم فى سنة ١٩٣١ وألغى الدستور واضطهد الوفديين .... إلخ ، وبقى الدكتور نجيب إسكندر عاما فى سجن الأجانب وقد قبض عليه فى سبتمبر سنة ١٩٣١ فى مصيفه بالإسكندرية وتاريخه فى هذه الفترة هو تاريخ تلك القضية ، وتطوع للدفاع عنه سبعة محامين أحدهم الأستاذ مكرم عبيد وحدث بينهما جدال ونزاع وخصام أدى الى انسحاب مكرم وخمسة من زملائه وكادت تتعطل الدعوى لولا أن الله سلّم وتسلّم زمامها غيرهم من المحامين الذين قاموا بالدفاع خير قيام حتى حكم ببراءة نجيب وتسعة معه بعد اعتراف إبراهيم الفلاح بتلفيق القضية ٠

ولما خرج نجيب من السجن في أغسطس سنة ١٩٣٢ أقيم له احتفال فى يوم النيروز ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٢ حضره البطريرك يؤنس وجميع أعيان الطائفة ، وألوف من المصريين وخطب فيه عشرات الخطباء والشعراء ، ولكن الوفد نبذه وقاطعه وأعرض عنه الرؤساء وتجاهلوا وجوده بعد تعذيبه عاماً ٠ فانضم الى المنشقين مرغماً وهم الحزبُ المعروف بالسبعة ونصف إشارة الى أن ثامنهم على الشمسى باشا قصير فلا يعد إلا بنصف رجل ٠ وكانت أعماله فى تلك الفترة مبْهمة لأن هؤلاء السبعة ونصف كانوا من أعجز الرجال وأجبنهم وأضعفهم وهم حمد الباسل وسلامة ميخائيل والشريعى والجزار وفخرى عبد النور وفتح الله بركات وعلى الشمسى ٠ فلم يجتمعوا ولم يستقروا فى مكان ولم يخطبوا ولم يكتبوا ، ولم يذيعوا بياناً جبناً وخوراً وخوفاً من قوة الوفد ، وأخيراً اتخذوا نادياً يتيماً فى شارع فؤاد يختلفون اليه ويجتمعون فيه سراً ويطيلون الاجتماع ثم يخرجون صفر الأيدى كأنهم كانوا فى مأتم ويجيدون تمثيل الصمت ٠

مصر مقدراً بالمال الذى يخطفه الرجل ولا يسأل من أين يأتى به . ورأيت المناصب والنفوذ فى أيدى الرجال الذين لايستحقونه ، ورأيت الكفاءة مجهولة مهضومة وصاحبها محسود مبغوض . ورأيت الأشرار واقفين للأخيار بالمرصاد لمحاربتهم ومزاحمتهم وحرمانهم بكل الوسائل من حقوقهم وحرمان الأمة من خدمتهم . ورأيت الأحزاب كلها من نوع واحد كأنهم قبيلة واحدة ، وأن الأفراد كلهم على وتيرة واحدة فى أخلاقهم وأعمالهم وسيرتهم كأنهم جمعية سرية ذات خطة واحدة غايتها سرقة الحكم والاستئثار بفوائده ومنافعه - فهم يختلفون اسما وهيأة وشكلا وصورة ولكن كلهم رجل واحد فى محاربة الحق والعدل وهضم الحقوق وإقصاء أهل الكفاءة والذمة وليس لديهم صداقة ولا إخلاص ولا شرف ولا مبدأ » .

« وقد أدهشنى هذا الأمر دهشة لم أفق منها حتى الساعة ، فقد كنت أحسن الظن بالجميع وأصدق مايزعمونه ويدعونه من الإخلاص للوطن والعمل على خدمته ولكننى فوجئت باليقظة فى عالم صغير ينهش بعضه بعضاً والجرم واقع على الزعماء والرؤساء الذين هم عبيد شهواتهم وعبيد سادتهم » .

ثم يضرب الأمثال بالأسماء والألقاب والوقائع . ويقول « لقد كان مصطفى كامل أصدق الوطنيين ولم يخلفه إلا فريد وسعد ، أما فريد فقد حيل بينه وبين خدمة وطنه ولم يكن يصلح لها لأن أخلاقه الشريفة وأصله الطيب ونبل مقاصده كانت تمنعه من المداهنة والمجاملة والمساومة التى هى ضرورات السياسة المصرية فى جميع أدوارها ، أما سعد فقد التفت حوله من الساعة الأولى جماعات لا أستطيع وصفها الحقيقى لأننى أحد أفرادها . وقد اندمجت فى زمرتهم أنا وأخى راغب مخدوعين ، وجاهدنا وفقدنا المال والمركز وكافحنا ونفينا وسجنا ثم أهانونا وأقصونا وطردونا واضطهدونا ثم استداروا يأكلون بعضهم بعضاً وينهشون بعضهم بعضاً ، وكلما خرجت فئة لعنت التى قبلها والتى أخرجتها وهكذا » .

ومن أخبارهم أن حمد الباسل كان يحسن الحديث فى البهو الكبير ويقلد اللهجة البدوية ويروى أشعاراً ونوادر ويذكر ماقرأ من الكتب وينطق أحياناً برطانة فرنسية ولكنه جم الأدب كريم الخلق وكأنّ فى فمه ماء فيما يتعلق بالسياسة ٠ فيصغون اليه كأن على رؤوسهم الطير ثم ينفض المجلس ٠

وكان فخرى عبد النور وهو قسيس فى زى الأعيان يفتخر بأن له أقوى ذاكرة فى العالم فيما يتعلق بحوادث الوفد وأشخاصه وأيامه فيسردها سرداً منظماً، وعندى أن الرجل كان يقتنى الصحف وكان يسجل الحوادث أولا بأول وأنه كان يديم مذاكرتها ومراجعتها فلا تفوته فائتة ، وكان يَقتبر حياته ومصلحته مستمدتين من الوفد وتاريخ الوفد وأخبار الوفد ، ومازال هكذا يمالىء السبعة ونصف الى أن صالح الوفد وعاد الى أحضانه مغفور الذنب ٠ وكان سلامة ميخائيل صنماً صامتاً يعوج الطربوش ويقلب السبحة ويتهيج فيتكلم فى نوبة عصبية ثم ينسحب ٠ أما الشريعى والجزار مع فضلهما فقد كانا كالممثلين الذين لاينطقون بحرف « كومبارس » وقد اصطلح أحدهما وهو الجزار وتوفى الشريعى فلم يشيع الوفد جنازته ولم يوفد رجلاً واحداً لمرافقته الي مقره الأخير انتقاماً ٠ كل هذا جرى سنة ١٩٣٣ ٠

وقد خانهم الدهر بوفاة المرحوم فتح الله باشا عقيب عملية جراحية ، ولو أنه عاش لانتعشوا فما قيمة قوم ينهضهم رجل ويقعدهم رجل ٠ فكان موته « دقة حظ حسن » لخصومهم وقد حل محله نجله الأديب بهى الدين ولكنه لم يملأ فراغه ٠

وكان يحوم حول هؤلاء السبعة كثير من الناقمين أمثال الغرابلى باشا « لعله أحدهم » وعبد الرحمن عزام وعبد القادر مختار وموريس أرقش ولفيف المحامين الذين لم يتبعوا إشارة مكرم فى الانسحاب من قضية القنابل ومدّ إليهم محمد محمود باشا يده مصافحاً وخاطباً ودهم وخطب يعضدهم مرة فى بيت حمد الباسل ودعاهم حمد يوماً للإفطار فى رمضان وأقاموا بعض الحفلات لضيوف مصر من العراقيين وغيرهم

تركوا خصومهم ينهشون لحومهم مع أنهم كانوا فى عهد الوزارة الصدقية المعادية للوفد ، ولكن هذا الوفاء الصامت وهذا الجميل الناطق بالإخلاص حتى خافوا على الوفد شماتة الأعداء ، ولم يجد نفعاً ٠ واندس فى هذا المجتمع كثير من المنافقين والجواسيس واتخذ أصحابنا غرفة للاجتماع السرى كأنهم مجلس الكرادلة عند انتخاب البابا ٠ ولكنهم لم يفعلوا شيئا ولم يأتوا بثمرة ناضجة وتفككوا بالتدريج ، فالشمسى هاجر الى سويسرا أو عاد الى مناصب المال والسياسة والتمثيل فى عصبة الأمم ، وسلامة ميخائيل هوى من أفق شهرته وتخلى عنه غالى ميخائيل الذى جلبه من قريته يافعاً وقدمه نائباً ورشحه لانتخابات النقابة وأغدق عليه، وكان آخر العهد به سنة ١٩٣٨ بعد خروج ماهر والنقراشى ، فقد سافر الى إحدى القرى ليرشح نفسه فأهين واعتدى عليه وألقوا بطربوشه فى الترعة وحطموا سيارته فحزن فمرض فمات ٠

وهكذا برهن أعضاء الوفد على أنهم لايصلحون للعمل منفردين ولم يطل العهد بهؤلاء السبعة ونصف فإنهم اضمحلوا وتخاذلوا الى سنة ١٩٣٤ فتغيرت الوزارة وحل توفيق نسيم محل إسماعيل صدقى ...... إلخ ٠

وتمكن نجيب إسكندر من دخول البرلمان فى سنة ١٩٣٨ وكنت أظن أنه لايعود بعد قضية القنابل الى هذه المهازل ولكنه عاد تحت راية أحمد ماهر ولم تكن حاله فى هذا العهد بأسعد منها فى العهود السالفة وقد فشل أخوه الأستاذ راغب إسكندر بك فى الانتخابات فى نفس بلده وفشل سلامة ميخائيل فشلاً ذريعاً واختاروا الدكتور حامد محمود لوزارة الصحة وكان المأمول أن يقع الاختيار على نجيب بك فإن كان قياس الوطنية قضاء مدة فى السجون فقد سجن نجيب عاماً ولم يخرج من التهمة المحكمة إلا بشق الأنفس ٠ ومازال فى البرلمان خافت الصوت شديد الحياء عاجزاً عن المطالبة بحقه وإخوانه قد جعلوا « ودن من طين وودن من عجين » ولايقدمون إلا الذين يخافون جانبهم أو يقيمون لهم الولائم الرداح أو يساهرونهم ويسامرونهم حتى مطلع الصباح ٠

ولكن الدكتور نجيب إسكندر لم يشك ولم يتململ ولم يغضب ولم يظهر ضجراً ولا غضباً ، ولكننى رأيت هضم الحقوق والاستئثار يربّى الحزازات ويغير النفوس ويحوّل القلوب عن المقاصد العليا الى النظر فيما أيدى الناس ، فبئس الحيلة والقوة عند الاستيلاء على القوة والنفوذ ثم التربع فى دست السلطة ، وغض الطرف عن كل منْ خدموا وضحوا وبذلوا .

نعم إن الوطنى الصادق لايطلب أجراً على عمله وإخلاصه لأن العمل والإخلاص لايقدران بمال ولامنصب ، ولكن الوصوليين يستحلون الأجور لأنفسهم ويحرمونها على إخوانهم وأعوانهم الذين تسلقوا على أكتافهم ، وقد روى له أحد هؤلاء الذين سُخِّروا للوصوليين أن هؤلاء الوصوليين كانوا أثناء جهاده يقبلّونه ويحتضنونه ويقبلون عليه فى محبة ظاهرة وعطف مصطنع ، فلما أن مسكوا أطراف حبال السلطة تنمروا له وصاروا يغضون أطرافهم ويتجاهلونه كأنهم لم يسْمروا معه ولم يأنسوا به ولم يرحبوا به بالأمس ، وهذه صناعة خبيثة منهم ليردوا أهل الحياء والإباء أو يرهبوا أصحاب الجرأة ، حتى إذا هاجمهم أحد « وهذا نادر » أظهروا له « الشلق » وشنعوا عليه وقالوا له « خلاص أنت خدمت وطنك باختيارك ولم يرغمك أحد على ذلك ونحن ليس عندنا خزائن الأرض ومناصب الحكومة ليست ملكا ، بينما يقربون السفلة والقوادين وسياس الخيل وسماسرة السوء ، وأصحاب التهم وأرباب السوابق وأهل الشهرة الرديئة والأسماء الخبيثة وجعلوهم رؤساء وكبراء وبذلوا لهم ما استطاعوا من المنافع ، فيرى الرجل الطيب هذا المسلك فلا يحتاج الى العتاب ، خوفاً من تفشى العدوات وينسلخ عنهم بالتدريج بعد أن يكون قد رأى بعينه وسمع بأذنه وتأكد بعقله أنهم لايختلفون عن أسلافهم وهم يعتمدون فى خطتهم على أنهم إن فقدوا زيداً أو عبيداً سوف تنبت طبقة أخرى من المخلصين والجاهلين وقليلى التجربة يلقون بأنفسهم فى أفرانهم ليكونن حطباً لنارهم ومطايا لأغراضهم .

وخلة أخرى خبيثة عندهم وهى أنهم كلما صعدوا كلما نعمت أخلاقهم وتهاونوا فيما كانوا يتشددون فيه وزادوا استهتاراً واستصغاراً للشئون العامة ، وكان المنطق أن يضاعفوا جهودهم فى خدمة أوطانهم ٠

ولكن الحقيقة التى لا ريب فيها هى أن كل هؤلاء الناس ماعدا مصطفى كامل ومحمد فريد وأفراداً معدودين من كل الأحزاب ، لا غاية لهم إلا الوصول الى الرتب والمرتبات ولاسيما الذين سبقت لهم قبل اشتغالهم بالسياسة وظائف فى الحكومة ، فكم يكون طرب أحدهم عظيماً عندما يصبح وزيراً ورئيساً لرؤسائه السابقين ، وغير هذا من أنواع الصغار النفسى والضعة الخلقية ٠

وقد لقيت واحداً من مرشحى أنفسهم للمناصب انضم الى فئة غدرت به ، فكان الرجل يكاد ينفجر من الغيظ ويعجز عن الإفضاء بما فى صدره من الغل والحقد والتعبير عما لحقه من الإهانة وعدم الاكتراث على مدى أربع سنوات قضاها فى كنف هيأة أصدقائه الذين طلق لأجلهم أصدقاءه الأقدمين ٠ وأكثر من ذلك أنه كان منذ ثلاثين سنة بشّرته منجمة بأن يكون وزير خارجية فى وطنه ، وقد بذل جهوداً جبارة فى هذا السبيل ليحقق كهانة المنجم دون جدوى وقد شارفت حياته على الفناء دون أن يحققها وفلتت الفرصة فعلاً من يده ، ودع جانباً كفاية الرجل وأخلاقه وجدارته فإنه كان يستحق المواساة والتشجيع بالرجاء على الأقل ولكن أصحابه جعلوا « ودن من طين وودن من عجين » وعموا وصموا عنه كما عمو وصموا عن سواه ٠

فأين يذهب نجيب إسكندر فى وسط هذه المعمعة الحمقاء ٠ وأين تذهب « عيشه فى سوق الغزل » ٠ فهذه معركة حامية ومجزرة دامية وسلب ونهب وأحقاد وأضغان ، وهناك لصوص وقطاع طريق فى ثياب عظماء وذئاب فى جلود حملان ٠

وماتزال الحال هكذا فى مصر الى أن تمر أجيال وأجيال فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقى التوأمان ٠٠٠ !!

نيقولا بالاماريس

شاب مهندس يونانى الجنس والأصل ولد فى المنصورة من أسرة حسنة وتعلم الهندسة فى كلية الملك بلندن ، وقد عرفته فى سنة ١٩٠٩ فى البيت الذى نزلنا فيه أيام كنا ندعو للمؤتمر الوطنى المصرى الذى عقد فى مدينة جنيف سنة ١٩٠٩ . وعلى الرغم من جنسه ودينه وإقامته فى انجلترا يتلقى العلم فى كلياتها ويرجو أن يدخل خدمه الحكومة المصرية بمعونتهم ، فقد بذل لنا معونة كريمة وتكبد مشقات فى أعمالنا الكتابية وقضى أياما وليالى طويلة فى إدلالنا على مانطلب وصحبنا الى مجلس النواب وكان فى أوقات الفراغ يدعونا الى النزهة والحفلات الاجتماعية وينفق من حر ماله بينما كان عدد كبير من الطلاب المصريين يتحاشى القرب منا أو الاتصال بنا خوفاً على مستقبله منهم ح. باشا. ش . وتوفيق دياب . وقد كان لهذين وغيرهما بعد ذلك شأن فى الحياة السياسية فى مصر وبذلوا وضحوا ، فدلنى ذلك على أنهم مذ كانوا فى انجلترا على الرغم من شبابهم وذكائهم كانوا لم يبلغوا حلمهم السياسى ولم يصلوا الى الرشد الذى يوحى اليهم خدمة أوطانهم فى أى زمن ، فلما نضجوا وبلغوا الرشد بعد ذلك بعشر سنوات لم يتأخروا عن العمل ولكنهم تجاهلوا المؤسسين الأول والذين زرعوا الزرع الأول وهزّوا الأقلام وأعواد المنابر ، فوجب علىّ أن أسجل هذه المكرمة لهذا اليونانى الفاضل وأعتبره من ورثة الحضارة اليونانية القديمة .

وبعد عودته الى مصر ببضع سنين لم يقطع مودتى وشرفنى بزيارته وصداقته ثم اشتغل فى أعمال الخزانات ومقاولات السودان ومصر ، ولم يقف شىء مما قدمه لمصر فى سالف وقته عقبة فى طريقه بل حببه الى الناس وأعانه حتى تزوج وأثرى وزرت أهله فى المنصورة أثناء غيبته كما وعدته فقوبلت بالترحاب وقالت لى والدته وهى شيخة متقدمة فى السن لقد أحسنت إلىّ فكأننى رأيت ولدى .

ويلفريد سكوين بلنت

أحد زعماء الفكر والأدب والسياسة فى القرن التاسع عشر والعشرين فى انجلترا ، وكان صديق مصر المخلص الوفى وحبيب الإسلام والشرق ونصير كل مظلوم في أنحاء العالم طوال حياته .

وقد ترجمت له مرات متعددة ولاسيما فى جريدة الأفكار فى شهر اغسطس سنة ١٩٢٢ عندما توفى إلى رحمة الله فى الثمانين من عمره .

وليس هذا الرجل العظيم قليل الشهرة فى العالم ولكن بعض أهل السوء فى مصر من الجواسيس والمأجورين زعموا كذبا وميناً أنه كانت له يد فى احتلال القطر المصرى وتحريض عرابى وإخوانه على الفتنة ليجعلوا للإنجليز وسيلة للتدخل الحربى وغزو البلاد وحكمها . وهذه أكذوبة ضخمة وتهمة ملفقه ونبأ باطل أتى به أكثر من فاسق ليفسد بين هذا الرجل وأصدقائه من الشرقيين والمصريين .

وليس يوجد دليل على إخلاص الرجل وصدقه وغضبه على حكومته وشعبه من بقاء المرحومين السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل والخديو عباس حلمى وأحمد المنشاوى باشا على صداقته ومحبته وتقديره ، وليس بين هؤلاء أبله ولا مخدوع ولا رجل سهل القياد ويخدع بالظواهر .

وقد زرته وعاشرته فى سنة ١٩٠٩ فى قصره المنيف المدعو بالمبانى الحديثة New buildings place بجنوب انجلترا الشرقى Sussex عن طريق هورشام .

وتحدثت اليه وكان يمد يد المعونة الى مصطفى كامل طوال مدة جهاده ثم الى المرحوم محمد فريد بك وقد نشر كتبا كثيرة أولها سر الإحتلال ثم غوردون فى

السودان والهند فى عهد ريبون ومذكراته فى مجلدين و مذكراته عن فترة الحرب العظمى ، وكل هذه الكتب المطبوعة المنشورة تدل على إخلاصه للشرق والإسلام ومصر فخير ما أقوله فى الدفاع عنه لمن يجهلون شأنه أن يقرأوا بضع صفحات من أى كتاب مطبوع من كتبه ومن لايعرف الإنجليزية فليكلف من يعرفها بالنقل اليه بالعربية .

وكان الرجل خصم غلادستون وكرومر وجراى ولورد مورلى الألد ولم يكن بينهم وبينه مايقتضى الخصومة وهو من أعيان بلاده وأكبر أغنيائهم وقاضى مديريته ، وأكبر ملاكها إلا ماكان ينازعهم عليه من المظالم فى الشرق وقد سجن مرة بسبب مناصرته لأيرلاندا ورحل فى الهند وسافر الى اصطامبول ولقى السلطان عبد الحميد وساح فى جزيرة العرب .

وكانت هوايته اقتناء الخيل العربية الأصيلة واشتهر مقره فى العالم أجمع بأجود الجياد وأثمنها ، ونزح الى واحة السيوة ليعتنق الإسلام ونقلت زوجته لادى بلنت المعلقات الى الإنجليزية وكانت حفيدة لورد بيرون الشاعر الإنجليزى الشهير .

وكان الرجل كاثوليكى المذهب حكما وشهرة ، ولكنه فى الواقع كان يعيش على قواعد الإسلام حتى إنه أوصى قبل موته أن يغسل ويكفن ويدفن على طريقة الإسلام . فلم يلبس ثياباً ولم يوضع فى صندوق ولم يباشر أحد القساوسه توصيته أو الغفران له أو يتمم واجباته الدينيه كما يصنع أهل الكثلكة .

وكانت له ضيعة أخرى ابتنى فيها قصراً أخر ولعله مورث وهو قصر crabbets وكان مقر الوزراء والأمراء والأعيان ومحفل الأرستوقراطية من أنحاء العالم وقد زاره المرحوم الأفغانى فى هذا القصر وزاره مصطفى كامل وفريد وعشرات من الوطنيين وكاتب هذه الأسطر فى قصره الجديد وقابلنا بثيابه العربية « الكوفية والعقال والعباءة» وحيانا باللغة العربية وعرض علينا فى وضح النهار بعض خيوله الشهيرة الأصيلة . وإن لم تكن من أهل المعرفة بها ولا هواتها .

وكان رجلا طويل القامة نحيف البدن « وقد رأيناه قبل وفاته بثلاثة عشر عاما » رقيق الصوت ناعم القول ، شديد التحمس للحق يعيش عيشة الزهد والعزلة ، لأن زوجته كانت تساكن كريمته فى قصر كرابيت ، وقد ذكره لورد كرومر فى كتبه ورد عليه فى عنف وعنجهية بعض المسائل وأراد أن يشكك القراء فى صدق روايته ، ولكن الواقفين على حقيقه الأمور يعلمون الصادقين من الكاذبين ومن له مصلحة فى الحق ومن له مثلها فى الباطل ٠ وليس هنا مجال الإسهاب فى هذا الباب وليس هذا مجاله.

وقد مضى الآن ثلاث وعشرين سنة على اجتماعنا به ولاننسى وجهه الأصبح وجبينه العريض العلى وأنفه الأقنى وعينيه الهادئتين الخارقتين ولحيته الكثة البيضاء وقامته المعتدلة الرقيقه ويده الناعمة اللينة وصوته الرقيق العذب عندما قال لنا « أهلا وسهلاً ومرحباً لقد شرفتم داركم فتفضلا » ، وكان معى رفيق فى هذه الزيارة « حامد العلايلى صحبة اضطرار فإنه قضى خمس سنوات قبل ذلك فى انجلترا ولم يخطر بباله أن يتعرف الى هذا الرجل العظيم » ٠

وكان أهم حديثه توجيه النصح إلينا وإظهارنا على خفايا السياسة الاستعمارية قال عن عرابى « لاترفعوا له تمثالاً ولا تضعوه فى التراب » فإنه لم يكن زعيما قويا ولا قائداً قديراً بل كان فلاحاً راقياً وكان ذا أحلام جميلة ومقاصد طيبة ٠ وأثنى أجمل الثناء على المرحومين محمد عبده ومصطفى كامل ، ورفعهما الى درجة المصلحين العالميين والأبطال ٠

وأنفق بلنت أموالا طائلة فى سبيل خدمة الشرق والإسلام ونشر جريدة للدفاع فيها عن مصالحنا واستمرت بضع سنوات وقد عدّه المؤرخون الإنجليز بين المستشرقين والرحالين فى بلاد العرب والشرق ، واستشهد كثير من كتابهم وغيرهم بأقواله وآرائه٠ وأذكر الآن أننى كتبت عليه فى البلاغ اليومى والبلاغ الأسبوعى ونشرت صورته التى تفضل بأهدائها إلىّ فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ قبيل انعقاد مؤتمر چنيف بأيام معدودة ٠

كان اسم بلنت(*) يذكر دائماً مقرونا باسم موسيو ديلونكل النائب الفرنسى الشهير ، وكان بعض الحاقدين على الوطنية المصرية يطلقون على بلنت اسم « محرر مصر نمرة ١ » وعلى ديلونكل « محرر مصر نمرة ٢ » ، وذلك من قبيل السخرية والتهكم ، لأن اسم بلنت اقترن بالحركة العرابية ، بالدفاع عن عرابى فى قضيته الشهيرة ، كما اقترن اسم ديلونكل بمصر فى مجلس نواب فرنسا وصحافتها التى كانت إلى ماقبل ١٩٠٤ « تاريخ المعاهدة الانجليزية الفرنسية » تعطف على مصر وتشاركها فى مواقفها الدولية ، وتمد يد المعونة الى بعض الوطنيين المصريين الذين رفعوا أصواتهم بالدفاع عن مصر فى أوربا فى أواخر القرن الماضى .

وبعد أن انتهى الدور الأول ، دور التهكم والسخرية من بلنت لأنه ظهر بمظهر المدافع عن الاستقلال المصرى ، وبذل فى سبيل ذلك المال والوقت والذكاء ، جاء الدور الثانى دور النميمة والوشاية والاتهام الكاذب ، فادعى لفيف من الكتاب السوريين المقيمين فى مصر ، أن بنت لم يكن مخلصاً للوطنية المصرية ، وإنما كان جاسوساً للإنجليز ، وكان وكيلا مهيجاً Agent provocateur وأنه هو الذى أشعل نيران الثورة العرابية ليمهد السبيل لدخول الإنجليز مصر ، وغاية أرباب هذه الشائعة الذميمة أن يبغضوه إلينا وأن يجعلوه ممقوتاً فى نظر المصريين الوطنيين ليحرموه عطف أصدقائه فى هذه البلاد كما خزم العطف فى وطنه من كبار قومه !

(*) ابتداءً من هذه الفقرة نثبت هنا مقالاً للطفى جمعه نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٨ يناير سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « ويلفريد سكوين بلنت صديق مصر والعرب والاسلام بمناسبة مضى ثمانين عاماً على ميلاده » .

واستمر هذا الدور ، طول المدة التى قضاها المنفيون العرابيون خارج هذه البلاد، ولما عاد بعضهم أمثال المرحوم الشيخ محمد عبده والمرحوم محمود سامى البارودى ونشر بلنت مذاكراته و « تاريخ الاحتلال البريطانى فى مصر » للمرة الثانية «مايو سنة ١٩١٧» ، وهو الكتاب الذى نقلته إدارة البلاغ للغة العربية ، ومهد له الأستاذ عبد القادر حمزة بمقدمة بليغة ، بدأ الجيل الحاضر يعيد النظر فى كل ماعلم وسمع عن بلنت ، وأخيراً ظهر الحق واستقر قرار الكتاب والمؤرخين فى جيلين متعاقبين من الأفرنج أمثال دكتور كوشرى فى كتابه « المركز الدولى لمصر والسودان » والمصريين ، « أمثال المرحومين مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك» ، أن بلنت لم يكن مهيجاً ، ولا مستعمراً ولا مستفيداً ، إنما كان شريفاً إنجليزياً مخلصا للإنسانية والعروبة والإسلام والوطنية المصرية ، كما كان مخلصاً للشعر والأدب والفلسفة وللوطنيتين الهندية والأيرلندية ، وقد أثبت ذلك بما قاساه فى هذا السبيل من سجن وتنكيل واضطهاد من أقرب الناس إليه ومن مليكه ادوارد السابع ومن فصيلة الأشراف والأعيان الذين كانوا يخالفونه فى مشربه ، وقد استمر على مبادئه الإنسانية السامية الى أن توفى رحمه الله فى صيف سنة ١٩٢٢ بعد أن رأى انتصار مصطفى كمال علي جنود اليونان فى سهول الأناضول ، وكان لدى موته فى الثانية والسبعين من عمره ، وقد أوصى بأن يغسل ويكفن ويدفن على شبه الطريقة الإسلامية ، وطلب الى ممرضيه بأن لايلبسوه ثياباً ، وأن لايضعوه فى صندوق ، بل ألحدوه فى قبر فرش بالرمل ، على سجادة شرقية ثمينة ٠ وقد نفذت ممرضته التى حضرت وفاته وصيته بمنتهى الدقة ٠

كان عصر اليوم الأخير من شهر أغسطس سنة ١٩٠٩ عند ما رأيت المرحوم بلنت للمرة الأولى فى قصره العتيق الفخم واسمه « مقر المبانى الجديدة «New building place بجوار هورشام بسسكس بجنوب انجلترا الشرقى ، فقد وصلت مع

رفيقى فى السفر فى الساعه الخامسة ، بناء على دعوة من رب الدار ، فسافرنا من لندن « محطة كلابهام جنكشن » الى هورشام حيث غيرنا القطار ، وركبنا مركبة يجرها جياد الخيول العربية لمسافة ساعة تقريباً فى وسط الحقول والأحراش النضرة.

ولما بلغنا الدار استقبلنا رئيس الحشم Butler وأبلغنا تحية السيد. واعتذر لنا بأنه نام بعد الظهر ليقوى على السهر معنا ، فصعدنا الى غرفنا ، وأخبرنا أن العشاء يكون بثياب التدخين « سموكنج » .

وفى الساعة السابعة مساء دخل علينا فى غرفة الانتظار الرحبة رجل مديد القامة نحيف ذو لحية كثة ، يلبسُ الثياب العربية من عباءة وكوفية وعقال وقفطان ،
لى رقة العود أقرب منها الى ضخامة الهراوة ،
[illegible] جمين رقيق كأنه صوت فتى فى مقتبل العمر ، وقال لنا
[illegible] يلبس الثياب العربية فى منزله ، ثم جلسنا على المائدة لتناول العشاء ، وقد بهرنا ذكاء الرجل وحضور بديهته ووافر أدبه وحلو حديثه ، وكان يتكلم أثناء الطعام عن مشاهير من عرفهم من المصريين كلاما وجيزاً يدل على شديد حبه لمصر وأهلها .

وبعد العشاء انتقلنا الى قاعة الجلوس ، وهى قاعة فسيحة جداً وعالية جداً يكاد ارتفاع سقفها يكون سبعة أمتار « عشرين أو واحداً وعشرين قدماً » ، وقد زينت بأثاث قديم ، يدل على عراقة أصحاب القصر فى النبل والثروة ، ولها مدفأ من المرمر الملون ضخم جداً ، نقلوا اليه شجيرات بأسرها للإحراق ، فكان منظر تلك الشجيرات وهى تحترق وذلك الشيخ الجليل العربى الثوب والمنطق وهو يتكلم فى ضوء تلك النار ، وذكرياته القديمة الجليّة الواضحة ، الجليلة بصدقها ودقتها ، يجعلنا نتخيل أننا فى إحدى خيام أمراء العرب الكرام ، الذين مثلوا فى تاريخ الانسانية دوراً عظيماً ، وقد

عادوا الى بيوتهم ليقضوا الأيام الأخيرة من حياتهم بعد طول الجهاد فى هدوء وسلام، ويروون على أخصائهم مايذكرون من أيام الشباب والكهولة الناضجة ٠

لقد دام هذا المجلس خمس ساعات من الساعة الثامنة الى الساعة الأولى صباحا ، ولا أذكر أننى قضيت أمتع منها ، ولا أنفع ولا أكثر لذة ، وقد كان شوقى الشديد لرؤية هذا الرجل العظيم الذى كان قطعة حية من تاريخ مصر العزيزة ، وصدقه فى روايته ، وتحمسه مع شيخوخته لكل مافيه نفع لمصر من أكبر العوامل على جعل ذلك المجلس من ألذ المجالس وأمتعها وأنفعها ٠

كان الحديث عبارة عن أسئلة وأجوبتها ، أسئلة منا وأسئلة منه ، كل يريد أن يقف على الحقيقة من صاحبيه فى مسائل تحيّره وتهمه ٠ سألناه عن رأيه فى عرابى «وكان لايزال على قيد الحياة ، وقد قضى بعد ذلك بثلاث سنين » ، فقال : « لقد انقطعت المراسلات بينى وبينه من زمن طويل ، وآخر اتصالى به كان بشأن مراجعة ترجمته التى كتبها بيده ، ونقلتها الى كتاب « التاريخ السرى » وقد أرسل الىّ بعد ذلك برسائل ، لم أتمكن من الرد عليها ، لقد كان عرابى صادقاً ومخلصاً فى وطنيته حقاً ، ولكنه كان كثير الكلام قليل العمل ، وكان ذا استعداد خطابى عظيم ، ولكنه كان ضعيفاً فى السياسة والحرب He was a mediocre captain ويظهر أن لتعليمه الدينى دخلاً فى تكوين حالته هذه ، لقد كنا نود جميعاً أن يموت فى ساحة الوغى ، لأن فراره وطاعته لخادمه « ذلك الخادم دخل فى خدمة بلنت بصفة بستانى فى ضيعته بالشيخ عبيد بالقرب من المطرية ، وبقى بها الى أن مات منذ بضع سنين ، وهو فى خدمة شركة مصر الجديدة بصفة رئيس البستانيين » ٠ قد أساءت سمعته فى نظر الأجانب والمصريين معاً ، ولم يكن عرابى مطلقاً خائناً ، ولا مرتشياً ، ولا بائعاً وطنه ، ولكنه كان شديد التردد وشديد الخوف من أوربا ٠

سألناه : ماذا يجب على المصريين نحو هذا الرجل ؟

أجاب : لايجوز لهم أن يحقروه أو يمقتوه ، ولا يليق بهم أن ينصبوا له تمثالا ! بل يكفى أن يقفوا على تاريخه ويعذروه ، ومعاملته بالاحترام والتسامح أولى وأجدر .

سألناه : هل كان دخول الإنجليز مبنياً على غلطة من عرابى ، أم أنه كان أمراً محتماً من حيث الحرب والسياسة ومنطق الحوادث .

أجاب : الخطأ الوحيد الذى أدى الى دخول الجيوش البريطانية ، اقترفه عرابى بمخالفته رأى المجلس العسكرى العالى الذى عقد قبل التلّ الكبير بأيام ، وهو الذى حضره أركان حربه ، وعبد الله النديم ، وجان نينيه المؤرخ السويسرى المحب للمصريين ، فقد أجمع رأى هذا المجلس على تعطيل قناة السويس تعطيلاً مادياً يمنع الجيش الإنجليزى من الوصول الى الشاطىء الغربى لها ، فأرسل عرابى تلغرافاً الى ديلسبس يخبره بأن الإنجليز يخرقون حياد القناة ، وأنه مضطر لتعطيلها ، مادامت دخلت فى ميدان الحرب ، فرد عليه فردنان ديلسبس بتلغرافه الشهير « لاتلمس قناتى (!!؟؟) بسوء ، وأنا الكفيل لك بإنزال عسكريين فرنسويين مع كل عسكرى إنجليزى » .. فتمسك عرابى بهذا التلغراف وقال له أعضاء المجلس « إن ديلسبس هذا مجنون وكاذب ، وليس فى قدرته أن يفى بوعده وليس تحت سلطته قطّان فرنسيان فضلا عن الجنود وأنه لانفوذ له فى بلده ، وأن أعمال الهندسة شىء والحرب والسياسة شىء آخر .. فلم يعمل عرابى بنصحهم ، وقال « أنا خائف من أوربا !! » وفى الليلة التالية دخل الجيش بدَسيسة بعض الضباط ، وبعض الباشوات المصريين « وهنا ذكرهم لى واحداً واحداً ، وكان أحدهم رئيسا لمجلس النواب ، وصار فيما بعد من أكبر الأغنياء ... » .

سألناه عن المرحوم مصطفى كامل ، وكان قد توفى منذ عام لنقف على رأيه فيه لأننا كنا نعلم ما بينهما من الصداقة والمعونة فى خدمة مصر فقال : « لقد كان هذا

الشاب عجيبا Miraculous وكانت له حدة ذكاء ونشاط لم أرَ مثلهما عند كبار الرجال الأوربيين . فقد كان عندى هنا فى سنة ١٩٠٦ « عام دنشواى » وكانت صحته ضعيفة ولكنه بعد الغداء ، استمر يكتب أكثر من خمسين رسالة ومكتوب لأصدقاء مصر باللغة الفرنسية التى كان يجيدها كأحد أبنائها « كان المرحوم بلنت نفسه يتقن اللغة الفرنسية حديثاً وكتابة ، وقد أنشأ بها ، وبالقلم الرصاص الخطاب الشهير الذى تلى فى مؤتمر بروكسيل فى ١٤ سبتمبر ١٩١٠ ونقلته جميع صحف العالم » وقد أسفت كثيراً لموته قبل الآوان لأنه كان يرجى على يديه لمصر خير كبير .

وتكلم عن علاقته بسمو الخديوى السابق فقال إن علاقتى به قد انقطعت منذ بضع سنين ، فقد عرض علىّ أن يزور مربط خيلى Stud فى الصيف وفى يوم الأحد ، فدعوت لفيفاً من أكبر أهل أنجلترا ، وأشرافها وساستها وأنفقت مبالغ طائلة لاستقباله، وقامت ابنتى علي ترتيب الاحتفال ، واستأجرت قطاراً خاصاً ، لأن مصلحة السكة الحديدية تمنع الأسفار على خطوط الضواحى أيام الأحد ، وفى اللحظة الأخيرة ، أرسل الىّ بتلغراف يعتذر فيه عن الحضور ... فكان مركزى حرجاً جداً أمام أضيافى الذين حضروا للاجتماع بسموه ، وقد علمت بعد ذلك ، أنه أطاع فى هذا الخلف أمر جلالة ملك الانجليز ادوار السابع الذى نهاه عن زيارتى لأسباب سياسية . فلما علمت بهذا العذر ، أرسلت لسموه الذى كان لى قبل ذلك صديقاً حميماً أقول «إن كان يطيع أمر جلالة ملك الانجليز ، وهو ليس من رعاياه فأنا بطاعة جلالته أولى مرات، لأننى حقاً من رعايا جلالة ملك بريطانيا » وقد حاول سمو الخديوى تجديد المودة بعد ذلك فلم تمكنه من ذلك الظروف ..

وتكلم عن فريد بك الذى كان على قيد الحياة فقال : إننى معجب به بوصف كونه رجلا مهذباً من أسرة شريفة Gentleman ولكنه سيء الحظ لأنه خلف زعيماً عظيماً بنفسه ، ولم تكن لديه مواهبه ، إن فريد بك رجل طيب فحسب ، وهو صادق أيضا .

وسألناه عن رأيه فى بلاد العرب : فقال إنه ينتظر للجزيرة مستقبلاً عظيماً ، ولابد أن يتحد العرب لتأسيس دولة حرة مستقلة ، وأن أخلاق العرب أعظم أخلاق فى العالم ، ولهذا فهو لايخشى عليها ضياعاً ولا استعمارا ..

ثم سألنا هو عن بنيامين موزلى وظهر لنا أنه لغاية ١٩٠٩ لم يكن يعرفه ولم يره، ولم يعلم بالدور الذى مثله موزلى فى السياسة المصرية بمعونة الخديوى وبعض رجال سياسة انجلترا ، فأفدناه مانعلمه عن الرجل وحبه مصر ورغبته فى اتفاقها مع انجلترا على قدم المساواة ، وحبه لسمو الخديو حباً شخصياً وبغضه للورد كرومر وحقده عليه ، فكتب ذلك فى مذكراته وقد مات موزلى هذا فى سنة ١٩١٧ فى مدينة نيس بجنوب فرنسا .

ثم توسط بلنت بيننا وبين مستر روتستين ليسافر مندوباً عن بعض الصحف الإنجليزية ليصف المؤتمر ويكتب عنه مايجب أن يكتب خدمة لمصر ، لوقوفه على المسألة المصرية وقوف خبير صديق . ودفع الدين الذى كان فى عنق صحف الحزب الوطنى لروتستين ، مذ كان مكاتبا لها فى لندن . وأخبرنا أن روتستين يعد كتاباً عظيما عن مصر ، وقد نشره فعلا ، واسمه خراب مصر Egypt's Ruin ودفع بلنت سائر نفقات طبعه ، وقد نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية ، واستأذنا فى نهاية المجلس مراعاة لصحته وشيخوخته وكان يطيب لنا أن نبقى معه أياماً متتالية ، ولم تغمض لنا عين بعد فراقه ، وكانت الغرفة التى نمنا بها حافلة بمؤلفات نيرون حميه فقرأنا فيها حتى الصباح .

وفى الصباح أفطرنا معه ، وزرنا بقيادته مربط أفراسه وكان يذكر لنا كل جواد باسمه ولقبه وسلسلة نسبه ووصفه العربى كقوله « هذا محجل اليمين » وهذا « الأغر » وهكذا وبينها خيول بيعت بألوف الجنيهات فى أمريكا .

وزودنا بصورته بإهدائه بخطه ، وهى تحمل تاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ ، وقد علمنا منه عرضاً أنه يعيش منفصلا عن زوجته « لادى آن بلنت حفيدة لورد بيرون » وأن ابنه البكر مات فى السابعة عشرة من عمره وأن ليس له سوى بنت واحدة ، وقد حدثت بينهما قضايا مدنية بشأن ميراث الزوجة بعد وفاتها فى سنة ١٩١٧ وقد تركت ثروة طائلة ، وهى التى كانت وهبت أرضاً للشيخ محمد عبده بنى بيته بعين شمس على جزء منها ، وباع جزءاً منها ، وكانت لها ترجمة جيدة للمعلقات السبع بالإنجليزية معتمدة فى جامعة اكسفورد وكانت سيدة قصيرة القامة ، بالغة منتهى الكبر ، كثيرة التجاعيد فى الوجه والجبين ، وعاشت فى مصر وصحبت بلنت فى أسفاره وأتقنت العربية .

وقد أصيب بلنت فى حياته بدائين من الأدواء العضآلة ، الأول حمى الملاريا التى عانى منها أهوالا شداداً وصفها فى مذكراته الأخيرة (١٩٢٠) ومرض الشلل النصفى فلم يقعده عن العمل والتأليف الى ماقبل وفاته بعامين ، ولم يزر مصر بعد سنة ١٩٠٢ رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما أحسن الى مصر وأهلها بقلمه وقلبه وماله .

يعقـوب صنوع « ابو نظارة »

كان يسمى نفسه شاعر الملك ويقيم فى باريس بشارع ريشيه نمرة ٤٣ ويحمل خمسة عشر وساماً فرنسوية وأجنبية ومترجم شرف وزارتى البريد والبرق بباريس ورئيس جمعيات علمية وأدبية كثيرة ويدير جريدتى « أبو نظارة ، والعالم الاسلامى » ، ويراسل جرائد الشرق ٠ هذه الألقاب كلها كان يسجلها مطبوعة فى بطاقته ٠

أول اتصالى به فى مصر سنة ١٩٠١ عن طريق أعداد من جريدته أبو نظارة التى كان يحررها ويصدرها علانية ثم سراً في عهد الخديو محمد توفيق باشا ، أيام الثورة العرابية ، وكان متصلا بالثوار وينطق بلسانهم ويطعن فى أحزاب التأخر والرجعيين وحزب القصر الخديو والاحتلال ، وهو الإسرائيلى الأوحد الذى اشتغل بالسياسة المصرية وكان فى صف الوطنيين وقد أنحى على الخديو توفيق باشا باللائمة وقال له النقد المرير والسب المقذع ، وكان يرسل اليه جريدته بطرق خفية حتى بعد مصادرتها ومنعها ، فكان الخديو محمد توفيق باشا يفاجأ بأعدادها فى زجاجات الدواء وفى لفائف الصحف وفى الخبز الأفرنجي وفى جيوب ملابسه حتى ضاق به ذرعاً ٠

وقد عثرت على مائة عدد منها فى دولاب مهجور في منزل عزمى بك بمصر العتيقة وكان موظفاً سابقاً فى وزارة المالية وعرفته عن طريق أولاده وهو فى المعاش وأحد أولاده محمد توفيق عزمى كان رفيقى فى المدرسة الخديوية وكنا نذاكر الدروس فى فترة الامتحان فى منزل والده الواقع على شاطىء النيل مقابل حديقة المناسترلى وله شرفة مطلة على النهر وله مدخل كبير على الشارع الذى يخترقه الترام ٠ فلما قرأت

أحد الأعداد طلبت من صاحبى أن يسمح لى بقراءة الأعداد كلها فأهدانى إياها جميعاً وكان هذا أول اتصالى بالحركة العرابية عن طريق مطبوعات مؤيدة لها كانت تنشر فى مصر وتعضد الحركة الوطنية ثم قرأت فى كتب أخرى عن تاريخ الحركة وعن الدور الذى قام به الإسرائيلى سنوا أبو نظارة ، فاحترمته .

وفى سنة ١٩٠٨ فى ليون وصلت الىّ أعداد جريدته التى استمر فى إصدارها بعد نفيه من مصر وأرسل الىّ كتاباً بخط يده وهو الخط الذى كان يحرر به جريدته ويطبعها على الحجر ويزينها بصور كثيرة ولا سيما صورته فى زى شيخ مصرى وعلى عينيه نظارته الزرقاء وهى جريدة سياسية هزلية سبقت جريدة النديم « الأستاذ » و«حمارة منيتى» وكانت تصل الى أيدى الشعب لأنها محررة باللغة العامية . وكان لها أثر كبير .

ولما توجهنا الى باريس لأجل المؤتمر سنة ١٩١٠ زارنا أبو نظارة وكتب عن المؤتمر فى جريدته كما سبق له أن كتب عن مؤتمر جنيف وكانت تربطه بالمرحوم مصطفى كامل صداقة متينة وكذلك بالمرحوم محمد فريد . ومازال يكتب وينشر الى أن وافته منيته بعد الحرب الكبرى الأولى فى الثمانين من عمره . وقد قرأت نعيه فى جريدة الطان الفرنسية فاذا هو متصل بالقرابة والنسب بأكثر من عشرين أسرة من كبار أسر اليهود بفرنسا وله مكانة كبيرة وثروة حسنة وقد أقام فى فرنسا حوالى أربعين عاما لم ينس خلالها وطنه الأول ولم يغير زيّه ولم يفتر عن تحرير جريدته ونشرها وإرسالها هدية الى مشاهير المصريين والشرقيين .

وقد كتب عنه مؤرخو الأجانب الذين كتبوا عن الحركة العرابية فى كتبهم ولكن المصريين جهلوه تماما لأن جريدته كانت ممنوعة من دخول القطر المصرى فى عهد الخديو عباس أى الى سنة ١٩١٤(١) ، وإن كنت رأيت بعض أعداد مصادفة ، ولا أظن أن لها مجموعة تامة فى إحدى المكاتب العامة ماعدا مكتبة باريس الوطنية وهو اليهودى الأول والأخير الذى استحق لقب الوطنى من مصر لوفائه وإخلاصه ومثابرته واحتفاظه بشرفه وضميره واحترامه للإسلام والمسلمين حتى أسس جريدة العالم الإسلامى بالفرنسوية والعربية تأييداً لحركة المرحوم مصطفى كامل وكان ينفق على صحفه من ماله الخاص .

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الدكتورة نجوى إبراهيم فؤاد عانوس وضعت كتاباً عنوانه « مسرح يعقوب صنوع » أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤ ضمن سلسلة « دراسات أدبية » .

كما نشر الدكتور محمد يوسف نجم مسرحيات مختارة ليعقوب صنوع وقدم لها ضمن سلسلة « المسرح العربى – دراسات ونصوص ٣٠ » ، طبع دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٣ .

الفهــرس

الصفحــة

تقديم ١

إبراهيم دسوقى أباظة ١٠

إبراهيم طه أبو زيد (فى ترجمته كلام من اسماعيل صدقى) ١٥

إبراهيم المويلحى وولده ٢٠

أحمد إبراهيم « الشيخ » ٢٨

أحمد أبو الفتح « الشيخ » (فى ترجمته كلام عن محمود
أبو الفتح صاحب جريدة المصرى) ٢٩

أحمد زكى أبو شادى ٣١

أحمد شوقى ٣٥

أحمد عبد الرحمن محرم ٥٧

أحمد محرم « الشاعر » ٦٣

أحمد منصور العزب ٦٨

إرمان بيكير ٧٣

أمين الريحانى ٧٤

أمين أنيس ٨٠

أنطون جرجس ٨٣

پالافيتيشينى ٨٤

پول بيك ٨٥

الصفحـــة

چورج أبيض ٨٨
حفنى ناصف ٩٢
حمد الباسل ١٠٥
داوود بركات « وفى هذه الترجمة كلام عـن خليل ثابـت وابنـه كريم ثابت » ١٠٧
زكى بدر « وفى هذه الترجمة كلام عن أحمد زكى شيخ العروبة » ١١٣
ستيفن هيلز پاركر ١٢٢
سليمان البستانى ١٢٧
صلاح الدين بايللى ١٢٩
عبد الحليم وعبد الرحمن البيلى ١٣٠
عبد العزيز إسماعيل ١٣٤
عبد العزيز الإسلامبولى ١٣٧
عبد العزيز الثعالبى ١٤١
عبد الله بكرى ١٥٨
عبد المجيد إبراهيم ١٦٢
عزيز كحيل ١٦٤
على على العزبى « شاعر دمياط » ١٦٨
على فوزى ١٧٤
على محمد الألفى « شاعر بورسعيد » ١٨١
على يوسف « الشيخ صاحب المويد » ١٩٢

الصفحـــة

فرح أنطـون ٢١٣

كاما « وفى ترجمتها كلام عن بعض الزعماء الهنود » ٢٣٢

كامل أبو الذهب ٢٣٩

كامل وصفى أبو الذهب ٢٤٢

محمد أبو الذهب ٢٤٤

محمد أبو شادى « المحامى » ٢٤٥

محمد أبو طايله ٢٥٩

محمد إحسـان ٢٦٤

محمد أسعـد ٢٦٦

محمد البابلى ٢٧٠

محمد بخيت « الشيخ » ٢٧٥

محمد حمـدى ٢٨١

محمد خالد باشات ٢٨٦

محمد شوقى بكير ٢٩٠

محمد صدقى « الطيّار » ٢٩٢

محمد عبد السلام « الشيخ العارف بالله » ٢٩٨

محمد عبده « الشيخ الإمام » ٣٠٧

محمد على وهبه بحراوى ٣٣٢

محمد ماضى أبو العزايم « الشيخ » ٣٣٥

محمود الأيوبى ٣٤٤

الصفحة

محمود بسيونى ٣٤٨
معروف أرناؤط ٣٤٩
موريك بـران ٣٥٣
نجيب اسكندر ٣٥٥
نيقولا بالاماريس ٣٦٢
ويلفريد سكوين بلنت ٣٦٣
يعقوب صنوع ٣٧٤
الفهـرس ٣٧٧

رقم الإيداع ٥٩٠٩ / ٩٨

الترقيم الدولى
977 - 232 - 139 - 4

مطبعة السلام الحديثة

١٠ش عبد السلام متسى
المتفرع من الشهيد أحمد حمدى
مدكور – فيصل
ت : ٥٨٣١٩٣٠